محمد حماد

الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة بين الكاتب والسلطان



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة بين الكاتب والسلطان

المؤلف : محمد حماد

رقم الإيداع : ٢٠١٢/٢٢٤٦

الطبعة الأولى ٢٠١٢



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إلى أبناء جيلي..
جيل السبعينيات ..
خاصة طلائع هذا الجيل..
الذي واجه بالصدر العاري، والوعي الصادق..
الموجة الأولى للارتداد عن الثورة ..
وإلى الجيل الذي جاء من بعدنا، من حقه، ومن واجبه، أن يحقق، ويدقق، ليعرف، وليجد نفسه، ويحدد موقعه، ويتلمس دوره ..
ويواجه الردة الجديدة ..
إليهم جميعاً أهدي هذا الكتاب ..

محمد حماد



الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة
بين الكاتب والسلطان

◆◆◆

كلمة واجبة

-١-

محمد حسنين هيكل مثل الظواهر الكبرى، لا يتكرر إلا بمضي الزمن، ولا يمكن إعادة إنتاجه إلا بإعادة إنتاج الظروف نفسها التي جادت به، ومن أين نأتي كل يوم بزعيم مثل جمال عبد الناصر، ومن أين نأتي كل يوم بثورة مثل ثورة يوليو؟

وإذا كان كل ذلك صعباً فهل السهل هو أن نجد كل يوم هيكل؟

وهيكل مثل الظواهر الكبرى لأنه متعدد الأدوار..

والحق أنه أداها جميعا باقتدار..

دوره الصحافي الكل يشهد له، ويكفي أنه الصحافي العربي الوحيد الذي يدخل في عداد ألمع صحافيي العالم الذين يعدون على أصابع الأيدي..

حاز لقب رئيس التحرير، وامتطى الموقع وجلس على مقعد أستاذه في المهنة، وهو ابن التاسعة والعشرين من عمره، ثم كان هو الذي ارتفع بعد ذلك بجريدة الأهرام من الهاوية إلى مصاف الصحف الكبرى في العالم، وأعاد إليها شبابها بعد أن شاخت، وجعلها جريدة عصرية بكل معنى جميل للكلمة..

ودوره كشاهد على العصر أتاحت له الظروف، وشاءت له المقادير، ما لم تتيحه لغيره، وقد أداه على أكمل وجه، وفي أفضل صورة، وكان الوحيد الذي قدم إسهاماً جاداً ونافعاً في هذا المجال، وما فعله ـ للحق ـ يعد إنجازاً للمهمة التي كلفه بها جمال عبد الناصر، مهمة كتابة تاريخ الثورة، وكان هو الأجدر بالقيام بتلك المهمة، والأيام أثبتت ذلك عن يقين..

هيكل ليس قصة قصيرة..

هيكل رواية طويلة قام فيها بأكثر من دور بطولة مطلقة..

وهو يكتب، ويروي، ويتحدث، يظل مصراً على التأكيد على أحد أدواره، يعطيها الأولوية، وإن لم يحاول إخفاء الأدوار الأخرى، إلا أنه يحب التركيز على الدور الذي يرتضيه لنفسه: دور الجورنالجي.

والحق أنه حتى «الجورنالجي» عند محمد حسنين هيكل ليس هو عند غيره،

فهو من مدرسة مهنية ترى أن الصحافة تاريخ تحت الصنع، وترى الصحافي وثيق الصلة بصناع الخبر، وترى نفسها جزءاً من صناعة الخبر، وليس مجرد أداة لإذاعة الخبر ونشره.

ورغم أن المدرسة التي ينتمي إليها هيكل ترى «الصحافة» جزءاً من الحياة السياسية، خاصة في البلاد المتخلفة، ولكنه كان يصر دائماً على أن يكون دور البطولة المسند إليه في الصحافة، وأن يبقى دوره السياسي جزءاً من دوره الصحافي، ولا يطغى عليه، وظل مصراً على أن يجعل الصحافي هي صفته الأولى، أو صفته التي تستوعب صفاته الأخرى، حتى ولو أصبح وزيراً للإعلام..

والحق أن ذكاء هيكل، وليس حبه للمهنة فقط، هو الذي جعله يتمسك بصفة الصحافي، ويبعد نفسه قدر الطاقة عن لعبة السلطة، وهي لعبة لا تعرف غير الحركة قانوناً للاعبيها، مواقعهم متحركة، أوضاعهم متحركة، درجات نفوذهم متحركة، يصعد الواحد منهم لكي يهبط، ويهبط الواحد منهم لكي يواريه النسيان..

لكن الصحافي، خاصة الكفء، الموهوب، القريب من صاحب السلطة ـ والقريب خاصة من عقله ـ له موقع مختلف في لعبة السلطة، موقع يعتمد على مواهبه، أكثر مما يعتمد على نفوذه، موقع يعتمد على ممارسته للدور المؤهل له، أكثر مما يعتمد على أداء الدور المطلوب منه، لأن الدور المؤهل له ينتدبه، أما الدور المطلوب منه فيمكن أن يطلب من غيره .

وهو، ربما تأكيداً على دوره السياسي، يرى أن الصحافة المصرية والعربية لعبت في بلادنا أدواراً ـ بالطبع سياسية ـ بالغة الأهمية والجلال..

وهو هنا كأنه يتحدث عن دوره، أو هو حديث عن النفس أكثر منه حديثاً عن الصحافة بعمومها، أو عن الصحافيين بعامتهم..

وقد أثبت بالتجربة أن ما يستطيع القيام به متاح خارج السلطة، بقدر ما هو متاح داخل السلطة، وأن السلطة لم تعطه موهبته، بل أن موهبته هي التي جعلته قريباً

منها، بل جعلت السلطة تحرص على أن يكون قريباً منها..

وهيكل تجربة فريدة في نوعها، اقترب من السلطة حد الالتصاق، وحافظ على القدر المناسب من استقلاليته، بما لم يفعله أحد من قبل..

اندمج في لعبة السياسة، لكنه حافظ على فعل الكتابة اليومي، حتى صارت الكتابة هي حياته..

***

-٢-

وقد كنت كتبت مرة، حين أعلن هيكل عما سماه إذن بالانصراف عن الكتابة، وقد فهمها البعض اعتزالاً للكتابة، كتبت ساعتها أقول: أعلن على مسئوليتي الشخصية أن «الأستاذ» لن يعتزل..

لن يعتزل هيكل..

لأن الإنسان لا يعتزل نفسه..

وأقولها بالفم الملآن، بدون ادعاء أني أملك معلومات خاصة لا تتوافر لمن لا يعرفون الأستاذ شخصياً.

أقول، بل أؤكد أن هيكل لن يعتزل الكتابة..

وما أقوله ليست نقلاً عنه..

ولكنه عن علم به..

والذين يعلمون هيكل -حق العلم- يعرفون أنه لن يعتزل..

والذين يعلمون هيكل على حقيقته يعرفون أن هيكل ابن الثمانين أكثر ولعاً بمهنته من هيكل ابن الثامنة عشر لحظة رأى اسمه لأول مرة مطبوعاً على ورق.

ثمانون عاماً هي عمر هيكل..

قضى منها ستين عاما بين القلم والورق..

ستون عاماً عند أي إنسان فيها وقت ضائع..

ولكن هيكل لا يعرف معنى للوقت الضائع..
وهي عند أي إنسان يمكن حسابها بنصفها، أو بثلثها أو بأكثر من ذلك أو أقـل.. ولكنها عند هيكل ستون عاما بالتمام والكمال.

قضاها كلها:

يعمل أدأب من نملة..

ومنظم مثل آلة مبرمجة..

يقرأ أكثر مما يكتب..

ويكتب بعمق ما يقرأ..

يقطر رحيق كتابته مثـل نحـل لم يبخـل بالسـعي سـاعات النهـار مـن زهـرة إلى أخرى، ومن بستان إلى غيره، ليضع رحيقا مختلفاً ألوانه، وطازجا كأنه ابن ساعته!

ستون عاما قضاها كلها في الصحافة والكتابة..

هل يعتزل الإنسان ستين عاما من عمره؟

هل يعتزل الإنسان ستين عاما هي عمره الحقيقي؟

هل نحسب على هيكل طفولته؟

هل نحسب عليه أيام صبوته الأولى؟

هيكل الذي يهمنا، ونعرفه، هو هيكل لحظة بدأ طريقه إلينا.

لحظة أصبح صحافياً يخاطبنا..

ومن ساعتها لم يغب عنا لحظة واحدة..

نحن صنعناه على أعيننا..

هو بعض قناعاتنا..

هو هذه العبارات التي صارت بعض كلامنا اليومي..

لذلك فهو ليس لحظة عابرة..

ليس وقتاً ويمضي..

مثله يبقى بيننا.. ولا يتركنا..

وهو إذا اعتزل الكتابة يعني أنه يعتزلنا..

وهل يقدر حتى ولو أراد..

لم يتأخر مرة عن موعده معنا..

يسكت أحيانا..

ولكنه يظل يكتب لنا..يغضب أحيانا ويشيح بوجهه عن بعض ما فينا..

ولكنه يكتب..لا أحد يمكنه أن يتصور هيكل لا يكتب.. لأنه يصحو من نومه ليكتب..ولأنه يقرأ لكي يكتب..ولأنه يعيش لكي يكتب..يموت الزمار وأصابعه تلعب..ويحيا هيكل والقلم بين يديه يكتب..

كان يجلس مع عبد الناصر..فيكتب..

ويتركه ليعود إلى مكتبه..ليكتب وقائع ما جرى قبل دقائق حتى لا تخونه الذاكرة إذا ما حاول الرجوع إلى ما كان.

يحادثه عبد الناصر بالهاتف..

فيكتب هيكل رؤوس الموضوعات وعناوين جرت مناقشتها..

يغلق عبد الناصر الهاتف..

فينكب هيكل على كتابة تفاصيل ما كان في لقاء الهاتف..

يذهب هيكل إلى نومه ومعه قلم وورقة وكتاب..

لم ينم مرة إلا بعد أن قرأ..

ولم يقرأ مرة إلا وأتته فكرة..

وإذا هاجمته الفكرة كتبها حتى ولو نداء النعاس يصرخ من تحت غطاء النوم..

متى توقف هيكل عن الكتابة؟

ومتى يتوقف الإنسان عن التنفس؟

وهو وزير، يحضر اجتماعات مجلس الوزراء، وعبد الناصر يرأس الاجتماع،

والحديث مفتوح حول موضوعات بالغة الأهمية، بالغة السرية، يسمعه عبد الناصر يقول من على طرف المائدة:

- هذا يصلح مانشيت الأهرام غداً..

فيحذره عبد الناصر:

- إحنا في إيه.. وأنت في إيه؟

صحيح..

إحنا في إيه؟.. وهو في إيه؟

نحن في كل حاجة.. وفي أي حاجة..

ولكنه في حاجة واحدة:هي الكتابة..

وقد أثبتت الأيام صدق حديثي، ولم ينصرف هيكل، بل لعله ازداد حضوراً، ولا هو اعتزل الكتابة، وبدا في بعض الأوقات مقبلاً على العودة إلى الكتابة المنتظمة، لولا بعض الظروف، والكثير من الملابسات، وتلك قصة أخرى..



الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة
بين الكاتب والسلطان

هيكل وأنا
وهذا الكتاب

◆◆◆

-١-

في البدء كان التليفون:

قبل أن ألتقي «الأستاذ» كنت كلمته مرتين هاتفياً، وكان هو الذي بادر إلى مهاتفتي في المرتين، بشأن حوار أجراه معه الكاتب الصحفي محمود المراغي الذي كان رئيساً لتحرير جريدة «العربي»، وكنت وقتها سكرتير عام التحرير بالجريدة..

فوجئت، ولم تكن الساعة الموضوعة أمامي على الحائط قد غادرت السادسة صباحاً إلا منذ دقائق معدودة، بجرس الهاتف على مكتبي، كنت منهمكا في مراجعة بعض بروفات الصفحات تمهيداً للتوقيع بالموافقة على طبعها أفلاماً.

رفعت سماعة الهاتف وأنا مشغول بقراءة ما أمامي وقلت متثاقلاً:

- نعم..

فإذا بصوت أكاد أعرفه ولكني لم أتبين بعد صاحبه يسألني:

- أكيد أنت فلان؟

زاد اهتمامي مع فضول يريد أن يعرف من المتصل في هذه الساعة المبكرة جداً من الصباح يسأل عني:

قلت: نعم أنا هو

قال: أنا هيكل يا محمد.

سألت غير مصدق:

-نعم؟ .. تقصد الأستاذ هيكل؟

قال: أيوه ..

وتابع مباشرة:

صباح الخير..

وأنا أرد عليه تحية الصباح سمعته يقول:

في الحوار كنت قلت لمحمود رقماً عن عدد الأكراد في تركيا، وبعد مراجعتي للرقم، تبين أنه أقل قليلاً من العدد الذي ذكرته له، هل أطمع في أن تراجع الأرقام، وتطمئني أن الرقم الصحيح هو الذي سينشر، وليس الرقم الخطأ.

فأسرعت أقول:

- طبعاً يا أستاذ، لكن اسمح لي بسؤال..

قال: تفضل..

قلت: هل كنت تتوقع أن أحداً يمكن أن يكون موجوداً في هذه الساعة المبكرة جداً من الصباح؟

فقال: أنا لم أكن أتوقع، أنا كنت أعرف أنك موجود من الأخ المراغي، فلما رجعت قلت أتصل بك لأصحح الرقم الوارد في الحوار.

فقلت وقد ملأتني الدهشة:

- يعني أفهم أن حضرتك استيقظت، وخرجت، ورجعت والساعة الآن لم تصل السابعة صباحاً بعد.

فقال وهو يسألني تكملة بيت من الشعر:

- دقات قلب المرء قائلة له... إيه؟

وللأسف أني ـ ربما من وقع المفاجأة الصباحية ـ لم أستطع أن أكمل الشطر الثاني من البيت ذائع الصيت لأمير الشعراء أحمد شوقي.

فقال:

- قائلة له أن الحياة دقائق ..

فأكملت:

- وثواني ..

وعن أهمية الوقت أيضاً مضى الأستاذ يذكر لي بيتاً من أشعار المتنبي، وللأسف أيضاً أني لست أذكره، ولا أنا سجلته في أوراقي عقب المكالمة، وكان قد طلب

مني إكماله، فلما حرت جواباً، أكمله وهو يترحم على جيلنا الذي لم يزود نفسه وذاكرته وذائقته بالشعر العربي وخاصة لشاعر مثل المتنبي أو أحمد شوقي.

وكان مزاج الأستاذ رائقاً جداً، وقال لي:

- المراغي يؤكد دقتك وسأعتمد عليك في تصحيح الرقم.

ومرة أخرى وبعد أقل من ثلاث ساعات طلبني مدير مكتبه، وأبلغني أن «الأستاذ» معي، وجاءني صوته:

- أنا طلبت من محمود البروفة النهائية للحوار لمراجعته، ولكني سأعتمد عليك في ذلك، رغم أني أراجع ـ عادة ـ بنفسي مثل هذه الأمور، حتى لا تتصور أن أحداً من مكتبي هو الذي يقوم بالمراجعة.

وعدته خيراً، وأنا أضغط على كل حرف:

- يا أستاذ أنا قرأته حرفا.. حرفا، وليس كلمة..كلمة..

وشكرني وأغلق الهاتف، ووضعت السماعة، وكان الشيء الوحيد الذي يتردد داخلي مستقراً كاليقين:

- لهذا أصبح هيكل.. ولهذا هو هيكل..

ـ٢ـ

ثم كان اللقاء الأول معه.. وكان هو أيضاً المتكرم بدعوتي إلى شرف لقائه.

ذهبت إليه على موعد حدده «الأستاذ» مع الفنان حلمي التوني الذي رشحني مديراً لتحرير مجلة «الكتب، وجهات نظر»، وكان مطلوباً أن يدشن «الأستاذ» انضمامي إلى أسرة المجلة حسب ما فهمت من الفنان الكبير.

كنت ـ حسب الموعد بالضبط ـ أدور للمرة الثانية أمام العمارة، وقبل أن تدق الساعة العاشرة صباحاً، دلفت من الباب الخارجي، متوجهاً إلى حيث المصعد، وما أن وصلت إلى مدخل شقة المكتب حتى سمعت دقات الساعة، ومع دقات الجرس فتح الباب، وتقدمني أحدهم إلى غرفة في المواجهة مباشرة أمام الداخل، وفي الردهة التي تتفرع عنها الغرف، التقطت عيني ـ رغم الضوء الخافت- في

طريقي مجموعة من الصور للأستاذ هيكل في مواقع شتى، كأنها تحكي قصة قلم مع متعة البحث عن المتاعب.

استقبلني مدير مكتبه منير عساف مرحباً، طالباً مني الجلوس دقيقة واحدة لا أكثر، حتى يبلغ الأستاذ بقدومي، جلست أنظر حولي في الغرفة بينما يرتدي منير سترته مغلقاً أزرارها ثم متوجهاً إلى خارج الغرفة، والغرفة عادية لا شيء فيها يلفت النظر، دوسيهات لا تفصح عما فيها من أوراق، وفاكس ضخم وكمبيوتر وأوراق هنا وهناك.

بعدها بأقل من دقيقة كان راجعاً إلى حيث يتقدمني الآن إلى غرفة «الأستاذ» الذي وجدته واقفاً في انتظاري وهو في كامل ملابسه الرسمية، حمدت الله أني لم أطع نفسي في ارتداء ما تيسر مما أحب من ملابس أبعد ما تكون عن لقاء يضفي عليه "الأستاذ" ـ على الأقل من حيث الشكل ـ مهابة ذات طابع رسمي، كان يرتدي حلة أنيقة، ومن النظرة الأولى ستعرف أن تأثيث المكتب تقليدياً، الكراسي، المكتبة... كل شيء تقليدي جداً.

رحب بي الأستاذ ومباشرة سألني بود حقيقي:

- أنت إذن فلان.

أحسست أنه يريد القول بأن موعد لقائنا قد تأخر كثيراً، بعد أن تأجل الموعد أكثر من مرة، إما بسبب غيابه الاضطراري عن القاهرة، وإما بسبب انتظار وجود آخرين، كان من المفترض أن يحضروا اللقاء، ولكن "الأستاذ" قرر من ناحيته أن يراني هو أولاً، ثم يكون بعد ذلك لكل حادث حديث..

ومن ناحية أخرى كانت تصلني بعض أصداء لردود أفعال "الأستاذ" حول ما أكتب، منها ما كان بالاستحسان، وبعضها يقول بأن بعض جوانب الصورة تغيب عني، خاصة فيما كتبت عما أراه انقلابا ضد ثورة يوليو، ويراه الأستاذ صراعا على السلطة انتهى لمصلحة السادات في مايو سنة ١٩٧١.

أرشدني بنظرة منه، وإشارة من يده اليمنى، إلى حيث الكرسي الوحيد الموضوع

قبالة منتصف المكتب في مواجهته حيث جلس، وأنا أجلس قفزت إلى ذهني صورة «البابا» وهو يستقبل كبار ضيوفه على هذه الشاكلة بالضبط، وتذكرت أن البعض يسمي المقعد أمام الأستاذ «كرسي الاعتراف»..

والآن...

يجلس هو حيث يكتب ما كنت أقرؤه بنهم وأخشى ـ من فرط ولعي بطريقته في الكتابة ـ أن ينتهي المقال، وكانت كل المقالات تنتهي سريعاً، أو تذوب داخلك، كأنها قطعة من حلوى المولد التي يبقى مذاقها عالقاً بفمك، وبذهنك حتى تعود إليها من جديد، وقت العيد.

الآن...

أجلس أنا أمامه، انتظر ما سوف يقوله، وكنت قد حضَّرت نفسي للحديث عن مجلة «وجهات نظر»، وكنت كتبت أفكاري حول ما سوف أقوله بهذا الخصوص.

كنت سأقول له:

- «لا شك أنها مجلة جادة في زمن غير جاد، ولا شك أنها سدت نقصاً كنا في احتياج إليه، ولا شك أنها تستهدف نوعاً خاصاً من القراء، غالباً لم يكونوا في حساب الدوريات التي تصدر أو كانت تصدر، نوعية القراء المثقفين، وكنت سوف أعترض على سعرها المرتفع بأكثر من الضروري، وهو السعر الذي علمت ـ سلفاً ـ أنه هو الذي اقترح بأن يكون عشرة جنيهات، وكانت أسبابه تقول أنه لن يزيد على ثمن تذكرة سينما، وهو السعر نفسه الذي كانت الجرائد تباع به، في وقت كانت تذكرة السينما لا تزيد عن قرش صاغ ونصف.

ولكنه لم يتحدث..

دعاني لحظة جلست إليه بملامح وجه مألوف وودود إلى الحديث:

- هه ... إيه ...؟

تذكرت في اللحظة ذاتها ما قاله يوما المبدع الكبير يوسف إدريس وهو يجري معه حواره الصحافي الأول لجريدة الجمهورية أوائل الستينيات، وفي مقدمة

الحوار تجده يقول: «يقطع عليك التهيؤ، وترتيب الأفكار، وأية مقدمات قد تفكر فيها، وخالف توقعاتي، وضرب أول مشاهد سيناريو كنت تصورته لبداية اللقاء».

وهذا ما حدث معي بالضبط، ولعل «الأستاذ» أحس بحيرتي، وقرر أن يبادر هو، فانطلق يقول:

- سوف أوفر عليك، وعلى نفسي الكثير من الكلام وأبدأ أنا، نحن نتطلع إلى عقل لمجلة «الكتب»، وهي للعلم وعلى الهامش، فكرتي وكنت تصورت أن تصدر عن مؤسسة الأهرام، ولكن لظروف كثيرة، متعددة ومتشابكة، حالت دون أن تخرج عن الأهرام، وكان إبراهيم المعلم قد سمع بالفكرة، وتحمس لأن تصدر عن دار «الشروق» التي تطبع كتبي الآن في القاهرة، وعرض عليَّ مشاركته فيها بنصيب في رأس المال، ولكني رفضت فكرة المشاركة، وقبلت فكرة أن تصدر عن دار المعلم، وفكرت في أن يرأس تحريرها اثنان من أكبر وألمع الصحافيين والكتاب في مصر، وكان أمامي سلامة أحمد سلامة وجميل مطر، أحدهما لديه موهبة وقدرات جلب المواد الخام، والآخر لديه قدرات وموهبة تحويلها إلى بناء ضخم فخم جميل، وإذا شئت توضيحاً أكثر، فإن أحدهما عليه إحضار وتحضير الجرانيت والرخام، والآخر عليه نحتها وصناعة الفن الجميل منها.

ثم أسندنا الإخراج إلى فنان «كويس» هو صديقك حلمي التوني، والحقيقة أنه أضفى لمسه فنية خاصة جعلها تبدو أفضل من حيث الشكل الجمالي من مثيلتها التي تصدر بالإنجليزية، والتي كانت الأساس وراء إصدارنا لهذه المجلة بالعربية من القاهرة.

وهكذا توفر لهذه المجلة إمكانيات هائلة توفرها دار «الشروق»، ويوفرها قدرات ومواهب كل من سلامة أحمد سلامة وجميل مطر ومعهما صديقك.

وكل ما ينقصنا ـ في هذا العمل ـ هو عقل المجلة، أو الجسر بين الفكر والإنتاج، وهو بالضرورة، وبطبيعة عمله، يجمع في داخله، وضمن قدراته ومواهبه، الموهبتين، موهبة الفكر، وموهبة القدرة على متابعة التنفيذ والإنتاج.

ورُشحتَ أنت لتقوم بهذه المهمة، تشارك معنا في التفكير والتحضير، ثم تتابع أنت مع حلمي التنفيذ، وتشرف عليه، هذه هي مهمتك المطلوبة منك.

وأردف «الأستاذ» يقول، وكأنه أراد أن يفرغ من كل ما عنده دفعة واحدة:

-لا أخفي عليك أن بعض المشاكل طرأت في العلاقة بين رئيسي التحرير، وأحياناً ينشأ مثلها مع المشرف الفني، ولكنا سوف نتغلب عليها.

كان قد بدأ سريعاً، رشيقاً، ثم لدى الجمل الأخيرة أخذت نبرة السرعة تنخفض حتى توقف نهائياً وهو يسألني:

- رأيك إيه؟

كنت قد أحسست بالألفة معه، وكنت قد تآلفت مع المكان، ولو فكرت من قبل في أني سوف أحس بكل هذه الألفة في هذا الزمن القياسي، بالنسبة لمقدرتي على التآلف مع من أقابلهم للمرة الأولى، وهي عادة ما تخونني، ما صدقت نفسي، فقلت دون تفكير:

- لا أظن أن هذا عرض عمل، بل أخشى أن أقول إنه عرض مشاكل.

فاجأه ـ لا شك ـ الرد، فتساءل بوجهه، وبحركة يديه، وبدون كلمات:

- كيف؟

واصلت حديثي:

- حضرتك تقول أن هناك رئيسين للتحرير، مهمتهما معاً المادة التحريرية، وهناك رئيس تحرير للإشراف الفني، مهمته الشكل، وستكون مهمتي ـ أولاً ـ بين رئيسي التحرير، إلى حين يكتمل بناء العدد، كل عدد، ثم سوف يكون عليّ ـ ثانيا- أن أعمل مع رئيس تحرير ثالث، لإخراج هذا التصور إلى حيز الوجود، والسؤال هنا: إلى من نرجع عندما تنشأ مشكلة في التنفيذ، وإلى أيهما نحتكم، وأي قرار ينفذ، ثم هناك رعايتك للمجلة، وعرفت من حضرتك الآن أنك تشارك في التفكير والتحضير، وأخيراً هناك إبراهيم المعلم نفسه، وهل له تدخل في هذا أم لا؟،

وهكذا أجدني أمام عرض مشاكل أرى لها أولًا، ولا أرى لها آخرًا[١].

قاطعني الأستاذ قائلاً:

- وإذا كان الذي سيوفر لك الحماية [٢] هو هيكل؟

قلت وقد اعتبرت ذلك إطراء لي واجتاحني شعور بالثقة والسعادة غامر:

- أبدأ من الآن.

قال:

- إذن ماشي، سوف يستقبلك إبراهيم[٣]، وسوف يكون من حقك كما هو حق لهم في المجلة، أن تختبر العمل معهم، وأن يختبروا هم بدورهم العمل معك، على الأقل في الفترة الأولى.

وهكذا أحسست أن المقابلة انتهت أو كادت، من دون أن يتطرق الحوار إلى ما هو أهم، على الأقل من وجهة نظري، فسألته:

- هل انتهى موضوع المقابلة؟

فسألني بدوره:

- إلا إذا كان لديك شيء آخر؟

قلت:

- لا شك أنك تتوقع أني انتظرت هذه اللحظة طويلاً، ولا شك أيضاً أنك تستطيع أن تخمن كم حلمت أن أجلس هنا معك في المكتب، حيث تكتب، وحيث هذه الموسيقى الهادئة التي لا أعرف من أين تنساب.

قلت ذلك وأنا أتلفت حولي وهو يبتسم تاركاً لي الفرصة لاستكمال ما أقول:

---

(١) لم يلبث الأمر طويلاً على هذه الحال، واختلف الوضع المركب، وغادر جامع الجرانيت والرخام، وبقي صانع البناء الجميل، يبحث بنفسه عن مواد البناء، غادر جميل مطر، وبقي سلامة أحمد سلامة.

(٢) قالها بالإنجليزية: protect you

(٣) يقصد إبراهيم المعلم صاحب ومدير دار الشروق.

- فكرت طويلاً في الكثير من الأسئلة التي سأطرح عليك، عندما يأتي وقت كنت أعرف أنه سيجيء، وأجلس إليك أسأل وتجيب، وللعلم عندي من الأسئلة ما يكفي، إذا سنحت لي الفرصة، أن تسود صفحات موسوعة حول أهم فترات تاريخ مصر والعرب المعاصر، وكنت أنت شاهداً عليها، كثير من الفراغات أحسب أنها في حاجة إلى أن تسد، وكثير من الالتباسات أظن أنها في حاجة إلى أن تُستجلى، والآن كل ما أريد أن أقوله أني بصدد مشروع كتابة موسعة وأريدها معمقة حول دورك إلى جانب أنور السادات والعنوان الأولي في تخطيطي هو «هيكل- السادات قراءة في أوراق العلاقة بين الكاتب والسلطان» أو إذا شئت اختصاراً فلنقل: «دراما الكاتب والسلطان».

لم يبدُ مستريحاً، وسأل ـ ربما مستنكراً ـ :

ـ ولماذا السادات؟

وقبل أن أجيب قاطعني حاسماً:

- لا أريد الحديث فيما تنوي الكتابة فيه وحوله، لك مطلق الحرية، ومن ناحيتي، أنا قلت كل ما أريد، وأتاحته لي الظروف والملابسات وأشياء أخرى تقدرها، ليس لي كلمة واحدة أضيفها، عندك ما كتبت، وما قلت وكله مسجل، ومدون، ويمكنك الرجوع إليه، حياتي كلها، أو على الأقل ما هو عام منها، ومواقفي كلها، وكل أعمالي، وكل آرائي، كل ذلك موجود ومسجل على الورق، ومهمتك أن تقرأ، وتحكم، وعندك ما كتب غيري، وما قال، وما روى، وأنت حر فيما تكتب.

قلت له: قرأت أغلب ـ ولا أقول كل ـ ما كتب عنك، وهو في رأيي قاصر عن تفسير ظاهرة هيكل، من حيث تعدد الأدوار، ومن حيث تعدد جوانب الصورة، ومن حيث تعدد الرؤى حول هذه الأدوار، وتلك الجوانب فمثلاً؛ علاقتك بأنور السادات، وهي علاقة «دراماتيكية» بكل ما تحمله الكلمة من معاني، وبكل ما تعطيه من انطباعات، وبكل ما تشير إليه من نتائج.

هذه العلاقة هي نموذج لعلاقة الكاتب بالسلطان، أو المثقف بالسلطة، وأنت من أوائل الذين بادروا بالكتابة عن تلك العلاقة في أزمة المثقفين، وكان الزمن غير الزمن، وكانت القضايا غير القضايا، وكان الانحياز ساعتئذ غير الانحياز، واختلفت القضايا فيما بعد، وتبدلت الانحيازات بعد ذلك، حين اختلف الزمن، وتسلطن أنور السادات، وانفرد بمقعد ارتاح إليه، وراح يتسلط من فوقه، وأرادها علاقة سلطة مع مثقف، لا يجاوز دوره، ولا يتجاوز حدود هذا الدور.

هنا العلاقة مختلفة..هنا طبيعة العلاقة مختلفة.. هنا أساس العلاقة مختلف..

حتى الاختلاف له قواعد هنا، وهي ليست هناك...

حتى الاتفاق له محاذيره هنا وهي ليست هناك ...

قلت للأستاذ هيكل وهو يسمع باهتمام:

- أقول إن اختلاف التجربتين، تجربتك مع عبد الناصر ثم مع السادات، ليس فقط اختلاف في الطبيعة، ولا في أساس العلاقة، ولا في قواعد الاختلاف، ولا في محاذير الاتفاق، ولا حتى في الاختلاف بين الرجلين اللذين اقتربت منهما، وهما على قمة السلطة في مصر.

ليس هذا كله فقط.

ولكنه ـ وهذا مهم في رأيي ـ يكمن أيضاً في اختلاف دورك أنت إلى جانب كل منهما.

ونظرتك أنت إلى كل منهما، وإلى دوره.

وأحسست أني أطلت بدون الدخول إلى الموضوع، فقلت له قاطعاً استرسالي:

ـ أتصور أن هذا هو ما يحتاج إلى كتابة موسعة ومعمقة حول تلك العلاقة، بينك وبين أنور السادات، مقارنة بعلاقتك مع جمال عبد الناصر.

قال وهو يبتسم:

- انطلق إذن[1] .

---

(١) قالها بالإنجليزية: Go ahead

-٣-

وتكرم الأستاذ بإجابة بعض استفساراتي، مؤكداً أن ما يقوله هو لي، أو هو بلغة الصحافة خارج التسجيل، تحدث عن أنور السادات، وعمن أسماهم «مراكز القوى»، وعن أسوأ موقف يمكن أن يجد المرء نفسه فيه بين أمرين أحلاهما مر، وذكر لي قصة ترشيحه للدكتور محمود فوزي رئيساً للوزراء، وأفاض في الحديث عن «الموقف» الذي لا يحسد عليه، والذي وجد نفسه في خضم صراع على محيط القمة، كانت السلطة هي هدفه، وأن يكون الخيار محصور بين ما يسميه الجهالة والسفالة..

وعندما سألت الأستاذ:

ماذا لو أنك وأنور السادات كنتما في الجانب الخاسر يوم ١٣ مايو سنة ١٩٧١؟

ما هي النتائج التي تتصورها؟

ضحك وهو يقول:

- لن تكون النتائج مختلفة كثيراً عما يحدث لديكم في الحزب الناصري وفي جريدته «العربي»[١].

ثم عاد ليقول جاداً:

أتصور أن أكثر شيء كانت البلد مرشحة له هو حرب أهلية، وكنت أكاد أرى ألسنة نيرانها عند الأفق، وأتصور أن مصر كانت ستحكم بالحديد والنار، وأشد الأساليب البوليسية بطشاً وجوراً، وكان كل ذلك سيتم تحت أعلام ناصرية، وخلف صورة جمال عبد الناصر، وأعتقد أن مصر تحت حكم هؤلاء كانت مرشحة للسقوط بطريقة غير كريمة في قبضة الاتحاد السوفيتي.

لم أشعر بأن نصف الساعة التي كانت محددة للقاء أصبحت ساعة وعشر دقائق، إلا مع دخول منير يذكر الأستاذ بموعد ما.

(١) يشير الأستاذ إلى الانقسامات داخل صفوف الحزب الناصري الذي يرأسه واحد ممن اسماهم الأستاذ هيكل مراكز القوى، والى الأوضاع المالية المتردية التي تعاني منها جريدة الحزب.

استأذنت..

وهو يأذن لي، قال:

ـ ستقابل أكثر..

قلت وأنا أمد يدي لمصافحته:

ـ إن شاء الله.. [1].



(١) لم يقدر لي المشاركة في العمل بالمجلة، وتلك قصة أخرى.

الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة
بين الكاتب والسلطان

بدلاً من التقديم

◆◆◆



-١-

كنت أدرس في السنة الأولى من مرحلة الثانوية العامة عندما أنهى أنور السادات معركته ضد من أسماهم «مراكز القوى»، وأشهد أنني كنت، ضمن كثيرين، استراحوا لنتيجة ما حدث في الثالث عشر من مايو عام ١٩٧١.

اعترف أن أنور السادات لم يكن ذا بريق يجذبني، كما كان الحال مع جمال عبد الناصر، الذي كنا صغاراً يتحدى بعضنا البعض الآخر فنقول: «لو كان أبوك عبد الناصر تقفز من فوق البرج»!.

ولم يكن السادات فاقداً للبريق وحده، ولكننا كنا نسمع شبهات تقال علنا عن سلوكياته العامة.

كل ذلك لم يكن يرشح للانحياز إليه، في مواجهة من وضعهم في السجون، لكي ينفرد بالسلطة، دون معارضة أو اعتراض.

رغم ذلك، أعترف مجدداً أنني أحسست، ربما بتأثير من أحد أفراد عائلتي له اتجاهات إسلامية، بأن شيئاً ثقيلاً قد انزاح من فوق صدورنا.

لم أكن أعرف، ولا كان ممكناً أن أعرف، كنه ذلك الشعور الغامض بأن شيئاً ثقيلاً قد انزاح من فوق الصدور، ولم يكن بمقدوري، بحكم السن ونقص الخبرة وأشياء أخرى، أن أحدد أسباباً وراء هذا الإحساس.

لم يكن عبد الناصر قد سكن التراب بعد، وكان الناس، كل الناس، مفجعين لغيابه، وكنت تشعر أن الفراغ الكبير قد يغري البعض إلى القفز في المجهول.

وكانت خريطة القوى والشخصيات عند القمة في ذلك الوقت تحوي خليطاً من الشعارات، والشعارات المضادة، والإشاعات والإشاعات المضادة، والانحيازات، والانحيازات المضادة، ما أفسد لحظتها كل محاولات التفسير لهذا الإحساس الغامض لدى الكثيرين بأن شيئاً ثقيلاً قد انزاح.

وكان سباق الشعارات المطروحة فيه ما يؤكد الاستمرار على الطريق التي رسم معالمها جمال عبد الناصر، وفيه ما يطالب بالتصحيح، والبدء من جديد.

وكان ضمن خلط الأوراق واختلاطها أن رشح اسم خالد بكر الرئيس الراحل نفسه.

وأذكر أن إذاعة « لندن» ذكرت اسم السادات باستخفاف، وهي تتحدث عن أقوى المرشحين للخلافة، وكان من بين أبرز الأسماء زكريا محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة ونائب الرئيس ورئيس الوزراء الأسبق، وعدَّد المذيع يومها أسماء الشخصيات البارزة على الساحة المصرية، فتحدث عن عبد اللطيف البغدادي، وزكريا محيي الدين، وعلي صبري، وشعراوي جمعة، والفريق محمد فوزي، وسامي شرف، وكان من بين الأسماء التي رشحت لتولي المسئولية خلفاً لجمال عبد الناصر شخصيتين مدنيتين هما الدكتور محمود فوزي، والأستاذ محمد حسنين هيكل، ثم مضي المذيع في لهجة واثقة قائلاً أما النائب الأقدم للرئيس الراحل وهو السيد أنور السادات فأمامه الكثير ليكون هو رجل الدولة المنتظر.

وبينما كان هيكل مذكورا ضمن أقوى المرشحين لم يكن السادات غير أضعف المرشحين للخلافة في بورصة الترشيحات التي نصبت في ذلك الوقت.

وعندما حسم الأمر لأنور السادات، بدا وكأن الصراع عند القمة قد خمد إلى حين في ظل رئيس ضعيف، ومرؤوسين أقوياء يمسكون بأيديهم كل مفاتيح السلطة وقوتها.

-٢-

هل كان مصدر ذلك الشعور الغامض بأن شيئاً ثقيلاً قد انزاح من فوق الصدور، هو الخوف الفطري لدى المواطن على مصير بلد تدور من حوله المؤامرات، ويقف على أبوابه عدو محتل لجزء عزيز من الأرض؟

هل هوالخوف على مصير البلد أن زج بها في أتون معارك داخلية في وقت يفرض عليها الأعداء معارك تجيء من الخارج؟

هل هي صورة الذين أدخلوا السجن، ولم تكن جماهيرية بالقدر الكافي للتعاطف

معهم، خاصة وأن التعاطف الجماهيري مع السادات، ولم يكن يتعد حدوده الدنيا في ذلك الوقت، كانوا هم صناعه؟

لم يكن الخوف على المصير وليد لحظة انفجار الصراع بين أطراف السلطة بعد عبد الناصر، بل يمكننا القول بثقة أن ساعة الرحيل نفسها، وهذا الخروج الجماهيري غير المسبوق في التاريخ لتشييع جثمان الراحل، كان في صورة من صوره إحساس بالخوف على مصير غامض من بعده.

أذكر أن بعض أفراد أسرتي - هذا صاحب الاتجاه الإسلامي المعادي لعبد الناصر- بكى لحظة أذيع نبأ الرحيل، وسألته بطفولية، لا أقصد البراءة ولكن أقصد السذاجة، وبعض الاستغراب مستنكراً:

- لماذا تبكي عليه؟

رمقني بنظرة مازلت أحس بالخجل منها حتى الآن، وبعد لحظات قال بصوت ملؤه التأثر والصدق:

- لست أبكي عليه، إنما أبكي مصير بلد ارتبط به بما لم يرتبط بأحد من قبله، ولست أظن أنه سوف يرتبط بأحد من بعده بمثل ما ارتبط بجمال عبد الناصر.

ساعتها أحسست بوجع الفقد.

-٣-

وسط الإحساس بأن شيئاً ثقيلاً قد انزاح من فوق صدورنا، بدأت الأسئلة تدق رأسي بلا رحمة:

- لماذا جرى ما جرى؟

وكان على في هذه السن المبكر، وربما كان على جيلي كله، أن أبحث، أو نبحث لأنفسنا عن إجابات.

بدأت أطالع، كما من المؤكد أنه حدث مع طلائع جيلي، كل ما يقع تحت يدي، واتجهت بوصلة قراءاتي وجهة أخرى غير القراءة في كتب التراث والأعلام والأدب، اتجهت إلى قراءة التاريخ القريب، لكي أفهم ما يجري أمامي، ولا

أستطيع له تفسيراً.

في تلك الأثناء، وجدت كنزي المفقود في كتابات محمد حسنين هيكل، وكانت تجيب بطريقته المتفردة على الكثير من الأسئلة المطروحة في الشارع.

ومن بعدها اتسعت دائرة القراءات والمعارف، وتفتحت دوائر المعرفة بالأحداث والأشخاص حتى اقتربت كثيراً، فيما بعد، من بعض الذين حكموا مصر تحت أعلام جمال عبد الناصر.

كان من بين هؤلاء الراحل شعراوي جمعة نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية الأسبق، وشاء حظي، الذي أشرف به، أن أكون أول من يزيح اللثام عن شهادته للتاريخ، ونشرتها في العديد من الصحف المصرية والعربية.

وكان ضمن هؤلاء محمد فائق وزير الإعلام، ورجل عبد الناصر في أفريقيا، الرجل الذي كان عبد الناصر يقول إنه رفض أن يصبح وزيراً.

وكان من بينهم ضياء الدين داود المدني الذي صعد عبر التنظيم السياسي إلى أعلى سلطة في الدولة، والوزير السابق وعضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي منذ سنة ١٩٦٨ وحتى مايو سنة ١٩٧١.

وكان من بين من اقتربت منهم كثيراً من رجال عبد الناصر سامي شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية في عهدي عبد الناصر والسادات.

وكان من بين من أحببت من هؤلاء فريد عبد الكريم الذي تتلمذت على يديه، في مكتبه إبان عملي بالمحاماة أوائل الثمانينات، وقبل تفرغي لمهنة الصحافة والكتابة.

وكان من بينهم أيضاً كتاب وصحافيون كبار شاركوا كل حسب جهده ودوره في صياغة أفكارنا ونحن ما نزال نحبوا في بلاط صاحبة الجلالة، منهم أستاذي وصديقي الكبير محمد عودة رحمه الله، ومنهم الأساتذة كامل زهيري ومحمود السعدني وحسين فهمي ونجاح عمر ويوسف الشريف وحسنين كروم وحسين عبد الرازق وصلاح عيسى ومحمود المراغي وغيرهم كثيرون.

وكانوا جميعاً ضمن دائرة المشاركة في كثير من الأحداث التي صاغت العلاقة بين السلطة من ناحية، والمثقفين من ناحية أخرى.

ـ٤ـ

ومع اتساع دائرة القراءة، وتعدد دوائر المعرفة بالأشخاص، والأحداث، تفتحت أمامي، وأمام جيلي، بعض الإجابات على بعض الأسئلة.

وظلت رحلة البحث عن يقين ـ فيما حدث ـ تشدني، وتشدنا كل يوم بأشد من اليوم الذي سبقه.

وفي اللحظة التي بزغت فيها داخلي فكرة البحث عن العلاقة بين الكاتب والسلطة، وفي خضم مراجعتي لكل ما كتب ونشر، أو في بعض ما لم ينشر، وأعطاني أصحابه مشكورين الحق في الإطلاع عليه، كان أمامي نموذج متفرد لتلك العلاقة.

كان أمامي نموذج لعلاقة بين كاتب وسلطان بدأت بالتحالف حد توحد المقاصد وانتهت بالعداء وانفجرت، وكان لدوي انفجارها صوت بدا أعلى من صوت الرصاص في حادث المنصة.

كانت العلاقة بين هيكل والسادات هي النموذج الذي لا يباريه نموذج في العلاقة بين الصحافة والسلطة، وكانت القصة قد اكتملت فصولها برحيل أحد طرفي العلاقة.

وكان ضرورياً أن تروى.

وجدتني مندفعاً في التحضير لرواية فصول تلك العلاقة، أبحث في كل ما كتب عن هيكل، وعن السادات، وهو كثير، لأقدم إسهام واحد من هذا الجيل الذي نشأ وعيه كرد على الارتداد عن طريق الثورة، إسهام يتعلق بفهم تلك العلاقة النموذج بين كاتب له حجم ودور وتأثير هيكل و«تاريخه»، وبين صاحب السلطة التي ارتدت.

كان مهماً أن تأتي الرواية من زاوية رؤية مختلفة، ومن حساسية مغايرة.

زاوية رؤية تعبر عن جيل آخر، لم يعاصر، ولم ينافس، ولم تتأثر له مصالح

خاصة، ولا هو سعى إلى مغانم.

وكان أحمد بهاء الدين قد أرسى مبدأ، أو منهج، يقول إن على كل جيل يفد إلى الساحة، أن يكتشف بنفسه، ولنفسه، «كل ما جرى»، حتى يجد نفسه، ويحدد موقعه، ويعرف دوره.

ولأن لكل جيل يجئ رؤيته التاريخية، ووعيه بالتاريخ، دقائق، وأشخاص، وعلاقات، وقوى تتحرك على رقعته، كان هيكل يعمل، ويكتب لجيل « يجيء، ويحقق، ويدقق، ويقارن، ثم يعرف، ويحكم ».

ولكل جيل حساسية مختلفة.

لم نكن من جيل عاصر هيكل منافساً أو حانقاً أو حتى صاحب طلب.

ولم نكن من جيل رآه يمشي فوق الأرض مرحاً وقد بلغ الجبال طولاً.

ولم نكن من جيل اقترب منه، فاحترق بناره، وأصبح مادحاً من المداحين، أو درويشاً من الدراويش.

ولم نكن من جيل ابتعد عنه، واخترق المسافة إلى غيره من أعدائه، ليصبح بوقاً لهم، أو صدى صوت، أو عازفاً للحن وضعوا نغماته، وكتبوا جمله الموسيقية الزاعقة.

-٥-

حتى جمال عبد الناصر المشترك الجامع بيننا وبين هيكل وكل الوطنيين لم يكن هو عبد الناصر نفسه الذي عرفناه نحن.

عبد الناصر لدى هيكل رجل من لحم وشحم ودم، وعروق وأعصاب عايشه وشاهده وشهد له أو عليه، أما عبد الناصر عند جيلنا فقد كان رمزاً ودوراً وطموحاً وآمالاً تعلقت بها الأمة ولا تزال، ولا نزال نعايش ذلك الطموح ونعيش على تلك الآمال.

عبد الناصر عند هيكل كان أحداثاً ووقائع وحوادث، وحوارات، ونزعات إنسانية، أما عبد الناصر عند جيلنا فقد كان دلالات، ومشاريع محققة، وأخرى

مجهضة، وثالثة مأمولة.

عبد الناصر عند هيكل رجل، أو هو أغلى الرجال، وعبد الناصر عند جيلنا قائد فذ، في زمن صحت فيه أمتنا، ووعت دورها، وراحت تلعبه تحت قيادته، بكل ما فيها من إصرار على الحياة الحرة الكريمة.

عبد الناصر عند هيكل فيه اختلاف، وعليه خلاف، وله ومعه خلافات ، أما عبد الناصر عند جيلنا فقد كان فوق الخلاف، وبعده، لأنه بقي لدينا واحداً من أعظم صناع القرن العشرين، الذي جاء فيه امتداداً وتحقيقاً لكل الأماني الوطنية والقومية خلال هذا القرن.

عبد الناصر عند هيكل رئيس، وزعيم، وصاحب فضل، شاء حظه أن ينعم بشرف صداقته.

أما عبد الناصر عند جيلنا فهو خط، ومنهج، وطموح، ونحن أبناء خطه ومنهجه، وأبناء طموحاته، أبناء مشروعه لنهضة هذه الأمة، كما هو بالضبط الابن البار، والمطور للمشروع نفسه، ذلك الذي بدأ مع محمد على، وكان أحمد عرابي أحد أهم محطاته الكبرى، تتالت من بعده محطات، عبرها مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس، وغيرهم من قادة ورموز نهضة هذه الأمة العظيمة.

من زاوية للرؤية من واحد من هذا الجيل نروي هذه العلاقة.

بين هذين النموذجين شديدي الاختلاف شديدي الاتفاق...

- ٦ -

عشت فترة التحضير للكتابة حول دراما العلاقة بين الكاتب والسلطان مع محمد حسنين هيكل، وخاصة من زاوية علاقته المعقدة والدرامية مع أنور السادات، وكانت متعة ما بعدها متعة، أن تجلس إلى موضوعك طويلاً، حتى تألفه، ويألفك، فتتفتح أمامك رويدا رويداً شيئاً فشيئاً مغاليق كانت أوصدت.

كنت أحاول أن أقرأ ما بين السطور في هذه العلاقة المركبة، وظللت أفحص

أقوالهما على لسانهما أو منسوبة إليهما لكي أخبر جوهر هذه العلاقة.

طوال هذه الفترة، وهي طويلة نسبياً، صاحبت هيكل والسادات، سنوات عدة أثناء التحضير، وشهور عدة أثناء التفرغ للكتابة، وكانت مصاحبتهما شيئاً ممتعًا.

أعترف - و قد يكون مفاجئاً لهؤلاء الذين يعرفون آرائي في السادات خصوصاً - أن أقول إنني سعدت بهذه الصحبة.

وقد صحبت معهما واحداً ممن يحبهم هيكل، ويحفظ له عن ظهر قلب المئات من أبيات شعره.

صحبت المتنبي.

وكان معنا - على الدوام - ذكرى رجل فرض نفسه على طبيعة وتجاويف العلاقة بين الرجلين، كان معنا جمال عبد الناصر.

وكان ذلك مثار سعادة حقيقية ومحط ترحيب على الأقل مني، ومن هيكل، ومن بعض السادات عندما كان ناصرياً لا يشق له غبار، كما وصفه صديق (السادات ـ القناع) محمد عبد السلام الزيات[1].

وهي صحبة ، تضم عبد الناصر والمتنبي، والأصل فيها هيكل والسادات، تفرض عليك أن تكون في أعلى ذرى التيقظ، والتنبه، خاصة عند رواية كل منهما لحدث ما.

عليك أن تتعامل مع « صائغ الكلام » الأول بالكثير من الحذر والحيطة، لكي تتعرف على مكنون الحقيقة كما هي، لا كما أرادت لها « الكلمات » أن تكون، عليك أن تستنبطها، أو تستخرجها من ظلال كثيفة وضعت حولها، سبقتها أو تلتها، وأن تخرجها من ألوان، وضعت فيها، وألبست لها، إما لأن « الوقت » لم يكن يسمح بغير قول الحقيقة وسط هذه الظلال، وإما لأن درجة القرب، أو

(١)سياسي مصري اقترب من أنور السادات وعمل معه حين كان السادات رئيسًا لمجلس الأمة ، وشغل منصب نائب رئيس الوزراء بعد انقلاب مايو سنة ١٩٧١ ، وسجنه السادات فيما بعد، وانقلب عليه، وأصدر كتاباً اسمه «السادات القناع والحقيقة».

الابتعاد، بين الكاتب والسلطة، كانت تفرض في الحالتين - القرب والابتعاد - صبغتها بتلك الألوان.

وكان محتماً عليَّ أن أتعامل مع واحد أدمن راوية الحدث الواحد بأكثر من رواية، بعضها تفصيل لبعض، وبعضها نفي للبعض الآخر، وأكثرها كان الغرض منه - بعد التدقيق - عدم الكشف عن مكنون نفسه، بل وستر هذا المكنون طول الوقت، خاصة وهو فوق قمة سلطة فردية، ارتفعت به إلى مصاف « الفراعنة »، لا يسأل عما يفعل، كما قال عنه الشيخ الشعراوي رحمه الله وسامحه.

كان السادات طوال الوقت يراوغ الحقيقة، وتراوغه، يتجنبها، ويلتف من حولها، ويزوغ منها، ويكابر في مواجهتها، ويحاول تضليل الآخرين حتى لا يصل منهم أحد إليها.

وخلافاً لجمال عبد الناصر، الذي حاول أعداؤه، واستماتوا في طمس حقائق الدور الذي أداه، كان أنور السادات هو الذي حاول بنفسه طمس حقيقة الدور الذي لعبه في الحياة السياسية.

ولعل كل جهده قد انصب طوال فترة الرئيس جمال عبد الناصر على محو آثار تاريخه قبل الثورة أو تبييضه، وكان جل جهده طوال فترة حكمه قد انصب على محو آثار تاريخه في ظل عبد الناصر أو إعادة صياغته ..

وهكذا ستجد أن أنور السادات رجل راح يمحو كل تاريخه، أو يكيفه من جديد، على مقاس رب العائلة، وكبيرها، والحاكم بأمره فيها.

-٧-

لم تكن سعادتي بمصاحبة كلاً منهما ـ هيكل والسادات ـ طوال تلك الفترة تنبع فقط من « التحدي » الذي يفرضانه على أي باحث جاد عن الحقيقة وسط الركام، ولكنها كانت تجيء أيضاً من لحظات اكتشاف تلك الحقيقة وانكشافها وسط هذا الركام.

فأنت عندما تقرأ عن أيهما تجد العجب.

الذين كتبوا عن هيكل أو السادات هم واحد من اثنين لا ثالث لهما:

إما معه على طول الخط ..

وإما ضده على طول الخط ..

الذين «مع» اعتمدوا رواية كل منهما تجاه نفسه، وتجاه الآخرين، وراحوا يكيلون له كل ما في جعبتهم من أساليب المديح، كما راحوا يكيلون للمختلفين معه كل صنوف الشتائم.

والذين «ضد» اعتمدوا رواية الآخر، وراحوا يكيلون له كل ما في جعبتهم من أقوال، وأقاويل عن وقائع حدثت، أو عن أحداث اخترعت، أو أخرى فبركت.

الذين مع السادات - مثلاً - قارنوا بينه وبين الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، وللأسف، كانت المقارنة لصالح محمد بن السادات، وليس محمد بن عبد الله (!)، الذي - في زعمهم - ولد بنقطة سوداء في قلبه استلزمت أن يشق صدره جبريل عليه السلام ليقتلعها منه، أما السادات فقد ولد من غير نقطة سوداء واحدة في قلبه (!)، بل اعتبره البعض في عدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورفعه البعض الى مرتبة سادس الخلفاء الراشدين..

هكذا قال الذين معه على طول الخط..

أو هكذا وصل بهم جموح المديح، وإلى مثل هذه الترهات أوصلهم ركب النفاق..

والذين ضده، ومنهم هيكل بالطبع، وجدوا فيه ما لم يقله مالك أو غيره في الخمر..

وكان السادات يهتز طرباً من المديح، وكان يطير صوابه إذا مس أحد طرفاً له.

وهيكل - أيضاً- لم يعرف في الكتابة عنه، إلا نوعين، يقول إنه لم يعد يتفاعل معهما..

نوع لا يتفاعل معه حتى لا يموت غيظاً، حين يهاجمه البعض، بالحق أو بدون حق..

ونوع لا يتفاعل معه حتى لا يموت غروراً، حين يمدحه البعض الآخر، عن دراية، أو بدونها.

-٨-

ورغم أن العرب تقول « يهوى المديح مبرز ومقصر »، إلا أن لهيكل الحق في موقفه هذا، و لعله قاله قبل أن يقرأ نوعاً ثالثاً أظن أنه اعتبره جديراً بالإهمال بدوره ، بل هو - في رأينا - الأجدر بعدم التفاعل معه.

ذلك النوع من الكتابات التي على شاكلة « القص واللصق» التي كانوا يعلموننا طريقتها صغاراً حتى نعرف العلاقة بين الألوان والمساحات والأحجام بطريقة عملية.

بقيت طريقة اللصق بعد القص هواية من لا يقدر على موهبة الرسم الحقيقي، فاختار الأسلوب نفسه حتى يبدو أمام بعض السذج، وغير المتخصصين، من الرسامين الكبار:، وقام هذا النوع من الكتابة حول هيكل على قص الأحاديث والروايات والقصص التي أدلى بها هو نفسه، في مواضع متفرقة، وفي أزمنة متباعدة، وبدون ترتيب منهجي، وفي غير تمحيص تفرضه أصول البحث العلمي، أو حتى أصول الكتابة الرصينة.

هذا النوع من الكتابة الذي أعاد ترتيب أرشيف هيكل، يتصور أصحابه أنهم أغلقوا باب الكتابة عن الرجل، وهو قول - فضلاً عن سذاجته - فيه انتقاص من هيكل نفسه، وهو الذي سيظل - في رأينا- وكغيره من أصحاب الأدوار المميزة في تاريخ أمته، في حاجة لإعادة قراءة من جديد، على ضوء ما يتوافر للأجيال من معلومات، أو يتوفر لها من قدرات تحليلية.

مصيبة - في رأينا - أن يتصدى واحد من كتاب القص واللصق للكتابة عن واحد من أهم كتاب الرأي خلال النصف الثاني من القرن العشرين على الصعيد العربي، إن لم يكن الأهم من بينهم جميعاً.

بل هي من أمهات المصائب.

-٩-

رغم أن «الأستاذ» قال لي:

ـ أنت حر فيما تكتب، عندك حياتي على الورق مكتوبة، وعندك ما قاله الآخرون، لك أن تتقصى، ولك أن تحكم ..

رغم ذلك، إلا أنه هو الذي وضع بنفسه الأسلوب الذي آليت على نفسي أن أتقصى خطواته، عله يفلح في إدراك الإجابات التي نبحث عنها، لأسئلة ظلت معلقة فوق الرؤوس، تستدعي من ينزلها على أرض البحث، حتى تستريح، أو تريح، إلى منطق ما حدث، تفسيراً لا تبريراً، غوصاً إلى أعماقها، وليس مجرد ملامسة السطح منها، أو بعبارته هو: "تعقب للخطى على الطريق الذي سارت عليه الوقائع، حتى وإن أصبح هذا الجهد من نوع ما يقوم به قصاصو الأثر في الصحراء، مزيج من تتبع أقدام ظاهرة على الرمال، فحص مخلفات باقية وراء كثبانها، إلى استقراء الرياح العابرة والروائح العالقة في الجو، وربط هذا كله ببعضه، ووصل الفراغات بين أجزائه، ولو حتى بالاستنتاج، بغير الجموح إلى الخيال".

هكذا حاول هيكل نفسه أن يفعل لكي يعرف إجابة السؤال:

كيف وصل السادات إلى هنا؟

إلى القدس المحتلة؟

كان هذا سؤال هيكل مع السادات..

ولكن الأسئلة التي بدأت معي مشواري للتعرف على دراما العلاقة بين هيكل والسادات كانت كثيرة، وكان بعضها محيراً..

وكان بعضها« لغزاً ملفوفاً بالأسرار، ومحاطاً بالغموض».

وكانت في معظمها قد جرى التعتيم على أي إجابات مقنعة عليها.

كان أول الأسئلة:

من استخدم من؟

هيكل أم السادات؟

وإذا صح أن هيكل استخدم السادات، فبأي أهداف، وإلى أية طريق كان يسوقه؟

وإذا صح العكس، فلماذا ترك هيكل أنور السادات يستخدمه؟، ولأية أهداف رضي بذلك؟

وعلى الإجمال ما الذي كان هيكل يريد أن يجنيه من وراء التحالف مع السادات؟

وكان من بين أسئلتي :

لماذا اختلف هيكل مع السادات..

لماذا اختلف، وهو الذي تحالف معه، وتوحدت مقاصدهما حد الالتصاق ؟

وعلى ماذا اختلف معه؟

وكنت أتصور أن إجابة السؤال:على ماذا؟، أهم، لأنها ربما توضح لنا لماذا اختلفا؟

وبرز أمامي سؤال كبير:

ألم تكن بعض أفكار هيكل هي الأسس النظرية التي تساند إليها، واستند عليها أنور السادات في توجهاته السياسية الجديدة ، وعندي على ذلك الكثير من الأمثلة:

- مثلاً، ألم ينطلق السادات من مقولة «تحييد أمريكا»، وهي مقولة مستحيلة، إلى مقولة «إنها تملك مائة في المائة من أوراق اللعبة»، وهي مقولة مخجلة.

- مثال آخر، ألم ينطلق السادات من حديث هيكل عن «اللا حرب واللا سلم» إلى قرار طرد الخبراء السوفييت من مصر.

- وسؤال ثالث، ألم يكن هيكل نفسه هو أحد حلقات «الوصل» والاتصال بين السادات، وبين أمريكا في لحظة من اللحظات.

وكنت أتساءل عن هيكل الذي فضح السادات شر فضيحة، وبالوقائع والوثائق أعطانا حيثيات «الحكم» عليه، ما الذي دعاه إلى البكاء لحظة سمع خبر اغتيال السادات ؟

ألم يكن كتاب« خريف الغضب» هو الاغتيال الثاني للرئيس الراحل؟...

وهو اغتيال جاء بعد أن كان الرجل غادر الدنيا إلى حيث يلقى حسابه الأخير.

-١٠-

لم يكن من بين أهدافي أن أكتب مؤلفاً يدخل في تصنيف الكتب التي ضد أنور السادات، أو ضد محمد حسنين هيكل، أو تلك التي تقف في صف واحد منهما ضد الآخر.

هدفي كان، ولا يزال، بدون مواربة، هو درس العلاقة بين الكاتب، خاصة عندما يكون في حجم، وقيمة، وتجربة، ودور، واحد مثل هيكل، وبين السلطان خاصة عندما يكون في صورة وسياسة ودرامية صاحب سلطة مثل السادات، وأن أستعرض وقائع ما جرى على طول مسافة العلاقة بينهما، في إطار من علاقة الكاتب والسلطة.

وأول ما أريد تأكيده، وأضع تحته خطوطاً حمراء، هو أن تخصيص مؤلف ما، عن علاقة ما، تحتويها فترة زمنية ما، لا يعني أن رأينا توقف عند حدود هذه العلاقة، أو عند مساحة هذه الفترة الزمنية، سواء بالنسبة إلى الكاتب الذي بدأ مرحلة جديدة في حياته بعد رحيل السلطان، أم بالنسبة إلى صاحب السلطة نفسه، والذي ظلت سياسته قائمة وربما حتى الآن.

كان المهم عندي، أن واحداً من جيلي - جيل السبعينات - ومن زاوية رؤية يمتلكها هذا الجيل، يحاول أن ينظر إلى هذه العلاقة وإلى تأثيراتها في المحيط العام الذي تأثر به هذا الجيل واكتوى.

كان هذا همي كله.

و كان هذا محط اهتمامي أيضاً.

اعترف أن انحيازي كان قائماً طول الوقت إلى رؤية جيل نظر من خلالها حوله في غضب ولا يزال.

والانحياز إلى رؤية، وعلى أساسها محمود، إن لم يكن مطلوباً في بحث كهذا

آليت على نفسي القيام بجهده، أما الانحياز إلى أي من طرفي العلاقة التي ندرسها، ونبحث فيها، وحولها، فلا يقوم - في رأينا - إلا على انحيازات « ذاتية»..

و«الذاتية» هي أول الطريق للخروج من الموضوعية..

هي بوابة المغادرين إلى مغارات النفس، وتجاويفها، وانفعالاتها، وتفاعلاتها.

وهو ما أردنا - بوعي - أن نبتعد عنه، وحاولنا قدر الطاقة، والإمكان أن نتجنبه..

وهذا لا يمنع من أن أقرر أيضاً أنني كنت - ولا أزال - منحازاً بالوعي، مثل طلائع جيلي، ضد كل ما مثله أنور السادات من أسلوب للحكم، ومضمون للسياسات التي اتبعها.

وكنت بالانتماء - و لا أزال - مثل طلائع ذلك الجيل ضد كل ما انتمى إليه السادات من مصالح، وتحالفات تحفظ هذه المصالح، في الداخل ومن الخارج.

وكنت بالوعي وبالانتماء أقدر انحيازات محمد حسنين هيكل الأساسية، مثل جيلي.

وكنت، ومازالت آخذ عليه - وهكذا جيلي - الكثير من المواقف، والكثير من الأفكار، والقليل من الانحيازات.

ويجدر بي أن أتوقف هنا لأسجل تأكيداً واجباً:

إن هذا ليس تاريخ مرحلة، لأن تاريخ أي مرحلة يجب أن يحيط بكافة جوانبها، وبكل أحداثها، فضلاً عن كل أبطالها..

إن تركيز الدراسة على العلاقة بين الكاتب والسلطان وتقديم علاقة السادات وهيكل كنموذج لهذه العلاقة، لا يعطي الصورة الكاملة لأي منهما.

هذا ليس كل أنور السادات، هو بعضه، بعضه المهم بالنسبة له، هو أهم فترات حياته، والأكثر أهمية بالنسبة إلى مسار الأحداث بعد ذلك في مصر والوطن العربي، وربما في العالم أجمع، ولذلك أفردنا له هذا الجهد.

وهذا ليس كل محمد حسنين هيكل، هو بعضه، فهو كان موجوداً قبل رئاسة

السادات، وربما كان تأثيره أكبر، وأشمل، ثم إنه ظل موجوداً بعده، ومؤكد أنه صاحب دور أكبر وأفضل..

ولكنا رأينا أهمية خاصة لدراسة العلاقة بينهما، ففعلنا راجين أن يكون عملنا إسهاماً في فهم فترة من أهم وأخطر فترات تاريخنا المعاصر، فمثل هذه الدراسة لمثل هذه العلاقة بين هيكل والسادات يعطي - في نظرنا- مجالاً حقيقياً لأي باحث في تاريخنا المعاصر لكي يدقق أحداث وحوادث كثيرة أثرت، وما تزال تؤثر في مجرى ما نعيشه حتى الآن وربما لعقود مقبلة.

ومن هنا أهمية درس هذه العلاقة..

ومن هنا صعوبة ما أقدمنا عليه..

الأهمية نفهمها ونعطيها حجمها..

والصعوبة حاولنا فك طلاسمها..

ولست أطلب عن ذلك غير أجر المجتهد الذي يستحقه وإن أخطأ.



لماذا هيكل والسادات؟

◆ ◆ ◆



-١-

راهن هيكل مرتين على رجلين مختلفين حد التناقض.

في السنوات الأولى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ راهن هيكل على جمال عبد الناصر، وكان محمد نجيب في تلك السنين هو الرجل الأول رسمياً.

ولكن هيكل رأى في عبد الناصر قائد الثورة الحقيقي، وكانت الوقائع أمامه تشير إلى أنه الرجل الأقوى في النظام الجديد..

مشى هيكل وراء حدسه بأنه الرجل القادم في مصر..

وكسب الرهان.. وكسب دوره الذي سيعرف به فيما بعد..

وبعد رحيل عبد الناصر، راهن هيكل على زكريا محي الدين أولاً، فلما خرج من دائرة الترشيح الجدية لخلافة عبد الناصر، عاد فراهن على أنور السادات..

ولم تكن الوقائع تشير إلى أنه سيكون الرجل الأول، أو الرجل القوي في النظام الجديد، وكان قادة نظام عبد الناصر يمسكون بدفة الأمور في البلاد.

وكسب هيكل الرهان من جديد...

ولكنه كاد يخسر نفسه هذه المرة..

فوجئ هيكل بالرجل الذي راهن عليه، ودعمه، وانحاز إليه في مواجهة خصومه، يطيح به في أقرب فرصة، وعند أول خلاف حقيقي.

لم يطق السادات الخلاف معه..

وخرج هيكل، ثم عاد واستعاد نفسه من جديد..

كان هيكل الذي راهن على عبد الناصر، هو ابن التاسعة والعشرين من عمره، قليل الخبرة في الحياة السياسية، ولم تكن كل مواهبه قد تفتحت، ونمت وترعرعت.

وكان هيكل الذي راهن على السادات هو ابن السابعة والأربعين، وقد اكتسب خبرات ضخمة خلال عمله إلى جوار رجل بحجم وقيمة جمال عبد الناصر طوال ١٨ عاماً مكثفة من النضال، والمعارك السياسية والديبلوماسية والإعلامية..

كسب هيكل الصغير رهانه الأول... وكسب نفسه...

وخسر هيكل صاحب كل هذه الهالة وكل تلك الخبرات رهانه الثاني، وكاد يخسر نفسه..

ولم يكن الفارق بين الحالتين، المكسب أو الخسارة، هيكل نفسه، كان الفارق يكمن في طبيعة ودور وشخصية كل من جمال عبد الناصر وأنور السادات.

كان هيكل قد خرج من علاقته بعبد الناصر على نحو يجعله قادراً على التأثير الفعال في مجريات الأمور بعد رحيله، ولكنه كان، في ظل عبد الناصر، واحداً ممن يستمع إليهم عبد الناصر، واحداً من هؤلاء، وليس الوحيد، ثم أصبح بقدرته وكفاءته وخبرته المهنية أولاً، والسياسية ثانياً، مضافاً إلى ذلك عمق اقترابه من عبد الناصر طوال ١٨ عاماً، جعله كل ذلك أكثر تأثيراً في ظل غياب عبد الناصر، وفي مواجهة آخرين كانوا مثله أو أقل من حيث الكفاءة والقدرة، والخبرة والعلاقة مع عبد الناصر.

وكان السادات واحداً من هؤلاء..

كان يحسده على قربه من عبد الناصر..

وكان يعرف ـ بل ويقول لهيكل:

ـ لولا هذا الخط المباشر بينك وبين الراجل الكبير لكانت رقبتك طارت من فوق جسدك.

وكان السادات يذهب إليه في مكتبه، وينتظر، حتى يفرغ من أحاديثه في التليفون..

وحتى عندما أصبح السادات رئيساً، بتخطيط مشترك مع هيكل، كان السادات يمسك له « الفوطة » على طريقة «السفرجية»، وهيكل يغسل يده بعد وجبة طعام دعي إليها في منزله، الأمر الذي استفز هيكل نفسه ويقول له:

ـ «لاحظ أنك الآن رئيس الجمهورية، أنت رمز البلد، ومهما كانت العلاقة، ومهما كانت الأقدار، يظل موقعك يستلزم منك الحفاظ عليه وعلى "هيبته".

هيكل هنا يشارك في صياغة الشخص، لكي يتواءم مع الموقع الذي ساعد في حمله إليه، وليس مجرد صائغ لأفكار كما كان يفعل مع سلفه.

هنا، هيكل دوره أكبر..

هنا تأثيره أفعل..

هنا هو مشارك فعلاً..

صانع للحدث، وليس مجرد شاهد، أو مفسر، أو داعية..

هو هنا أصل، وليس مجرد صدى..

-٢-

كان الفارق في علاقة محمد حسنين هيكل مع جمال عبد الناصر وبين علاقته مع أنور السادات أنه في الحالة الأولى كان يريد أن « يخدم » عبد الناصر، وفي الثانية كان يريد أن يكون «سيداً» للسادات.

مع السادات لم يكن هيكل يريد أن يواصل العمل في خدمة سيد جديد، كان وراءه تاريخ علاقة طويلة مع عبد الناصر، يضاف إلى رصيده لدى بداية جديدة يجري التطلع عندها إلى ما في يد المتواجدين على رقعتها من أرصدة، وهو في هذا قد يفوق الكثير من الحاضرين لحظة الرحيل، أو يتساوى مع القليل منهم.

كانت علاقته المفتوحة مع عبد الناصر بدون تأثيرات الرئيس والموظف رصيداً ضخماً عندما تحسب الأرصدة.

وكان معه ـ ما يزال ـ قلم جبار متمكن، مشهود له من كل الحاضرين بلا استثناء، حتى من كان من بينهم لا يحبه، ولا يستريح إلى علاقته المميزة مع رئيسهم.

وكان من طول المشاركة في أجواء صناعة الأحداث قد اكتسب الكثير من الخبرة، والكثير من المفاتيح..

واكتسب كذلك الكثير من القدرة على التأثير..

وكان قد خبر الكثير من القدرة على تلمس الطريق..

وكلها أشياء تضاف إلى رصيده، ويريدها المرشحون للخلافة، والطامعون إليها، وكلهم يريد ألا تكون ضدهم إن لم تكن معهم.

وكان معه - أيضاً - تحرره من الرغبة في موقع، أو مقعد، مما يتزاحم عليه طلاب السلطة بالمواقع، وكان هو قد ألف أن يكون من طلاب السلطة بالتأثير، فأضاف ذلك إلى قدرة تأثيره في الأحداث رصيداً مضافاً.

في تلك اللحظة..

وبهذا الرصيد..

لم يكن هيكل يريد أن ينقل خدماته إلى خانة سيد جديد..

وكانت أمنية هيكل - كما هي أمنية كل مثقف- أن يكون الحكيم حاكماً حتى ولو بالواسطة التي هي السادات، وكانت الشخصية التي يتقمصها السادات حينئذ تغري الكثيرين على استخدامه، بقدر ما لا تغريهم على خدمته..

أراد هيكل أن يكون شريكاً حقيقياً..

أن يجرب أن يستخدم هو « تابعاً »، وخاصة إذا كان هذا « التابع » سيكون على درجة رئيس جمهورية.

كان المثقف فيه قد خرج من قمقم « التابع »، الذي ظل حبيساً داخله طوال ١٨ عاماً في ظل سلطة رجل استثنائي، وكان المثقف فيه قد استدعى من الذاكرة شاعره المفضل أبو الطيب المتنبي، الشاعر الذي ظل يحلم حتى وافته المنية بأن يكون المثقف أميراً.

كان المثقف فيه والسياسي قد تقاطعت خطوطهما وتشابكت حتى لم تعد هناك خطوطاً فاصلة بينهما، وأصبحا شخصاً واحداً، يفكر كمثقف، ويدخل حلبة الصراع عند القمة كسياسي، له أهداف مرحلية، وأخرى مؤجلة التحقيق.

خطوة.. خطوة..

أو خطوة واحدة في الوقت الواحد..

هكذا وضع قواعد التحرك، عقب إعلان وفاة الزعيم، وكان الآخرون الذين

استدعوا على عجل لينظروا في ما يجب عمله على استعداد للموافقة.

وافقتهم خطته.. فقد ضربتهم المفاجأة، وتضاربت من حولهم الأطماع والطموحات، فاتفقوا على أنور السادات رئيساً.

وتعددت أسبابهم.

-٣-

علاقة هيكل بالسادات هي الأكثر إثارة للجدل، سواء في حياة عبد الناصر، أم بعد رحيله؟

وهي تعطي نموذجاً حقيقياً لدراما العلاقة بين الكاتب والسلطان في لحظة تاريخية هامة، دراما بدأت بربيع للتحالف بينهما، وانتهت بخريف للغضب يحيط بهما، وبكل شيء في البلاد.

وهي علاقة « دراماتيكية » بكل ما تحمل الكلمة من معاني، وبكل ما تعطيه من انطباعات، وبكل ما تشير إليه من نتائج.

نقول : إنها العلاقة الأكثر درامية لأنها بدأت بالتحالف حد الالتصاق، وتوحد الأهداف، وانتهت عند المنصة حيث السادات مضرجاً في دمائه، وهيكل محجوزا بين أربعة جدران تحدها أسوار وفوق الأسوار حراس.

والسادات وهيكل علاقة نموذجية للتعرف على حقيقة علاقة الكاتب بالسلطة.

وليس هيكل وعبد الناصر.

ذلك أن علاقته بعبد الناصر واضحة، بسيطة، وغير مركبة، ليس فيها تحسب من طرفي العلاقة في مواجهة بعضها البعض، وقد كان التحسب بين هيكل والسادات كبيراً منذ اللحظة الأولى.

والعلاقة بين هيكل وعبد الناصر نشأت طبيعية بين زعيم يكرس كل يوم زعامته، وصحافي كفء يؤكد كل يوم مواهبه.

ومسار العلاقة طبيعي، بين زعيم ثورة، وداعية مخلص للزعيم ولأفكاره، وتطورت على هذا المسار، وانتهت طبيعية بعد رحيل القائد..

بدأت وكل منهما في موقعه الطبيعي، وتطورت، وانتهت طبيعية.

أما علاقة هيكل بالسادات، خاصة عندما أصبح هو الرئيس، فقد بدأت وهيكل صاحب فضل وهو اليد الأعلى، وصاحب السلطة لا يطيق أن يبقى إلى جانبه أحداً من أصحاب الفضل عليه، ولا يرضى إلا أن يكون هو صاحب اليد العليا..

البداية إذن غير طبيعية بين هيكل الكاتب الكبير وبين السادات الذي أصبح رئيساً فجأة وبدون مقدمات.

مسارها غير طبيعي، في الجزء الأغلب فيه، كان هيكل ملء السمع والبصر، مؤثراً قريباً من الرجل الأول، داعية للنظام، ولم يكن للسادات غير دور باهت أقرب إلى الظل منه إلى الضوء الباهر الذي يحيط بهيكل طوال عهد عبد الناصر.

ثم يبدأ النصف الثاني من مسار العلاقة، وهيكل صاحب فضل كبير على السادات أولاً في وضع ملامح الحملة الانتخابية لخلافة عبد الناصر، وثانياً في الصراع على السلطة الذي دارت رحاه طوال الشهور التسعة من بعد رحيل عبدالناصر وحتى انقلاب مايو سنة ١٩٧١.

انتهت أحداث تلك الشهور التسعة، وقد جمعت بين هيكل والسادات إلى درجة الالتصاق، وكانت القرارات الرئيسية هي أفكار هيكل، بل إن الكثير من القرارات الإجرائية كانت من وحي أفكاره، ومن تخطيطه.

واختلفت فيما بعد الانحيازات عندما تسلطن السادات، وانفرد بمقعد ارتاح إليه، وراح يتسلط من فوقه، وأرادها علاقة بين صاحب السلطة، وبين صاحب القلم.

وأراد من صاحب القلم ألا يجاوز دوره..

أراده ألا ينسى حدوده..وكان يريد أن يحدد هو هذه الحدود.

أراده أن يلتزم..

يلتزم بأن السلطة لها صاحب واحد فقط، وأنه لم يكن لها ـ أبداً ـ صاحبان..

وعلى هذا اختلفت العلاقة بين هيكل وكل من جمال عبد الناصر وأنور السادات..

هنا طبيعة العلاقة مختلفة..

هنا الاختلاف له قواعد، وهي غيرها هناك..

هنا الاتفاق له محاذيره، وهي ليست هناك..

وكالأنهار التي لا يمكن عبورها مرتين..

الأشخاص كذلك، لا يمكن أن يعبروا تجربتهم الذاتية مرتين..

حتى لو تكررت كل العوامل المحيطة.. هم سيكونون قد اختلفوا..

ولا شك -عندنا- أن علاقة هيكل بالسلطة تختلف في طبيعتها تبعاً لكل مرحلة من مراحل هذه العلاقة.

ولا يجب - بل لا يصح- أن نثبت لحظة ما في حياة وتاريخ محمد حسنين هيكل ثم نحكم بها على كل هذه الحياة أو نقيس عليها كل هذا التاريخ..

فهيكل قبل ثورة يوليو غيره بعدها..

وهيكل مع عبد الناصر غيره مع السادات..

تطورت علاقته مع عبد الناصر وتطور دوره وتطورت ممارسته لهذا الدور مع مجرى الأحداث وداخل النهر وليس من خارجه.

حتى هيكل مع السادات ليس واحداً، بل هو أكثر من هيكل..

فهيكل الذي بدأ مشواره بعد رحيل عبد الناصر مع السادات مؤيداً ومتحالفاً، سرعان ما تحول إلى هيكل آخر، يتحسب من خطوات السادات ويشك في نواياه..

ثم وبعد إطاحته من الأهرام وخروجه « إلى الهواء الطلق » كما يحلو له أن يقول، بعد التحلل من قيود الوظيفة، والتمرد على حدود الدور المرسوم له، هو غير هيكل ما قبله، وما بعده أيضاً.

***

-٤-

على مستوى الكتابة نفسها التي هي صناعة وصانعة هيكل، هناك أكثر من هيكل، واقرأ هيكل الذي مدح الملك في « إنه الفاروق » أو « في عيد ميلادك يا مولاي » تجد كاتباً عادياً وكتابة عادية أو أقل، بل تجدها سطحية، وبدون روح.

هيكل كال المديح الشخصي للسادات بأكثر مما فعل مع عبد الناصر راجع كل مقالاته بصراحة تجد ذلك أمامك وبالأرقام.

لن تجد إلا القليل من المديح الشخصي في عبد الناصر ولكنك ستجد الكثير منه في حالة السادات وعلى غير الحقيقة التي سينشرها هيكل نفسه بعد اغتيال السادات، وهذا - في نظرنا - منطقي لأن هيكل كان يرى- صادقاً - في عبد الناصر ما لم يكن يراه في السادات، كان عبد الناصر لديه مجموعة قيم وأفكار ومواقف - يختلف معها أو يتفق - ولكنها تثير - بلا شك - احترامه، ولهذا كان حديثه عن عبد الناصر حديثا عن الموقف، وليس حديثاً عن الشخص، حديثا عن قيم.. عن أفكار.. عن دور.. عن بطولة.. وعن زعامة، وليس عن مناقب شخصية سواء كانت حقيقية أم مدعاة.

كان يُوصِّف هذه القيم، ويفسر تلك الأفكار، ويصف هذه الزعامة، ويتحدث عن هذه البطولة، بدون أن ينزلق مرة إلى استخدام المديح على طريقة « كأنك شمس والملوك كواكب.. إذا طلعت لم يبد منهن كوكب».

ولعل واحداً من أهم أسباب اختيارنا لنموذج العلاقة هيكل — السادات لدرس علاقة المثقف بالسلطة أو علاقة الكاتب بالسلطان، أن عبد الناصر لم يكن في علاقته بهيكل مجرد حاكم، بل كان هو « التجسيد الحي للوطنية المصرية والقومية العربية »، ما فرض شكلاً ، ومضموناً مختلفاً، وربما غير متكرر، ولا يجوز القياس عليه، ولا نستطيع تعميم القواعد التي حكمته.

وكان عبد الناصر يحرص على أن يضع هيكل دائماً في صورة ما يحدث، حتى يتقن التعبير عنها، ولكن السادات كان يحتفظ لنفسه بتفاصيل ما يجري، وكان

أسلوبه في التعامل مع الصحافة والصحافيين المقربين منه -وكما يقول موسى صبري- هو دعوة رؤساء التحرير في الأحداث الهامة إلى اجتماعات مطولة فرادى أو مجتمعين يشرح فيها حقائق الموقف السياسي بعد اتخاذ القرارات الهامة، ويترك لكل منهم أن يعالج الموقف بقلمه كما يشاء، في حدود الالتزام بالحقائق وصالح الدولة الأعلى ».

استدعاء كبار الصحافيين بعد اتخاذ القرارات الهامة من قبل رئيس الدولة،«كنص تعبير» موسى صبري، هو نوع من الإملاء على أقلامهم ما تكتبه، ولم يكن أكثر من ذلك، ولا يصح أن يكون هذا هو دفاعه عن السادات في معرض نقده لظاهرة اقتراب هيكل من عبد الناصر، لأن أسلوب عبد الناصر مع هيكل لم يكن إلا عكس ما ذكره صبري من تعامل للسادات مع الصحافيين.

-٥-

وهناك نص كاشف عن رأي هيكل في طبيعة علاقته بكل من جمال عبد الناصر والسادات، والفروق بين العلاقتين والرجلين ودوره معهما.

والنص منشور في مقدمة كتابه « أكتوبر، السلاح والسياسة» وفيه يعتبر هيكل نفسه « شاهداً» جراء قربه من صناعة القرار في حالتي عبد الناصر والسادات.

ويستدرك مؤكداً فيما يشبه التواضع، أن التواجد في أجواء صناعة القرار نوع من« المشاركة »، وهو باستدراكه يرتفع بموقفه من « المشاهدة » إلى « المشاركة »، ولو« عن طريق حركة التنفس التلقائي من نفس الهواء »، ثم إنه سوي بين حالته «شاهداً» مع جمال عبد الناصر وحالته «مشاركاً »مع أنور السادات..

وأكد ـ من واقع تجربته ـ أن اقتراب الصحافي من السلطة ليس بالضرورة يمثل قيداً على حريته، خصوصاً إذا كانت المرجعية أفكاراً وأحلاماً يحترمها طرفان، وليست سلطة يحتكرها طرف واحد».

والأمر على هذا الوجه يعبر عن ثقة زائدة في النفس قد تصل إلى حد الغرور، وفيه إغفال في الوقت نفسه، لكون الحاكم في كل صور الاقتراب منه، وأيا كانت المرجعية

الحاكمة للعلاقة، هو وحده الذي يملك سلطة القرار، يحتكرها وحده، وإلا تحول من صاحب السلطة إلى ألعوبة في يد الآخرين، مهما جمعت بينهما مرجعية واحدة.

ويشير النص ـ كذلك ـ إلى أن علاقة الصداقة بين الصحافي والسلطان التي تنشأ في إطار فكرة عامة جامعة، يظل ولاؤها النهائي للفكرة العامة الجامعة، وإلا تحول الصحافي والكاتب من صديق قضية إلى صاحب سلطان، ومن حامل قلم إلى نديم بلاط.

ونسي هيكل، أو لعله تناسي، صوراً أخرى غير علاقة الصداقة، التي ترفع الصحافي إلى قدر ومقام الحاكم، كما يحاول أن يروج لصورة علاقته هو وكل من عبد الناصر والسادات، وغير علاقة «نديم البلاط» التي تخفضه إلى أسفل درك في العلاقة.

ما بين الصورتين، وما لم يذكره هيكل هو صورة الصحافي الداعية، والصحافي المفسر، والكاتب المعبر عن الحاكم، وعن سياسات الحكم، وهو الدور الأقرب إلى حقيقة الصورة في العلاقة بين حاكم وكاتب، خاصة في العالم الثالث أياً كان الحاكم، وأياً كانت مرجعيته، وأياً كان الكاتب، وأياً كانت كفاءته..

ويجيب النص على سؤال لم يطرحه، ولكنه توقعه منا:

- « كيف والفكرة والحلم الذي مثلته مرجعية جمال عبد الناصر تختلف عن الفكرة والحلم الذي مثلته مرجعية أنور السادات، تأتّي له أن يكون قريباً من الاثنين ؟ ».

يقول :

«الذي حدث أنني ظللت قريباً من عبد الناصر من بداية دوره إلى نهايته..

وقد توثقت علاقتنا مع الأيام..

واتفقت، واختلفت رؤانا، للحوارات، والناس أحياناً..

لكن الفكرة المرجعية، وهي المشروع الحضاري الذي قاده عبد الناصر، ظلت هي الحكم، حتى بعد أن لحقها ذلك الشرخ العميق الذي أصابها سنة ١٩٦٧، وكان هذا الشرخ نتيجة لأخطاء في التجربة، ونتيجة لضغوط من الخارج في ذات

الوقت..

ويبرر هيكل استمرار علاقته بالسادات فيقول :

« وكان دور السادات أن يستكمل ما كان جمال عبد الناصر قد بدأه من محاولة لإصلاح هذا الشرخ، بتلافي الأخطاء في الداخل، ومواجهة الضغوط من الخارج ».

كان هذا هو الطبيعي...

وكان هو المنطقي ...

وربما كان هو الضروري ...

ولكن من قال : إن ذلك هو رأي أنور السادات في دوره؟

هل من الطبيعي أو من المنطقي أن يكون « رأينا » في الدور الذي يجب أن يقوم به أنور السادات، هو نفسه ما يجب أن يقوم به أنور السادات، بغض النظر عن رأي السادات نفسه في الدور الذي يجب أن يقوم به؟

سؤال مطروح على الأستاذ هيكل..

وإجابته هامة في معرفة نظرة هيكل إلى دوره هو إلى جانب السادات..

هل دوره كان أن يقنع السادات في أن يكون دوره هو ما يراه من طبيعة ومن مهام لهذا الدور؟

وفي هذه الحالة يثور سؤال:

مَنْ يحكم مَنْ؟

ومَنْ في خدمة مَنْ؟

يضيف هيكل:

- لقد أسعدني أنني « صاحبت » أنور السادات و هو يعاني هموم مسئوليته، ثم « رأيته » وقد ملك شجاعة قرار من أصعب وأخطر ما واجهته مصر في تاريخها، أعني قرار حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ».

وهنا نتوقف من جديد لعدة ملاحظات نراها ضرورية:

أولها: أن هيكل لم يذكر لنا صراحة المرجعية التي وقفت على أرضيتها علاقته بأنور السادات، وإن بدا في سياق النص أن السادات لم يكن يملك تلك المرجعية، وأن هيكل هو الذي وضع أساس المرجعية التي تحكم استمرار علاقته معه، على أساس أن يستكمل السادات ما بدأه عبد الناصر، وهو أمر يقرره السادات لا هيكل، وهذا ما حدث فعلاً.

ثانيها: أن هيكل استخدم تعبير « المصاحبة » في فترة كان السادات « يعاني فيها من هموم مسئوليته »، ثم استخدم تعبير « المشاهدة » في الفترة التي بدأت بقرار الحرب، وهو في الحالة الأولى يريد أن يوحي بالمشاركة، وقد يقبل بالمسئولية المحدودة عما حدث في تلك الفترة، ثم إنه يريد أن يؤكد عدم مشاركته فيما بعد قرار الحرب لإنصاف السادات، وإعطاؤه حقه من ناحية، ومن ناحية أخرى، وربما هي الأهم، لإنصاف نفسه، والهروب بها من موقع المسئولية، إلى موقع «المشاهدة» دون «مشاركة».

***

ويبقي سؤال:

ولماذا صاحب السادات هيكل، وهو يعرف ما يعرف عن هيكل، وعن علاقته بعبد الناصر؟

يقدم هيكل الإجابة نيابة عن السادات فيقول:

- ربما كان يريد عنصر استمرار في السياسة، يعرف عن ظروفها ما كان غائباً عنه، ثم وجد نفسه - فجأة- يحمل مسئوليته.

- ربما كان تعاطفاً من جانبه مع بعض ما كنت أنادي به من ضرورات للتغيير في وقت جمال عبد الناصر، وبينه مطلب تحييد أمريكا، وليس التناطح معها[1]، وبينه دعوة إلى مجتمع مفتوح فيه سيادة القانون على مراكز القوي، وغير ذلك من

(١)لاحظ النقد الخفي لأسلوب عبد الناصر في التعامل مع الولايات المتحدة .

اجتهادات أخرى طرحتها في أيام سابقة، ولعل بينها ما صادف قبولاً لديه.

- ربما... وربما..

وكل هذا مطروح لتفسير مصاحبة السادات لهيكل في الفترة من رحيل عبد الناصر حتى أكتوبر سنة ١٩٧٣، حيث ولدت شرعيته الجديدة.

وغيره كثير..

ولكن هيكل أغفل، وربما تغافل، الدور الذي كان يتصوره السادات لهيكل نفسه، والذي بدأ مع إعلان هيكل انحيازه لترشيح السادات خلفاً لعبد الناصر، والحملة الإعلامية التي واكبت ذلك تحت قيادة وعلى أساس تخطيط من هيكل.

وعندما تكرست شرعية السادات الجديدة، راح يبحث بعدها عن مرجعية جديدة، وكان طبيعياً أن تتباعد الطرق، وإلا نزلت العلاقة بين السياسي والصحافي من مستوي الصداقة لمشروع، أو لمرجعية، إلى مستوي التبعية لرجل أو للسلطة.

كلام موضوعي يشي بأن الشرعية الجديدة التي حصل عليها السادات بعد أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم يكن فيها مكان لهيكل،لا كما يري نفسه، ولا كما ينظر إلى السادات قبل شرعيته الجديدة.

وإن كان فيها مكان لهيكل، فهو هيكل جديد، مطلوب منه «الالتزام» بشرعية جديدة، بدأت ترسخ على الأرض، لم يكن هو أحد مصادرها، مثلما حدث في تثبيت « الشرعية القديمة »، التي سقطت مع بزوغ شمس شرعية «صاحب قرار أكتوبر» كما سماه هيكل نفسه.

كان هيكل قد شارك في صناعة شرعية السادات في أكتوبر سنة ١٩٧٠، وأصبح مهندس تكريسها في مايو سنة ١٩٧١، ثم هو الذي صاغ أساس الشرعية الجديدة في أكتوبر سنة ١٩٧٣ بعدما أطلق على السادات:« صاحب قرار أكتوبر العظيم » .

ومع ذلك، لم يكن أمامه من خيار بعد أربعة أشهر، إلا أن يرضي بهيكل الجديد، هيكل الملتزم، أو أن يحمل عصاه ويرحل بعيداً...

في الظل...

ويبقي سؤال آخر مشروع، وفي حاجة إلى إجابة:

- لماذا صاحب هيكل السادات بعدما كان قد صاحب عبد الناصر، وما بينهما من خلاف واختلاف لا يخفي على أحد، حتى قبل أن يسقط القناع عنه ؟

-٦-

بيقين فإن هيكل الذي صاحب السادات، وتحالف معه، واقترب منه حد الالتصاق لم يكن هو أفضل حالات هيكل المثقف، وقصتهما معاً هي «دراما» حقيقية، بدأت بتحالفهما المعلن بعد رحيل جمال عبد الناصر، وعملهما المشترك معاً طوال ما يزيد على ثلاث سنوات، وتطورت إلى خلافهما المعلن والمدوي في بدايات العام ١٩٧٤، ثم استقرت تحت عنوان «الاقتراب عن بعد»، واستمرت تلك المرحلة ثلاث سنوات أخرى حتى العام ١٩٧٧، وبعدها هبت عواصف السادات تريد أن تقتلع هيكل من الذاكرة العامة، وتحاول النيل من مصداقيته، وظل هيكل خلال تلك الفترة يتوق الزوابع، ولا يخشاها، حتى أقدم السادات على خطأه الدراماتيكي الأخير، فأمر بحبس هيكل مع الألوف التي امتلأت بهم ساحات السجون المصرية في العام ١٩٨١ فيما سمي حملة سبتمبر الشهيرة.

بدأت علاقة التحالف بينهما بخطأ مشترك، خطأ جعل كلا منهما يتصور أنه يستطيع أن يأخذ من الآخر ما يريد، بدون أن يدفع فاتورة ما يريد الطرف الآخر، واحد من موقع المثقف الذي أدمن الوجود في دائرة صنع القرار، والآخر من موقع الأمير الباحث عن مثقف يخدمه، وقد رأى من قبل مهاراته التي لا تبارى في خدمة سيدهما الراحل.

وبعد أن سقطت جماعة مايو في أخطائها المتكررة، وبعد أن تمكن السادات من إزاحتهم من السلطة، بدأ التحالف بينه وبين السادات ينفك ليعاد تركيبة من جديد على أرضية مختلفة، أرضية الرئيس الممسك بيده كل خيوط القرار، لا الرئيس الذي ينازعه مرؤوسوه في كل صغيرة قبل أي كبيرة..

وبدا في لحظات أنهما مجبران على العلاقة التي اكتنفها عدم ثقة متبادل، وفيها عدم

توافق، يدفع إليه خلاف في الطباع، واختلاف في درجات الثقافة، وتضارب في النظرة إلى الأمور.

هيكل المثقف هو بالأساس رجل منظم، وعقلية مرتبة، المقدمات ترتب عنده نتائج معروفة، عكس السادات على طول الخط، الذي كانت ثقافته سطحية، ثقافة فهارس، أو كما كان يحلو له أن يردد ثقافة «جامعة الحياة» كما أنه رجل ذو مزاج انقلابي، ولا ترتب المقدمات بالضرورة نتائجها المعروفة، أو المتوقعة، فقد كان رجل «الصدمات الكهربائية».

وكانت الدولة التي يعرفها هيكل هي ما رآها، وتعلمها، وعبر عنها في ظل جمال عبد الناصر، وربما في ظل الحكم الملكي، وهي في الحالتين، دولة لها رأس، ولها هيكل، وتنظيم، وأسس في التعامل مستقرة.

أما دولة السادات التي يريدها وتناسبه، فهي دولة «المصطبة»، وأما قراراته فهي قرارات «الهواء الطلق»، تحت شجرة السنديان، لا أوراق، ولا محاضر، ولا تسجيلات، عمدة يحكم المدينة، مكتبه هو مصطبته، والمصطبة هي موطن إلهامه، قروي رغم طول بقائه في المدينة، ليس تمسكاً بأخلاق القرية، كما كان يحلو له أن يصور نفسه، ولكنها طريقة تفكير، تفكير العقلية الزراعية.

-٧-

لا شك عندنا أن هيكل مع السادات غيره قبله، وغيره بعده، كان دوره أكثر اتساقاً مع نفسه، واختياراته فيما قبله، وأصبح فيما بعده أنضج وأوسع رؤية وأقدر على تأمل حقيقة ما جرى، وشاءت المقادير أن يكون شاهداً عليه..

وربما أفضل أدوار هيكل على الإطلاق، تلك التي جاءت بعد انقطاع علاقته بالسلطة تماماً، سواء تلك العلاقة التي تنشأ من التواجد في محيط القمة، وفي مجال التأثير فيها، أو الدعاية لها، أم تلك التي تنشأ من معارضتها.

بعدها تفرغ هيكل لدوره الأكبر، والأهم، والأرشد.

ونحن نقول أن قيمة هيكل الحقيقية جاءت مع مواقفه المعارضة لسياسة

النظام، وهو الشيء الذي فعله في حياة السادات، وبعد وفاته، وإن بصورة أعمق، وأشد حدة عما كانت في السابق.

كما أن تجذر انحيازات هيكل جاء مع الوقت، ومع استثمار الفرصة في التأمل، التي أتيحت له بعدما استبعد عن مراكز صناعة القرار، ولهذا نرى أن هيكل الأول، القريب من صناعة القرار بالمشاهدة، أو بالمشاركة، كان هيكل الجورنالجي الساعي للحصول على الخبر، واكتساب ثقة مصادره، في الوقت الذي يحافظ فيه على علاقته بقرائه، ولكن هيكل البعيد عن هذه المراكز، لم يجد أمامه غير تأمل ما يحدث من بعيد، لكي يستطيع أن يستشف ما وراء ما يذاع من أخبار، وقويت لديه قدرات وملكات التفكير فيما يحدث، وتحليله، وسبر أغواره..

ولذلك نجد واحداً مثل أنطوني ناتنج[1] يقول: «عندما كان هيكل قرب السلطة كان الكل يهتم بما يعرف، وعندما ابتعد عنها تحول اهتمام الكل إلى ما يفكر فيه».

ـ٨ـ

كان هيكل يعي ثنائية العلاقة بين المثقف والسلطة، ثنائية الاستخدام والخدمة، تلك الثنائية التي تجيب على سؤال من يستخدم من؟

وكانت إجابة هيكل أن الطبيعي، بل والمفروض أن يخدم المثقف الأمير، وهو الذي قال متحدثاً عن بدايات هنري كيسنجر[2]:

« راح يتحسس خطاه في أروقة القوة والسلطة مدفوعاً بطموح ليست له حدود، وولاء يبحث عن أمير «يستخدمه»، ولا يخدمه كما هو المفروض »..

---

(١) وزير الدولة للشؤون الخارجية في الحكومة البريطانية التي كان يرأسها رئيس الوزراء أنطوني إيدن، وقد استقال ناتنج من الحكومة من جراء العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦.

(٢) مستشار الأمن القومي الأمريكي في حكومة الرئيس ريتشارد نيكسون، وشغل منصب وزير الخارجية لدى كل من نيكسون وفورد، ثم عينه الرئيس رونالد ريغان في عام ١٩٨٣ رئيساً للهيئة الفيدرالية التي تم تشكيلها لتطوير السياسة الأميركية تجاه أميركا الوسطى، وأخيراً قام الرئيس جورج بوش (الإبن) بتعيينه رئيساً للجنة المسؤولة عن التحقيق في أسباب هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

فالمفروض عند هيكل أن يخدم المثقف الأمير، أو هكذا كانت ـ في الحقيقة ـ هي تجربته مع جمال عبد الناصر، ولكن مع السادات كان يصدق عليه القول نفسه، الذي قاله في كيسنجر، وكانت أقدامه قد رسخت في أروقة القوة والسلطة، وظل محتفظاً بطموح ليست له حدود، والفارق أنه أصبح يبحث عن أميرٍ كي يستخدمه، بدلاً من أن يكون في خدمته.





البحث عن هيكل





-١-

هل يمكن أن نقول جديداً عن رجل شغل الدنيا والناس جميعاً؟

هل يمكن أن نقول جديداً عن رجل كتب عنه محبوه وناقدوه أطناناً من ورق؟

هل نأتي بجديد عن رجل مهنته الكتابة، وبقلمه كتب «صورته» كما يريدها أن تبقى في ذاكرة الأيام وفوق سطور التاريخ؟

لست أتوقع أنه ينتظر منا كلمات مديح، وقد نال منها الكثير..

وهو لا يتوقع منا انتقاصاً من قدره، وقد ناله منه الكثير..

هو لم يقل، ولا أحد غيره قال أنه كان محل إجماع، فهو ككل أصحاب الأدوار المميزة، ظل محل خلاف، وانقسم الناس من حوله؛ إما عليه، وإما معه..

الذين معه اختلفت أسبابهم..

والذين عليه تعددت ثاراتهم..

وبالغ بعض الذين معه حتى جعلوا منه رجلاً لا يشبهه..

وبالغ أكثر الذين ضده حتى حولوه إلى رجل لا شبيه له..

رجل بهذه التجربة التي امتدت وعاصرت الأحداث منذ منتصف الأربعينيات حتى الآن، يكاد يكون من المستحيل اختصاره فيما حاول مادحوه وناقدوه أن يختصروه .. ويختصروها..

اختصاره على الوجهين؛ المديح والتجريح، سيبقى اختصاراً مخلاً، وحذفاً من السياق، وتجنياً على الحقيقة.

رجل بهذا الحجم، وبكل هذه الأدوار التي أداها، يتطلب الحديث عنه دقة، ويفرض على الباحثين عن الحقيقة أناة في البحث عن كلمات تليق بالحديث عنه،لا مديحاً له، ولا قدحاً فيه، بل توصيفاً لحقيقته، وتقويماً لمكانته، مادمنا نتحدث عن رجل هذا شأنه.

رجل تجاوز موقعه كصحافي، ليصبح شخصية ذات وزن تاريخي متعدد

الوجوه والأدوار، ولكنه للحق كان حريصاً على صفة الصحافي في كل مراحل تطور أدائه العام.

لعل هيكل الصحافي، كان هو البداية إلى هيكل الآخر، هيكل المتعدد الأدوار، هيكل الظاهرة التي لا تتكرر، إلا بتكرار الظروف والعوامل التي أنتجتها، وهي ظروف وعوامل كما يخبرنا التاريخ لا تتكرر إلا نادراً..

هيكل الصحافي، كان هو نقطة الانطلاق، وكان هو البداية، وللبدايات ـ دائماً ـ طزاجتها التي يبقى طعمها في الفم طويلاً، ويعود إليها الحنين كثيراً..

ـ٢ـ

قد تجد في نفسك أسباباً كثيرة أخلاقية ومبدأية تجعلك تقول إنه من غير المبرر أن يحاول بعض الذين أوتوا شهرة، وعلا نجمهم وأصبح لهم قيمة بين الناس، إعادة صياغة تاريخهم من جديد، بما يتوافق مع هذه الوضعية الجديدة، وللأسف أنهم يفعلون ذلك كأنما مطلوب من الإنسان أن يولد كبيراً، لا أن ينمو، وأن يولد حكيماً، لا أن يكتسب الوعي، وتنمو معرفته، ثم ينال الحكمة، بعد كل ما حصله من علم وما عاشه من تجربة.

لا شك أن كل إنسان أصبح ذا قيمة لم يكن في يوم من الأيام شيئاً مذكوراً، وهذا لا يعيبه..ما يعيبه، هو إعادة صياغة بداياته بطريقة لا تتفق مع الحقيقة، لكي تتواءم مع ما وصل إليه من قيمة.

ولقد كان هيكل صادقاً وأميناً، حين أشار إلى أن كل إنسان ـ في سيرته الذاتية ـ يعيد على نحو أو آخر، اختراع نفسه من جديد، ليس على الصورة التي كانت، وإنما على الصورة الملائمة، «لأن الأمر يحتاج إلى شجاعة لقول الحقيقة مجردة»..

وللحق فإن هيكل لم يكن استثناء من تلك القاعدة.. قاعدة إعادة صياغة بداياته مع ما وصل إليه..

وهو يترك حياته للآخرين «لأن كل مواقفه، وكل أعماله، وكل آرائه، وكل مشاكله، وكل تطورات حياته، ومراحلها، موجودة، ومسجلة على الورق، وهي

مهمة آخرين يستطيعون المتابعة والحكم»[1].

ورغم أن «الأستاذ» رجع كثيراً إلى الوراء ليحكي لنا عن نفسه، وهو يتعرف إلى جمال عبد الناصر، حتى قبل الثورة، وعلى أنور السادات سواء في بيت يوسف رشاد، أو في رفح، إلا أنه يبدو وقد ترك ـ عمداً ـ فترة البدايات عنده من دون أن يضيء فيها، وحولها، ولو شمعة، ما جعل الكثيرون يخبطون ويتخبطون فيها وحولها.

وسوف يجد المحقق المدقق أن رواية هيكل لبداياته تطرح أكثر من تساؤل:

لماذا لم يحسم هيكل بنفسه هذه المنطقة من حياته، وهو يعرف ـ يقيناً ـ أن آخرين سوف يخوضون في تقديم تفسيرات لها من عندياتهم، حيث لا أوراق تثبت، أو تنفي ما يقول هؤلاء، أو هؤلاء..

لماذا تركها «منطقة عمياء»، يتخبط فيها الباحث، دون إشارة ضوء، أو حتى بصيص منه؟

لماذا تركها يخبط فيها من يشاء بما يشاء؟

وأنا أرصد كل ما كتب عن بدايات هيكل إضافة إلى ما ذكره هو حول تلك البدايات سواء فيما كتب أم فيما صرح به في حوارات كنت أتساءل:

هل التحق هيكل فعلاً بجريدة «الإجيبشيان جازيت» كما تقول رواياته كلها؟

ثم كيف انتقل منها إلى العمل بمجلة آخر ساعة؟

هل عمل منذ البداية صحافياً أم بدأ حياته العملية كمراسل إداري، ثم انطلق منها، وقد استهوته أضواء الصحافة، وجذبته شهرة الصحافيين، للسعي إلى العمل بالمهنة التي شاء حظه أن يكون الأول فيها بلا منازع.

هل عمل سكرتيراً إدارياً في جريدة « الجازيت »، كما يقول بعض من تحدثوا عن بداياته..

---

(١)من كتاب «هيكل الآخر» ص١١.

أم في مجلة روزاليوسف؟ كما يقول البعض الآخر..

هل يحتاج هيكل إلى إعادة صياغة بداياته بطريقة تتواءم مع ما وصل إليه؟

ثم متى تعرف على عبد الناصر قبل الثورة؟

وأخيرا كيف تعرف على أنور السادات؟

-٣-

والثابت لدينا أن هيكل المولود في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣ دخل مدرسة التجارة المتوسطة في عام ١٩٣٥ وتخرج منها في العام ١٩٣٩..

أربع سنوات وبعدها خرج الفتى من بيت أبيه يبحث عن فرصة للخلاص من واقع يخشى أن يفرض عليه الاستمرار فيه، والانغماس داخله، وراح يبحث عن طريق تخلصه من قدر يحاول الأب أن يفرضه عليه بإلحاقه معه في تجارته التي كانت ساعة انتهى من دراسته المتوسطة لمدرسة التجارة تعاني الكثير من الإحباطات بفعل أزمة عالمية اجتاحت العالم وكان تأثيرها في بلاد المستعمرات كبيراً.

ولا شيء يدل على أن الفتى الباحث عن عمل، كان يحلم في تلك الأثناء بأن يكون من أصحاب القلم، فضلاً عن أن يكون الرقم الأول في قائمة أصحاب القلم.

ولكن ملابسات كثيرة تشير إلى أنه، وفي رحلة تحسين شروط ملاءمة للبحث عن عمل ووظيفة، راح يبحث عن تعلم لغة أجنبية، حاول الإنجليزية ونجح فيها، ثم حاول مع الفرنسية وحصل بعضاً من أسسها، وحاول الألمانية ولم يوفق فيها، واللغات الثلاث كانت رائجة في تلك الأثناء بأكثر من أي وقت، وهكذا التحق هيكل بإحدى مدارس تعليم اللغات بالمراسلة.

واستقر به المقام في تجربته العملية الأولى في جريدة تصدر باللغة الإنجليزية ولجمهور الأجانب والمتمصرين عن شركة الإعلانات الشرقية التي تمثلها عائلة وكانت جزءاً من إعلام الحرب التي يسيطر عليها الإنجليز.

وحسب روايته قضى فترة التكوين المهني الأولى (١٩٤٢ ـ ١٩٤٤) في جريدة الإجيبشيان جازيت، وكان التحاقه للتدريب بها فرصة أتاحها له ولثلاثة غيره من الشباب الناشئ، واحد من خيرة محرريها، وهو «سكوت واطسن».

يقول هيكل:

«كنا بين الجالسين أمامه في محاضرة عن «عناصر الخبر»، وإذا به يتطرق من موضوع محاضرته إلى ذكرياته، أيام كان مراسلاً في الحرب الأهلية الأسبانية، وكنا نستمع إليه في انبهار وشبه خشوع، فلقد طاف بنا فيما يشبه الملحمة بين تضاريس ومعالم تلك الحرب، التي انقسمت أوروبا بسببها بين الفاشية والديمقراطية، وحين ختم محاضرته كانت دعوته لمن يريد منا أن يتدرب عملياً أن يلقوه في اليوم التالي بمكتبه في «الإجبشيان جازيت».

وفي اليوم التالي وقبل أن يصل هو إلى مكتبه كنا نحن الأربعة قد سبقناه إليه ننتظر».

الثلاثة الآخرون هم: ميخائيل فلتس، وإكرام عبد المجيد، ويوسف صباغ، وكان يوسف هو الوحيد الذي أكمل مشوار المهنة إلى آخره، فزامل هيكل في آخر ساعة، ثم أصبح معه مساعداً لمدير تحرير الأهرام فيما بعد[١].

ورغم أن هذه الرواية لا تقول لنا أين كانت هذه المحاضرة ولا في أي صف دراسي، ولا أي معهد دراسي، إلا أننا نفهم منها أن هيكل وجد طريقه في بداياته الأولى عبر جريدة أجنبية وصحفيين أجانب، وبعيداً عن الصحافة المصرية.

وجد هيكل نفسه ـ حسب روايته - في جو الصحافة العملية لأول مرة بين رجلين، كان لهما تأثير واضح على نشأته الصحافية الأولى: «سكوت واطسون» صاحب الكفاءة المهنية، والمثقف اليساري الذي صاغته تجربة الحرب الأهلية في أسبانيا بكل عناصرها الفكرية والإنسانية العظيمة.

ثم «هارولد ايرل» رئيس تحرير «الجازيت» وكان صحافياً كلاسيكياً قديرا

---

(١) بين الصحافة والسياسة ص ٢٥ وما بعدها.

يعمل في نفس الوقت مراسلاً لجريدة «المانشستر جارديان» في مصر.

دخل هيكل إلى «الإيجيبشيان جازيت» يوم ٨ فبراير سنة ١٩٤٢، وبدأ العمل فيها كمساعد مخبر صحافي في قسم الحوادث، وظل في هذا القسم قرابة سنة، أي أنه أمضى عامه الأول في العمل بقسم الحوادث.

وبعدها دعاه رئيس التحرير، هو وثلاثة من زملائه، ليقول لهم إن هناك حرباً تجري على أرض مصر، ومع ذلك فإن أحداً لم يصفها بعين مصرية، ولم يكتبها بقلم مصري.

وسأل رئيس التحرير:

- هل فيكم أحد مستعد للمخاطرة في تجربة جديدة، وعلى مسئوليته وحدها؟

وكان عمره آنذاك لا يزيد عن ١٨ عاماً إلا بأربعة أشهر.

وبعد شهر وجد نفسه في « العلمين» شاهداً مصرياً على الحرب العظمى الثانية، وقد استهوته تجربة العمل كمراسل حربي.

هكذا كانت البداية كما يرويها هيكل، وتكاد تكون بحروف ما قاله.

وبحسبة بسيطة نكتشف أن ذلك جرى في بداية سنة ١٩٤٣.

وإذا كانت معركة «العلمين» قد بدأت وانتهت قبل نهاية العام ١٩٤٢، فالمؤكد أن هناك خطأ في التورايخ في رواية الأستاذ.

-٤-

المهم أن هيكل أمضى فترة ما في «الايجيبشيان جازيت» وكان طبيعياً بعدها أن يفكر في الانتقال إلى العمل في الصحافة العربية، وكانت المرة الأولى التي يذكر فيها قصة انتقاله للعمل في الصحافة العربية في الذكرى الثلاثين لدخوله إلى بلاط صاحبة الجلالة، وبتاريخ ١١ فبراير سنة ١٩٧٢ كتب محمد حسنين هيكل مقالته الشهيرة بصراحة وتحت عنوان «علامات على طريق طويل» يقول:

-« انتقلت من « الاجيبشيان جازيت » إلى آخر ساعة بخطاب من رئيس تحريرها « هارولد إيرل » إلى الأستاذ محمد التابعي، وكان هارولد إيرل بفرط

حسن ظن لديه، يتصور أن مستقبلي لابد أن يتحدد في الصحافة العربية...

وعندما انتقلت « آخر ساعة » إلى ملكية دار أخبار اليوم، وجدتني أنا الآخر هناك».

تلك كانت رواية هيكل الأولى عن كيفية انتقاله من « الجازيت » إلى « آخر ساعة » وهي رواية تؤكد :

أنه انتقل من «الايجيبشيان جازيت» إلى آخر ساعة ...

أن انتقاله جاء عن طريق خطاب توصية من رئيس تحرير الجازيت إلى التابعي رئيس تحرير وصاحب آخر ساعة ....

أن رئيس تحرير الجازيت من فرط حسن ظن بهيكل أراد له أن ينتقل إلى الصحافة العربية ، وللقارئ العربي ...

أنه انتقل مع انتقال ملكية آخر ساعة إلى أخبار اليوم ...

وبعد ذلك بأكثر من عشر سنوات، وفي كتابه الشهير «بين الصحافة والسياسة» يحكي القصة بطريقة أخرى فيقول:

دخلت مكتب رئيس التحرير لشأن من شئون عملي، وكان عنده زائر قدمني له :

- الأستاذ محمد التابعي صاحب مجلة « آخر ساعة » ورئيس تحريرها..

وبدا لي أن الأستاذ محمد التابعي قد تابع نشاطي، أو أن «هارولد إيرل » قد حدثه عني .

وكان الأستاذ التابعي رقيقاً معي ومجاملاً، وفي اليوم التالي اتصل بي يدعوني إلى لقاء معه، وذهبت.

وسألني الأستاذ التابعي :

- كيف أرى مستقبلي؟

وكان السؤال مفاجئاً، فلقد كنت أتصور أن عملي في «الجازيت» يكفيني.

ولكن الأستاذ التابعي كان له رأي مختلف:

- مهما فعلت في الجازيت، فإن المستقبل محصور وضيق، فهي جريدة تصدر

في مصر بلغة أجنبية»

ثم أضاف الأستاذ التابعي :

- صحافي مصري مجاله في الصحافة المصرية باللغة العربية، وبقرائه فيها، هذا هو المستقبل.

وهكذا انتقلت من « الجازيت » إلى « آخر ساعة »[1].

وهذه الرواية تؤكد بدورها :

- أنه انتقل من الجازيت إلى آخر ساعة ...

- أن انتقاله جاء عبر اقتراح من التابعي...

- أنه كان يتصور أن عمله في الجازيت يكفيه ...

وهذه الرواية تتفق في شيء واحد مع سابقتها هو أنه انتقل من العمل بالجازيت إلى آخر ساعة، وهو موضوع سوف نبحثه ونعود إليه فيما بعد...

وبعد ذلك تختلف الروايتان في كل شيء .

في الراوية الأولى تأكد لنا أن رئيس تحرير «الجازيت» هو الذي أرسله إلى التابعي بخطاب توصية منه لينتقل من العمل إلى الصحافة العربية.

وفي الرواية الثانية علمنا أن التابعي هو الذي عرض عليه الانتقال إلى الصحافة العربية حيث المجال الطبيعي لصحافي مصري وحيث يكون مستقبله.

وفي الرواية الأولى يشير إلى أن فرط حسن ظن هارولد إيريل جعله يتنبه إلى أن مستقبل هيكل لابد أن يتحدد في الصحافة العربية، وفي الرواية الثانية نرى أن التابعي هو الذي نبهه إلى مستقبله في الصحافة العربية حيث قارئه الطبيعي .

والقصة بروايتيها تريد أن تؤكد أولاً، وربما قبل أي شئ آخر، أن هيكل الصغير كان يحظى بتقدير كبير من رئيس تحرير ذائع الصيت هو محمد التابعي الذي يرأس مجلة شهيرة هي « آخر ساعة ».

---

(١)بين الصحافة والسياسة ص ٢٨ ، ص ٢٩.

ولكنها تشير أيضاً إلى أن هيكل الصغير كان « قانعاً» بوجوده في «الجازيت» ، وبلا طموح في العمل بالصحافة العربية، رغم أن أول ما يجب ـ بالضرورة ـ أن يشغل ذهن أي صحافي تشده مهنة الصحافة، هو أن يكتب بلغته، ويتوجه إلى أهله وعشيرته.

ولكن المؤكد أن « طموح » هيكل في ارتقاء سلم المجد الذي اعتلاه فيما بعد، لم يكن قد بزغ نجمه في ذلك الوقت المبكر من مشواره في الحياة العملية.

ـ٥ـ

الوقائع الثابتة على الورق تقول: إن انتقال هيكل إلى الصحافة العربية كان قد تم قبل ذلك بفترة طويلة تصل إلى عام، ولم يكن إلى مجلة «آخر ساعة» بل كان إلى مجلة «روزاليوسف» التي قضى فيها معظم العام١٩٤٤، وأوراق «روزاليوسف» التي تضم مقالات وتعليقات وحوارات منشورة موقعة باسم محمد حسنين هيكل على طول العام ١٩٤٤ تشهد على ذلك.

مثلاً بتاريخ ١٧ فبراير سنة ١٩٤٤ ستجد له مقالاً بتوقيعه، وبعنوان «إنه الفاروق »...

ومثال آخر؛ بتاريخ ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٤ ستجد له ثلاثة تعليقات تحت عنوان «أحاديث تهمك » ..

ومثال ثالث؛ بتاريخ ١١ مايو سنة ١٩٤٤ ستجد له مقالاً بعنوان « في يوم عيدك يا مولاي »...

وستجد ـ كذلك ـ بتاريخ ٥ أكتوبر سنة ١٩٤٤ حواراً مع السفير الصيني بالقاهرة.

وستجد ـ قبل نهاية العام ـ وبتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٤ حواراً مع دولة رئيس الوزراء إسماعيل صدقي باشا ...

وأوراق مجلة «روزاليوسف» تضع أمامنا حقيقة لا مجال لإنكارها هي أن هيكل عمل فيها طوال العام ١٩٤٤على الأقل، وهو ما يخصم سنة كاملة من سنوات العمل الأولى التي قال هيكل أنه قضاها في «الجازيت» أثناء فترة التكوين،

أو تضيفها إلى هذه الفترة من التكوين المهني، ولكن في «روزا» وليس في «الإجيبشيان»..

هذه الحقيقة لا تشكك فقط في رواية فترة « التكوين المهني الأولى » في «الإجيبشيان»، ولكنها تضيف حاشية على قصة الانتقال إلى الصحافة العربية من جريدة «الجازيت» إلى مجلة «آخر ساعة».

والقارئ المدقق لمجلتي «آخر ساعة»، و«روزاليوسف» طوال عامي ١٩٤٤، ١٩٤٥ سيجد:

- أن إحسان عبد القدوس ترك المجلة التي كانت والدته السيدة فاطمة اليوسف تملكها في نفس الفترة التي عمل فيها هيكل بروزاليوسف وذهب إحسان عبد القدوس للعمل مع محمد التابعي معظم شهور العام ١٩٤٤ في «آخر ساعة».

- أن هيكل كتب الأبواب نفسها التي كان يحررها إحسان عبد القدوس الابن البكر لصاحبة المجلة، وهو الذي كان قد سبقه إلى العمل بالصحافة بأكثر من عشر سنوات..

- أن بنط اسم هيكل في ذلك الوقت المبكر، وفي بدايات حياته الصحافية كان ينشر بنفس حجم اسم إحسان عبد القدوس وكبار كتاب «روزاليوسف» .

- أن بنط اسم هيكل تراجع ـ من جديد ـ عندما انتقل إلى العمل في مجلة «آخر ساعة» ، وطوال العام١٩٤٥ وبدايات العام ١٩٤٦ لن تجد اسم هيكل إلا لماماً، وإذا وجدته فبنط الاسم صغير، لا يكاد يرى، شأن المبتدئين في العمل الصحافي، وكانت «آخر ساعة» تزخر بأسماء لامعة على رأسها محمد التابعي نفسه، ومن بينها سعيد عبده، وسلامة موسى، وكامل الشناوي.

وهكذا نعود لنلاحظ أن هيكل أسقط سنة كاملة من بداياته، وعندما أراد أن يتحدث عنها، جاء حديثه على هامش روايته لقصة انتقاله من العمل في «الجازيت» إلى العمل في «آخر ساعة»، وخارج المتن الرئيسي للقصة كتب يقول :

- « كنا في تلك الأيام نذهب مع الأستاذ فيليب حنين رئيس قسم الشئون

المحلية في «الاجيبشيان جازيت» للغداء في مطعم « الباريزيانا » القريب من الجريدة، وكانت السيدة روزاليوسف الفنانة والصحافية الكبيرة تتردد على هذا المطعم، وقدمنا إليها الأستاذ فيليب حنين، ثم لقيناها أكثر من مرة، وكانت هذه السيدة ذات الشخصية القوية كريمة في تشجيعها لصحافيين مبتدأين، ودعتنا إلى مائدتها مرات، ثم دعتنا إلى مجلتها، وهناك كان لقائي الأول مع الصحافة العربية».

هكذا بلا زيادة أو نقصان .

تحدث «الأستاذ» عن السنة الأولى في « الجازيت » طويلاً، وأطنب.

وتحدث عن تأثيرات رئيس تحريرها « هارولد ايرل »، وتحدث عن الخلاف بين مدرستين في الصحافة؛ واحدة في «الجازيت» ، كان يرى رئيس تحريرها أن «الجريمة» و«الحرب» هما مجال التكوين الأصلح والأمثل للصحافي، ومدرسة أخرى في «آخر ساعة »، يرى رئيس تحريرها أن « المسرح » و«البرلمان » هما المجال الأنسب والأوفق.

ولم يذكر هيكل تأثيرات تجربته في « روزاليوسف »، رغم أنه كان فيها اسم لامع، يكتب المقال، ويوقع باسمه، ويجري حوارات مع رؤساء وزارات، ومع سفراء، ويكتب عن نفسه كواحد من كبار الكتاب.

أفاض الأستاذ في الحديث عن تجربته في مدرسة « الجازيت »، رغم أننا لا نكاد نجد له أثراً يذكر بأنه كان هناك، ولا حتى أثر واحد.

وأفاض في الحديث عن تجربته في مدرسة « آخر ساعة »، رغم أننا لا نجد اسمه فيها في تلك الفترة من بداياته إلا لماماً، وبطريقة أقل كثيراً مما كان عليه في روزاليوسف قبلها بعام.

ولكنه لم يتحدث عن تجربته فيها، ولم يذكر كلمة واحدة عن تأثيرات «روزاليوسف» في بداياته كصحافي، ولا كلمة عن مدرسة « روزاليوسف » الصحافية، وهي المدرسة التي لا يمكن إغفال الحديث عنها حين يثور الحديث عن مدارس مهنية مؤثرة في تاريخ الصحافة.

- لماذا؟

كبر أمامي التساؤل:

- لماذا أهمل هيكل عمداً وبإصرار مسبق وضع قصته في روزاليوسف داخل متن روايته عن بداياته في الصحافة، ولو بضعة سطور؟

- لماذا لا يشير إليها بشيء من التفصيل، وقد كانت لقاءه الأول مع الصحافة العربية؟

- هل لم تكن التجربة إيجابية؟

- ألم تترك أي أثر فيه؟

- أم تركت أثراً يجعله، وهو في سن الستين، يؤثر الابتعاد عنه، حتى ولو بالإشارة السريعة؟

- لماذا؟

- لماذا يغفل تجربته الأولى في الصحافة العربية، وقد كانت تجربة عميقة، يقول إحسان عبد القدوس أن هيكل استطاع خلالها أن يسيطر على عقل أمه صاحبة « روزاليوسف »؟

هل ما كتبه على صفحات « روزاليوسف » هو السبب؟

هذا احتمال وارد، وبنسبة كبيرة يمكن أن يفسر تغاضيه عن هذه التجربة وعن تلك الفترة.

ما يجعلنا نؤكد أنه احتمال وارد بنسبة كبيرة، ما يقوله الدكتور مصطفى عبد الغني[1]:

-« هاتفني في أحد الأيام مدير مكتب الأستاذ محمد حسنين هيكل عقب صدور الكتاب مباشرة مشيراً إلى ميعاد يريد فيه أن يلقاني، واتفقنا على ميعاد معين، وذهبت إلى الأستاذ الذي كنت أقابله لأول مرة.

---

(١)في كتابه «المثقفون وعبد الناصر» ص ٤٠٤ .

قبل أن أجلس إلى المقعد أمامه هالني درجة الـذكاء الحـاد في عينيـه، ولم يكـن ليضـيع وقتـاً، فبعـد المجـاملات السـريعة والإشـادة بالكتـاب راح الأسـتاذ يلومني:«كيف تذكر أنني كتبت عدة مقالات في نهاية الأربعينيات (تعـالى معـي إلى القصر) وتذكر ما يردده جلال كشك.

وراح الدكتور عبد الغني يذكر هيكل أن هذا ما كتب، وربما الخطأ الـذي وقـع منه أنه أشار إلى مصدر آخر ذكر ما حدث، وعبثاً كرر محاولة تفهم الموقف ولكن الأستاذ كان غاضباً..

الشيء نفسه ستجده في مقالات هيكل في "روزاليوسـف" قبـل نهايـة النصـف الأول من الأربعينيات، وهو ما جعل «الأستاذ» يعرض عنه، ولا يذكره في حكايتـه لبداية حياته الصحافية.

في السنة التي أسقطها هيكل من عمره المهني، تلك التي كان يكتـب فيهـا عـلى صفحات «روزاليوسف» بتوقيعه، كان يكتـب نفـس النوعيـة مـن الكتابـات التـي كررها في نهاية الأربعينيات، وغضب من إشارة الدكتور مصطفى عبد الغنـي إليهـا في كتابه المذكور.

-٦-

وللأسف فقد ترك هيكل بدايات حياته المهنية يكتنفها الغموض الشديد، ممـا يعطي قيمة لبعض التفسيرات، ما كان يجب أن يكون لهـا أيـة قيمـة، لـو أنـه أزاح اللثام عن الحقيقة.

تفسير آخر لهذا الخلط في الروايات، والتخبط عنـد البـدايات، التفسـير يقدمـه مصطفى أمين ..

يقول فيه:« لم يعمل هيكل مطلقاً « بالجازيت »، وكل علاقته بهـا كانـت حـديثاً طلب منه التابعي أن يجريه مع رئيس تحريرهـا « هارولـد ايـرل » حـول تطـورات الحرب في العلمين وقام بالترجمة بينهما فيليب حنين .

ويذكر مصطفى أمين أن محمد التابعي هو الذي كان يعمل في هذه الجريدة قبل

أن يصدر مجلة «آخر ساعة»، ويتحدى مصطفى أمين أن يكون لهيكل اسم في سجلات جريدة « الإيجيبشيان جازيت » .

كلام مصطفى أمين منشور في كتاب هيكل وعبد الناصر ويؤكده حرفياً الفنان عبد المنعم رخا .

ورغم أن شهادة مصطفى أمين حول هيكل، شهادة مجروحة، ولا يمكن الأخذ بها، أو التعويل عليها، إلا إذا قامت عليها أدلة وقرائن وشواهد أخرى، لكننا لا يمكن أن ننفيها بشكل قاطع، بل لعل التناقض الذي رأيناه في روايات هيكل حول هذه الوقائع يجعلنا نصدقها بأكثر مما يجعلنا في جانب تكذيبها.

وملف الأستاذ هيكل بنقابة الصحافيين يعطينا قرينة تجعلنا في صف التعامل بجدية مع شهادة مصطفى أمين حول عدم اشتغال هيكل بالإيجيبشيان جازيت إطلاقاً .

في ملفه بنقابة الصحافيين طلب مقدم منه بتاريخ ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٧ لقيد اسمه في جداول النقابة، وفيه أن فترة اشتغاله بالصحافة أربع سنوات، منها ثلاث سنوات بدار أخبار اليوم.

الطلب مكتوب بخط يده، وموقع منه، وما يجعله « وثيقة » يعتد بها في شأن ما نبحثه، أن كل معلومة فيها يجب توثيقها طبقاً لما هو مدون في هامش الطلب، حيث إثبات السن ـ مثلاً ـ يكون بتقديم شهادة الميلاد، وإثبات درجة تعليمه بتقديم الشهادات الدراسية الدالة على ذلك، وإثبات الصفة الصحافية (وهو ما يهمنا هنا) ومدة اشتغاله بالصحافة، يكون بشهادة من الجهات الصحافية التي عمل بها، بالإضافة إلى ما نشره مقدم الطلب من مقالات وأعمال صحافية.

وبخط يده كتب هيكل في طلب قيده بنقابة الصحافيين أن مدة اشتغاله بالصحافة هي أربع سنوات، منها ثلاث سنوات بأخبار اليوم، وقدم رفق طلبه شهادة مؤرخة ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧ تشهد فيها أخبار اليوم أن الأستاذ محمد حسنين هيكل يعمل محرراً بالدار منذ ثلاث سنوات، وأن الموضوعات المرفقة

من تحريره، وجاءت الشهادة بتوقيع مصطفى أمين رئيس التحرير.

والمقصود بشهادة «أخبار اليوم» أنه يعمل بها منذ التحاقه بمجلة آخر ساعة التي آلت ملكيتها للدار، حتى وإن جرى نقل الملكية في العام ١٩٤٦.

اعترفت له أخبار اليوم بثلاثة سنوات تبدأ من العام ١٩٤٥ .

وبقى عام من مدة اشتغاله بالصحافة كما كتب بنفسه في طلب قيده بالنقابة وهو العام ١٩٤٤، وكان سهلاً أن يقدم ما كتبه في مجلة «روزاليوسف» لكي يغطي السنوات الأربع كاملة .

ومن الطلب الرسمي بخط هيكل نفسه وبتوقيعه نعرف أن هيكل قد أمضى أربع سنوات في العمل بالصحافة، وقت تقديم الطلب أي أنه بدأ العمل بها مع بدايات العام ١٩٤٤ لا أكثر.

وهي فارق السنين الأربعة مطروحة من نهاية العام ١٩٤٧ التي أقر بعمله خلالها بالصحافة.

لم يكن قد أنهى عامه الخامس والعشرين، والذاكرة ما تزال طازجة، ولا يمكن قبول أنه قد ينسى مدة اشتغاله بالصحافة، ولم يكن قد مضى على عمله بها غير أربع سنوات، كما هو وارد بنص طلبه إلى النقابة، والإنسان في هذه الحالة يحرص على أن يزيد في عدد سنوات خبرته، لا أن ينقص منها.

ولذلك اعتبرنا هذا الطلب هو الأساس في معرفة متى بدأ هيكل يعمل بالصحافة على وجه التحديد أو اليقين، وهذا هو ما نميل إلى الأخذ به لأنه المقياس الوحيد المادي الموجود تحت أيدينا.

-٧-

ثلاث شخصيات وثلاث علاقات أثرت في تكوين هيكل، وفي صياغة بداياته، وظل تأثيرها قائماً في مشوار حياته العملية فيما بعد.

علاقته بأستاذه محمد التابعي ..

وعلاقته بالأخوين مصطفى وعلي أمين ..

ثم علاقته ـ فيما بعد ـ بجمال عبد الناصر ..

وهي العلاقة التي لم تؤثر في تكوين هيكل وفي مشوار حياته فقط ، بل لعلها العلاقة التي صبغت هيكل بصبغتها منذ نشأت إلى آخر يوم في حياته ..

ولا يمكن فصل نجاح هيكل عن العصر الذي برز فيه..

ولا عن الدور الذي أنيط به ..

ولا عن الرجل الذي التصق به ..

نجاح هيكل جاء في عصر كانت مصر فيه هي صاحبة الدور المحوري في منطقتها، ومن ثم في العالم كله.

والتصق هيكل بالرجل الذي كان له الفضل في أن تلعب مصر هذا الدور.

وتفوق هيكل في أداء دوره المطلوب في ظل الدور الذي لعبته مصر في ذلك الوقت.

وهكذا أصبح لنجاح هيكل أصداء واسعة، في العالم، وفي وطنه العربي، وفي بلده مصر، وهو نجاح أكبر من نجاحات يحققها أشخاص أكفاء في ظروف مواتية، كما كانت ظروف هيكل مواتية..

تشكل الوعي العام لهيكل في بداية حياته الصحافية في أجواء كان يمثلها أشخاص مثل التابعي، ومصطفى وعلى أمين، وهما قريبين جداً من دوائر الحكم، ومن كثرة التطلع إليهم، تعلم، وأتقن فنون اللعبة، لعبة الاقتراب من دوائر الحكم والنفوذ، وكانت كثيرة قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ..

كان القصر أحد تلك الدوائر، وكانت إلى جانبه السفارة البريطانية، وكانت الأحزاب، وكان كبار الملاك والرأسماليين ..

استهوته اللعبة حتى الثمالة .. وجذبته حتى الانخراط..

وراح ينسج لنفسه على منوال أستاذه التابعي، وصديقه اللدود مصطفى أمين.

وكان من أهم تأثيرات البداية، أن أسلوب التابعي الذي تميز به قلمه قد طبع

نفسه على قلم هيكل، فراح يقلده، معجباً بحلاوة الأسلوب، وطلاوته، وسلاسته، وظل ذلك مطلبه، حتى أتقن أسلوبه الخاص، وأبدع فيه، وأفرى فريه .

ثم تفرد عن مدرسة خاصة، هو فيها الأستاذ ومنع دخول تلاميذ إليها، وأغلق أبوابها على نفسه.

ولا شك أن دار «أخبار اليوم» قدمت هيكل الصحافي في أحسن ما يمكن أن يقدم الصحافي الموهوب، ووفرت له إمكانيات القيام بتحقيقات موسعة خارج حدود مصر، في فلسطين، وفي كوريا، وسط حروب اجتاحت منطقة الشرق الأوسط، والشرق الأقصى، جعلته ينسج منظومة ضخمة من العلاقات مع من سيصبحون بعد وقت قليل من ألمع ساسة وقادة وصحافي العالم.

هذه الفترة التي عمل بها هيكل صحافياً لامعاً بصحف ومجلات دار «أخبار اليوم» قدمت هيكل إلى ثوار يوليو، حتى وهم يحضرون للقيام بثورتهم ضد الملكية.

ولا شك أن دار «أخبار اليوم» بما أتاحته للصحافي الشاب، كانت بمثابة منصة الانطلاق، التي ارتفع منها صاروخ ونجم الصحافة بلا منازع، ولا حتى من أصحاب الدار أنفسهم.

لم يكن هيكل وفدياً ..

ولكنه وجد نفسه بحكم طبيعة المصادر المتاحة من عمله في "آخر ساعة" تحت قيادة التابعي أقرب إلى الوفد.

كان قريباً من الوفد ليس اختياراً ولا قراراً، بل مجرد تأثير مناخ وجد نفسه فيه، في مجلة وفدية .

ووصل في « آخر ساعة » إلى موقع سكرتير تحرير بدون أي تأثير، ولم يكن له أي دور في سياسة المجلة، ولا في تطويرها، عندما داهمتها صحافة جديدة تبدت في «أخبار اليوم » التي كان صدورها ونجاحها في ذلك الوقت حدث صحافي ضخم.

وعلى العكس من دور «آخر ساعة »، كان أحد أهم أهداف دار «أخبار اليوم» التي أنشئت من أجلها أساساً، هي تلطيخ سمعة الوفد، وكانت هي التي مجدت

مجموعة من الشباب التي كان ينتمي إليها « السادات » وعلى رأسها المغامر المشبوه « حسين توفيق »، وكانوا يهدفون إلى تخليص القصر من أعدائه عن طريق التصفية الجسدية، كما تشهد محاولات السادات المتكررة لاغتيال رمز الوطنية المصرية في ذلك الحين «مصطفى النحاس» ..

ومن الإنصاف لهيكل أن نقول : إن مجرد انتمائه خلال فترة هامة من حياته الصحافية إلى دار «أخبار اليوم» لا يعني بالضرورة أنه كان يتبنى جميع الأسس التي قامت عليها هذه الدار، ومن الإنصاف للتاريخ أن نشير إلى أنه لم يبد أي نوع من التمرد عليها كما يقول د. فؤاد زكريا.

***

٨ـ

كان طموح هيكل يدفعه، وقد تحلى بإصرار كبير على تحقيق هذا الطموح، وكان يعرف أن الإصرار وحده لا يكفي، فحرص على تنمية قدراته الذاتية لكي يساعده ذلك - دائماً - على مواصلة الطريق إلى طموحه.

كان يريد أن يبلغ أعلى درجات السلم الاجتماعي والمهني وعرف أنهما مرتبطين، هذه تؤدي إلى تلك والعكس أيضاً.

أول صعود كان مع تحقيقاته المثيرة حول الأوضاع في فلسطين سنة ١٩٤٨ تحت عنوان « النار فوق الأرض المقدسة »في مجلة «آخر ساعة»، وهي التحقيقات التي لفتت نظر الرأي العام والسياسيين إليه، ودعا فيها إلى تدخل مصري محدود، ومحسوب لنصرة العرب الفلسطينيين، في حين كانت قيادات الدولة تقلل من شأن الحرب في فلسطين.

وبعد ما تقرر أن تشارك الدولة في حرب فلسطين انتشرت على الجدران ملصقات تمثل خنجراً يقطر منه الدم على حارس يحمل نجمة داود، لكن تقارير الصحافي الشاب العائد لتوه من فلسطين كانت تصف اليهود كأعداء شجعان،

ومنظمين، وكان أن طلبه « النقراشي» باشا رئيس الوزراء المصري[1]، وطلب إليه أن يعدل لهجة تقاريره، التي رآها تقوض معنويات الأمة، وقد أظهرت تلك المقالات واقعية، أو لنقل براجماتية سياسية مبكرة لدى هيكل كما يؤكد على ذلك الكاتبان «لابير دومنيك ولارن كولين» في كتابهما المشترك «أيتها القدس».

احتكاكه بالعسكريين في مناخ فرضته الحرب العالمية الثانية على مصر، وكانت العلمين أحد أهم مسارح العمليات التي بدأت بعدها تتأكد نتيجة الحرب النهائية ولمصلحة أي الأطراف ستكون، وفي مناخ فرضته الحرب على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨، وكان المسرح هناك يتخلق فوق أنقاض فلسطين الذبيحة دولة جديدة في المنطقة، ستكون أحد أهم العوامل المؤثرة في القرار السياسي والوطني لأي من بلاد المنطقة العربية، وخاصة تلك التي بينها وبين الدولة المزروعة حدود.

وكانت تجربته في تغطية الحرب على أرض فلسطين تعطيه الأساس اللازم لإمكانية إقامة علاقة مميزة مع عسكريين شبان وعوا درس النكبة في ١٩٤٨ وقرروا أن الرصاصة الأولى يجب أن تكون في القاهرة.. وكانت تجربته هو من ناحية وهؤلاء العسكريين الشبان من ناحية ثانية فيها على هذا الأساس ما هو مشترك .

وكان لقاؤهما عندما حان الموعد لقاء طبيعيا وكان طبيعي أكثر أن تتلاحم خطواتهم في معية الخطوات التي يصنعها رجل المقادير الذي ظلت الأمة تبحث عنه طويلاً.. البطل الذي طال انتظاره كما صوره هو بنفسه أو كما كان ينظر إليه في « فلسفة الثورة » التي اعترف بأنه كتبها لعبد الناصر في ذلك الوقت المبكر من قيام الثورة .

***

---

(١)محمود فهمي النقراشي باشا (١٨٨٨ ـ ١٩٤٨)، ترأس الوزراة المصرية فترتين، اغتاله أحد المنتسبين إلى النظام الخاص لجماعة الإخوان المسلمين، يوم ١٨ ديسمبر ١٩٤٨، بعد قراره بحل الجماعة بأقل من شهرين.

-٩-

-« كنت وسط الحياة السياسية فوق الأرض وتحتها، حتى التقيت بجمال عبد الناصر عصر يوم ١٨ يوليو سنة ١٩٥٢ ولم نفترق»..

ما تعنيه العبارة دون لبس أن هيكل رجل خاض غمار الحياة السياسية قبل ثورة يوليو، سواء تلك التي كانت فوق الأرض، مثل الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات الأهلية، أم تحتها، مثل الأحزاب السرية، وكانت قد انتشرت في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومنها الأحزاب اليسارية الماركسية، أو تلك التنظيمات العسكرية والمدنية المناهضة للوجود البريطاني على أرض مصر.

وهو أمر لم يقم عليه دليل، ولم يثبت بأي صورة من الصور، بل إن ما يتوافر من أدلة يثبت عكسها وينفيها جملة وتفصيلاً.

ومع أن جيله، ومن سبقوه، من الصحافيين اللامعين تلونوا بألوان سياسية، وكانت لهم ارتباطات بأحزاب، أو قوى سياسية، لكنه لم يكن من هؤلاء بيقين، وطبقاً للتقرير الذي رفعه «حكمدار» بوليس مصر بتاريخ ١٦ مارس سنة ١٩٤٨ إلى إدارة المطبوعات بشأن التحري عن محمد حسنين هيكل أفندي المحرر بجريدة «أخبار اليوم»، والراغب في قيد اسمه في جدول نقابة الصحافيين، فإن «الأستاذ » كما كان حسن السير والسلوك، فقد كان ممن «ليس لهم أي لون سياسي» .

لم يكن وفدياً، وقد كان التيار الغالب في الحياة السياسية فوق الأرض، و«الأستاذ» هو الذي يقول أنه وجد نفسه بحكم طبيعة المصادر المتاحة ـ بعد تعيينه في مجلة وفدية هي آخر ساعة ـ أقرب إلى الوفد، « مع إحساس غالب بأن ذلك مجرد تأثير مناخ وليس نتيجة مؤكدة لاختيار وقرار»..

كان بلا اختيار، ولم يكن قد قرَّ له قرار، وهو هنا يتحدث عن فترة العامين ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ قبل أن ينتقل مع أستاذه محمد التابعي إلى العمل بمطبوعات دار «أخبار اليوم» المناهضة للوفد في ذلك الوقت، والتي ربما يكون العمل فيها قد أتاح له ـ بحكم

المصادر المتاحة ـ التعرف على بعض جوانب الصورة السياسية في تلك الأثناء.

نقول بعض جوانب الصورة، لأنه هو نفسه يشير إلى أن التغطية الإخبارية في السياسة المحلية بدت له جهداً عقيماً، وفكر في أن يعود إلى التحقيق الصحافي، فانغمس في تغطية أنباء الكوليرا، والقبض على « خط الصعيد »، ثم انتقل مباشرة إلى التحقيق الصحافي خارج الحدود في الشرق الأوسط وحوله.

والصورة كما يرسمها هيكل، تبعده بالضرورة عن الانغماس في الحياة السياسية فوق الأرض، وتحتها، كما حاول أن يصف نفسه وهو يمهد للحديث عن معرفته بجمال عبد الناصر..

ولم يعرف عن هيكل ارتباط بالتنظيمات الماركسية.

ولم يدع ـ يوماً ـ أنه كان على صلة بالإخوان المسلمين، فأين كان هيكل ـ والحالة هذه ـ وسط الحياة السياسية فوق الأرض وتحتها..

الشيء الوحيد الذي يمكننا التسليم به للأستاذ، في تلك المرحلة الباكرة من حياته، أنه كتلميذ مخلص في مدرسة التابعي الصحافية، تعلم مبكراً أن يتوجه مباشرة إلى التأثير في القمة، وهو شيء يبعده عن أن يكون وسط الحياة السياسية فوق الأرض وتحتها..

ما يجعلنا أكثر اطمئناناً إلى ذلك، أن ما توفر تحت أيدينا، من كتابات بتوقيع «الأستاذ » في تلك الفترة، كانت في معظمها إشادة بمآثر الملك فاروق، وكان ذلك مبكراً جداً في العام (١٩٤٤)، كما كتب سلسلة من المقالات في السنوات التي سبقت الثورة (أواخر الأربعينيات) من داخل القصر تحت عنوان « تعالى معي » ..

-١٠-

فيما كان هيكل يتلمس خطواته الأولى في الصحافة، كان إحسان عبد القدوس يشن حملة نقد قوية ضد الحكومة، وسيق إلى السجن بسبب ذلك، وصودرت مجلة «روزا اليوسف» التي كانت تملكها وتديرها والدته الفنانة الشهيرة فاطمة اليوسف.

وفي الوقت الذي كان يودع فيه هيكل تجربته الأولى في الصحافة العربية في مجلة «روزا اليوسف»، للانتقال إلى «آخر ساعة» في نوفمبر سنة ١٩٤٤، كان مصطفى أمين يترك رئاسة تحرير مجلة «الاثنين» التي كانت تصدر عن دار« الهلال »، وفي عهده بلغت أوج انتشارها، ليؤسس مع شقيقه على أمين دار «الأخبار».

وكانت المرة الأولى التي يجد هيكل نفسه في قلب ما يسميها لعبة سياسية كبيرة، خاصة وأن عمره لم يكن يتجاوز وقتها ٢٨ سنة إلا بقليل (أربعة شهور) عندما كلف نجيب الهلالي بتشكيل الوزارة في مارس سنة ١٩٥٢، أي قبل قيام ثورة يوليو بثلاثة أشهر، وسأله الهلالي عمن يراهم مناسبين لشغل بعض الوزارات .

كانت تلك بدايات باكرة للعب إلى جانب الكبار في ملاعبهم الكبيرة.. ولكنها لن تكون الأخيرة بالنسبة لرجل سوف يكون أحد أهم صفاته اتقان فن اللعب مع الكبار.

وقبل أن نختم بحثنا هذا عن بدايات الأستاذ، نقرر أنه خرج من فترة التكوين بعادة تدوين يومياته.. و«روح الكتابة » التي هي الإجابة عن السؤال الصعب : كيف تمسك باللحظة؟، وكان هو أستاذ مبرز في ذلك..

وهو ما فرق بينه وبين جيله كما قال، وكما هي الحقيقة..



الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة
بين الكاتب والسلطان

أزمة المثقفين



-١-

في عام ١٨٩٤ صدر الحكم على الضابط الفرنسي الفريد دريفوس بالنفي إلى (جويانا).. بتهمة التجسس لصالح ألمانيا.. لكن أفراد عائلته وأصدقاؤه استطاعوا أن يثبتوا زيف الوثائق التي أدانته فاتجهوا إلى الرأي العام يستنهضونه ليطالب بإعادة المحاكمة..

وكانت البداية أنهم أقنعوا شخصيات مرموقة في عالم الفكر والأدب بعدالة الطلب بإعادة محاكمة الضابط البريء، فقررت هذه الشخصيات أن تصدر بيانا بعنوان (بيان المثقفين) حمل توقيعهم ونشرته جريدة (لوروا) الفرنسية..

وكان نشر «بيان المثقفين» سبباً في أن تستحوذ القضية على اهتمامات الجميع، وانقسم الرأي العام وكان لهذه الحركات الاحتجاجية دفاعاً عن حق الضابط المتهم في محاكمة عادلة الأثر البالغ في الحياة الفكرية في فرنسا.

وأشهرت تلك الواقعة مصطلح «المثقفين» وجعلته يشق طريقه ليركز في ذاكرة الوعي المعاصر.

وأصبحت كلمة مثقف تدل على أولئك المشتغلين بفكرهم وأيديهم في فروع المعرفة والذين يحملون آراء خاصة بهم حول الإنسان والمجتمع ويقفون موقف الاحتجاج والتنديد إزاء ما يتعرض له الأفراد والجماعات من ظلم وتعسف.

واختلف في تحديد مفهوم وتعريف المثقف، وما يزال المصطلح يثير العديد من الخلافات حوله إلى الآن.. ولكن تاريخ استعمال وانتشار هذه اللفظة في الخطاب العربي المعاصر لا يتجاوز عدة عقود فلفظة (مثقف) لم ترد في النصوص العربية القديمة إلا قليلاً جداً، إلا أنها شاعت في الأدبيات العربية المعاصرة، وكانت العرب تشعل النار في أطراف الرمح، ليزداد حدة، ويسمون ذلك تثقيفاً، ومنها خرجت الثقافة، باعتبارها حدة المعرفة من أجل التغيير..

-٢-

نتوقف أمام هذه العلاقة المعقدة بين المثقف والسلطة؟

ويمكننا إجمال رؤية هيكل وبحروف كلامه في:

المثقف دائماً في حاجة إلى رعاية، ولم يكن هناك المثقف الذي يستطيع الاستغناء عن الحكومة، لا يستطيع أن يفعل هذا أبداً، ثم كيف يتسق أن شخصاً ما، يعمل موظفاً في الحكومة، والحكومة يمكنها أن ترفده، وهذا حدث، صدقي باشا رفد طه حسين من الجامعة، ألم يحدث؟، ثم كيف يستطيع هذا المثقف أن يعارض الحكومة التي هو موظف فيها..

وأهمية أي مثقف في رأي هيكل تكمن في ثلاثة أشياء هي:

١ - أن يقول كلمة واضحة ومحددة..

٢- أن يقول كلمته من غير أن يستخدمها أي طرف آخر..

٣- أن يقول كلمته في وقتها وليس بعده..

والثقافة عند هيكل التزام، والالتزام لابد أن يكون التزاماً بالتنوير، وعلى أوسع نطاق ممكن، وهذا التنوير يقتضي أن يكون هناك موقف، حتى لو كان هذا الموقف من الإنسانية ومن الحرية، وليس بالضرورة أن يكون هذا الموقف مع أو ضد شخص معين، لكنه موقف مع، أو ضد قضية من القضايا. وهكذا فالمثقف موقف، والموقف لا يمكن أن يعلن عن نفسه بالتمتمة الداخلية، لأن التمتمة القادمة من الداخل لا تحرك أحداً، والمثقف الحقيقي يحرك الناس..

والمثقف ليس صاحب فكرة فقط، ولكنه صاحب فكرة لا بد وأن تصل إلى الناس، كل فكرة لا تصل إلى الناس تصبح عاجزة، هناك المثقف الذي يوصل فكرته إلى الناس بطريقة طبيعية، وتفوت هذه الفكرة في مسرحياته، وفي مقالاته، وفي كتبه، وفي رواياته، لكن المهم أن تكون الرسالة واضحة، أما الكتابة بالرمز، أو الغمز، تجعل دور المثقف لا يخرج عن التنبيط على الحاكم من بعيد، وهي في هذه الحالة استهتار حتى بمفهوم الثقافة، لا يفعله في العالم سوى مثقفينا، وهذا باعتقادي من بقايا الطغيان المملوكي والتركي.

هذه هي رؤية الأستاذ للمثقف ونظرته إلى دوره..

فماذا عن التطبيق؟

-٣-

ظلت العلاقة بين الكاتب والسلطان يكتنفها الكثير من التعقيدات وما تزال تمثل إشكالية حقيقية في الفكر العربي منذ أزمان طويلة.

ونحن لا ندعي أننا بصدد تأصيل تلك العلاقة أو التنظير لها، فتلك مهمة قد يجئ أوانها.

نحن هنا نتناول أحد تجليات هذه العلاقة، أو لنقل واحدة من أهم تلك التجليات: دراما العلاقة بين محمد حسنين هيكل ومحمد أنور السادات.

ولا شك ـ عندي ـ أن قراءة أوراق هذه العلاقة، تشكل أحد أهم المصادر لمعرفة، وفهم وتقييم، حقبة خطيرة من التاريخ السياسي المصري، ولعلها أخطرها على الإطلاق.

ولعل هذه القراءة في أوراق العلاقة بين هيكل والسادات ـ إضافة إلى ذلك ـ تفتح المجال لدراسة تتناول موقع المثقف العربي من السلطة في العصر الحديث.

هذا الموقع بين السلطان من ناحية وبين الجماهير من ناحية أخرى، هو واحد من أهم وجوه إشكالية هذه العلاقة..

ويبقي الوجه الأشد تعقيداً هو علاقة المثقف بالسلطة، خاصة في دول العالم المتخلف، والسلطة في أقطار العالم العربي كما يري هيكل ما تزال سلطة قبلية، وهي الحالة التي تسمح بتركيزها في يد واحدة تملك بمفردها سلطة القرار.

وهو مفهوم سوف يحكم طبيعة العلاقة بين هيكل والسلطة طوال مشواره الممتد من أواسط الأربعينيات إلى منتصف السبعينيات.

ومن هنا يأتي تعقيد العلاقة بين المثقف والسلطة..

وإذا أخذنا بالقول بأن «المثقفين» لا يشكلون حركة أو قوة واحدة متماسكة، فإن «دراسة حالة» قد تقدم لنا ولدارسي إشكالية تلك العلاقة مفاتيح جديدة تصلح لتفسيرها أو لفهمها أو للاثنين معاً.

وإذا أخذنا مقولة الفيلسوف الفرنسي الشهير جان بول سارتر: «إن المثقف هو إنسان يتدخل ويدس أنفه في ما لا يعنيه»، فإن هيكل مثقف بامتياز، وإذا حصرنا نماذج المثقفين الذين اقتربت بهم الظروف أو سعوا هم إلى الارتباط بالسلطة فسنجد أن تجربة هيكل كانت فريدة في مجالها..

ـ٤ـ

اخترنا إذن تحليل علاقة كانت مفصلاً بين تاريخين..

والعلاقة شخصان، طرفان، ومحيط يتفاعلان فيه..

هيكل والسادات ـ في نظرنا ـ كانا معا أهم طرفين خاصة من اللحظة التي نشأت فيها روح التكاتف والتحالف بينهما على سطح الحياة السياسية أعقاب الرحيل المفاجئ للرئيس جمال عبد الناصر.

الآخرون على ساحة السلطة كانوا شخصيات بارزة، ولعل أغلبهم جاء عليه وقت كان فيه الأبرز إذا قورن بالسادات، أو الأكثر تأثيراً في العمل العام، إذا قورن بهيكل.

ولكن لحظة الرحيل أعادت فرز المواقع والمواقف ودرجات التأثير في الأحداث..

ظهر خلالها اسم أنور السادات، وبرز دور محمد حسنين هيكل بتفاعلات اللحظة ذاتها، فكانا أهم المتواجدين على رقعة السلطة والقمة عقب الرحيل المفاجئ لمؤسس النظام.

اسم السادات وموقعه الذي تركه فيه عبد الناصر حجبا طامعين كثيرين يرون في أنفسهم أحقية طبيعية لوراثة الراحل الكبير.

حجب اسم السادات وموقعه من يرون أنهم الأحق في خلافة عبد الناصر بحكم دورهم التاريخي في ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وقد كان كل معاوني الرئيس يعرفون تقديره لأصحاب تلك الأدوار التاريخية، وكان أكثرهم قد خرجوا من مواقع السلطة، وإن لم يخرجوا من عباءة النظام.

وحجب اسم السادات وموقعه كنائب لرئيس الجمهورية من يرون أنهم الأحق بحكم ما في أيديهم من سلطات وسلطان، وكانوا يمسكون الكثير منها والخطير.

وكان دور هيكل مفصلياً في تلك اللحظة فقد باشر بوضع الأسس النظرية لتسليم السلطة إلى السادات؛ احترام الدستور، موقع النائب، الرجل الذي اختاره عبد الناصر، ثم قاد الحملة الإعلامية لتمهيد الأرض ليصبح السادات خليفة عبد الناصر..

وكان هيكل هو الذي طرح اسم السادات، وأكد على مركزية موقعه في اختيار الطريق لانتقال سلس ودستوري للسلطة.

وبادر القابضون على زمام السلطة في ذلك الوقت إلى الاستجابة لطرح اسم السادات ليحجب أسماء الآخرين الطامحين من داخل السلطة، والطامعين من خارجها.

-٥-

لا أحد يزعم أن محمد حسنين هيكل اهتم في يوم من الأيام بحركة التاريخ الجماعي، تاريخ المجتمع، لا الجماهيري ولا حتى النخبوي والفئوي، ولم يزعم هو أنه ممن يراقبون الصلة بين ما هو اقتصادي واجتماعي، وبين ما هو سياسي، بل كان ـ طول الوقت ـ يكرس جهده كله على بطل.

وأهم ما يشغل هيكل في البحث عن «البطل» كقوة محركة للتاريخ، هي علاقاته أو روابطه، يقول:«لابد أن نقرأ الوقائع، ونري من هم الأبطال، وما هي نوعية العلاقات والصلات.. ».

وكان طول الوقت يعرف أن البحث عن الشخصيات، لن يكون بعيداً عن الاتجاهات، لأنها ـ أي الشخصيات ـ نماذج معبرة عن ذاتها، وعن اتجاهات تمثلها، ولكن ظل همه الأول هو البحث عن البطل، ومن ثم البحث عن توجهاته..

وظلت الجماهير ـ عنده ـ كتلة مصمتة، أمية لا يتعاطف معها، ولا يحبذ أي درجة لتنظيمها، وهو صاحب باع طويل في تكريس نظرية أن الزعيم يستغني عن

التنظيم، بواسطة الإعلام يخاطب الجماهير، ولا يحتاج إلى وسيط آخر، وخاصة إذا كان هذا الوسيط هو التنظيم السياسي، الذي ينضم إليه الانتهازيون والمتسلقون في رأيه، وهو الذي حاول تكريس مفهوم أن علاقة الزعيم يجب أن تكون مباشرة بالناس، والإعلام وحده هو الأداة.

ونظرته هذه تعلي ـ أولاً ـ من شأن الإعلام خاصة الصحافة والتليفزيون..

وتخفض ـ ثانياً ـ من شأن التنظيم السياسي..

وهي ـ أخيراً ـ تعطي « دوره » مساحة من التأثير أوسع وأعمق..

ومواقف «هيكل» من التنظيم السياسي في ظل الثورة معروفة، فهو لم يحبذ الاتحاد القومي، ورآه مليئاً بالثقوب، وهو كره الاتحاد الاشتراكي، ورأي قياداته غير مؤهلة، ثم ورغم عضويته في التنظيم الطليعي في بداية تشكيله، إلا أنه ظل يمنع تشكيل طليعي داخل الأهرام، ووصل إلى حد التهديد لمن يخالف أوامره الصريحة بهذا الخصوص.

بل كان يشن حرباً على التنظيم الطليعي، وكان ينظر إلى أعضائه باعتبارهم جواسيس أجهزة الأمن، و عيون مراكز القوى التي تناطحه مكانته لدى عبدالناصر.

ثم إنه ظل طول الوقت يدعم فكرة «مؤسسة الرئاسة» سواء في حكم جمال عبد الناصر، أو أنور السادات أو حتى حسني مبارك، وكان يرى أن رئاسة الجمهورية في بلد مثل مصر، هي مركز الأعصاب الحساسة في الدولة، باعتبار أن «الرئيس» الموقع قبل الشخص يملك ـ خصوصاً في عالمنا الثالث ـ من السلطات ما يجعله يقفز فوق التنظيم السياسي، ويتخطى جميع المؤسسات السياسية والدستورية، وهو أمر وإن لم يحبذه، فهو لا ينكره، بل ربما يلعب عليه، ويترك المجال لأن ينمو دوره ويكبر، وأحياناً يتضخم.

***

-٦-

حاول هيكل أن يحدد موقعه بين السلطة والجماهير في أكثر من موضع ولأكثر من مناسبة.

وكان حريصاً على التفريق بين مدرستين، واحدة تري أن مسئولية الكاتب أمام المسئولين، وأخري تعتبر أن مسئولية الكاتب لا تكون إلا التزاماً أمام قرائه، ويحدد هيكل أنه مع المدرسة التي لا ترى قيمة لعلاقة الكاتب بالسلطة إذا لم تكن في النهاية لفائدة قرائه.

ويستدرك ـ والمناسبة هنا حديث أمام المدعي الاشتراكي أحاله للتحقيق أمامه أنور السادات في لحظة من لحظات الغضب منه وعليه ـ فيقول:

« إنني كصحافي يستشعر دوره المهني والوطني، وضعت ما لدي أمام الجميع؛ الرأي العام.. والقيادة أيضاً ».

وإن كان أورد «القيادة» صاحبة السلطة والقرار في موضع تالٍ بعد الرأي العام، إلا أن رأيه في«الجماهير» لم يكن حسناً بالدرجة التي تبدو في إجابته حول الالتزام أمام قارئه.

والجماهير في رأي هيكل فضلاً عن كونها كتلة مصمتة غير واعية، ويستحسن أن تبقي غير منظمة، بالإضافة إلى ذلك، فهي « مجرد جسد للأمة » و « الحكومة هي إرادة هذا الجسد »، كما قال مرة في أحد مقالاته.

وعلى أساس من هذه الرؤية صاحب هيكل الحاكم، وأهمل كثيراً قوة الجماهير، وكان يتعامل معها بإعجاب لحظة تخرج عن بكرة أبيها لتحية الحاكم.

وهو يشهد على نفسه إذ يحكي أن أكثر ما كان يسعد عبد الناصر ويفرحه ويجعله في حالة من الحبور الإنساني أن يشعر أنه قد لامس الناس ولمسوه بشدة قد تترك آثار «خربشة» في يده.

كان عبد الناصر – حسب كلام هيكل – يحب لقاءه الحي والمباشر مع الناس، وأن يشعر بملامسة الناس جسدًا لجسد، وأن يؤكد لنفسه وللمحيطين به أن

الشعب ليس معنى مجرداً، ولكنهم أنفاس ودم ولحم.

ويعترف هيكل أن عبد الناصر كان يتهمه دائماً بالبعاد عن الشعب، وكان دائماً يطلب منه ويقول له: «انزل، وتعامل مع الناس مباشرة، وجها لوجه».

ولكن هيكل كان يهرب من المواجهة المباشرة مع الناس، ويحكي أنه:

«ذات مرة كان عبد الناصر ذاهباً إلى المنصورة، فقال لي: تعالى معنا إلى المنصورة، وأنا في هذه الظروف كنت حريصاً على الهروب من الاستقبالات والزيارات، وكل هذه الأمور، وكان ذلك في سنة ١٩٦٥، وكانت هناك هيصة كبيرة جدًا[1]، ذهبنا، وكنا نتكلم في القطار حتى وصلنا إلى المنصورة، لكن الناس هجمت، وهو أصبح في مكان، وأنا في مكان آخر.

وعندما خرجت إلى المحطة كانت السيارات توشك أن تتحرك. وجدت السيارة التي في انتظاري وفيها مرافق من المنصورة. ركبت السيارة. وقلت للسائق: اطلع على القاهرة لف السائق وطار على القاهرة، وهناك في المنصورة، وعلى الغذاء، وكانت الساعة قد وصلت إلى الرابعة بعد الظهر، سأل جمال عبد الناصر: فين هيكل؟، قالوا له سافر إلى القاهرة، اتصل بي بعد عودته، وكان غاضبا جدًا.»

ولكن هيكل كان قد أفلت من واجب ثقيل الأداء بالنسبة له.

والجماهير غير القراء عند هيكل، وهو يفرق بينهما، فيتحدث عن القراء بطريقة أفضل، ويضع نفسه دائماً في خدمتهم، ويراهم الأصل في عمل الصحافي الذي يحترم مهنته وقلمه.

القراء ـ عنده ـ هم جزء من الجماهير، جزء تغلب على الأمية المفروضة على الجماهير، جزء واعي ومتعلم، وقراء الكاتب هم في أغلبيتهم ممن دخلوا إلى دائرة المعجبين بكتاباته، من هنا فلهم حقوق يحترمها، ويتحدث عنها كثيراً.

والمتعلمون هؤلاء، ثم المعجبين خاصة منهم بآرائه، هم ـ لا شك ـ من الطبقة

---

(١) لاحظ نظرته إلى الجماهير: هيصة كبيرة.

الوسطي التي كان كثير الدعوة إلى الاحتفاء بها، والحفاظ عليها، والدعوة إلى احترام حقوقها تجاه الآخرين، من العمال والفلاحين، أولئك الذين لم يعبأ بهم قدر اهتمامه بمصير ودور الطبقة الوسطي، التي ظل معبراً عنها طوال الوقت، في عصر عبد الناصر، كما في عصر السادات، وحتى الآن.

ولست أشك في أن رأيه السلبي في الجماهير انعكس ـ بالضرورة ـ سلباً على علاقته بالسلطة، فجعل موقعه أقرب إلى عقل وقلب صاحب السلطة، أبعد من أنفاس الجماهير ..

ـ٧ـ

كان قرار هيكل منذ البدايات الأولى أن يقترب من السلطة، بل أن يلتصق بها، وكانت تلك خبرته التي تعلمها من أساتذته الأوائل في المهنة، وكانت تلك رغبته التي سعي إليها سعياً، وكان يعرف طريقه مبكراً، وقد تعرف عليه الكاتب الروائي فتحي غانم في أواسط الأربعينيات، وكان غانم قد عين في إدارة التحقيقات بوزارة المعارف، ومعه عبد الرحمن الشرقاوي، وأحمد بهاء الدين، وكان هيكل وقتها محرراً شاباً في مجلة «آخر ساعة» يذهب إليهم للحصول على أخبار تحقيقات الإدارة لينشرها، وكان هيكل يردد دائماً ومبكراً جداً، وربما في الأيام الأولى من الثورة، أن«الحاكم يحتاج لصحافي يعبر عنه»، وكان يقول بقناعة مطلقة:«وسأكون أنا هذا الصحافي»، ونقلها عنه فتحي غانم[1].

ونلاحظ أن الحاكم وقتها لم يكن قد تحدد بعد..

ونلاحظ أنه كان يقول الحاكم مطلقاً، أيا كانت مرجعيته، وأياً كانت أهدافه، وأياً كان دوره.. مطلق حاكم..

وكان فتحي غانم يري وقتها أن الأدب أبقي وأفضل من السياسة، ويضحك هيكل ويقول له:

- «خلاص لك الصفحة الأخيرة، ولي الصفحة الأولي ..

---

(١)كاتب صحافي وأديب وروائي مصري معروف.

هكذا مبكراً جداً، كان هيكل يعي ما يريد، وقد بدأ مشوار الاقتراب من دوائر السلطة قبل ثورة يوليو، وحقق بعض النجاح، الذي يبقي أمله قائماً ويغريه إلى الاستمرار على الطريق، وبفضل الاتصالات التي كان يجريها في نطاق مهنته مع الأحزاب والبرلمان والسياسيين والصحافيين ورجال السفارات، بدأت فرصته التي يترقبها، ويتحينها، للاقتراب من دوائر السلطة تتزايد كل يوم.

كان قراره أن يقترب من السلطة، وسعى إلى تحقيقه..

وكانت رغبته أن يكون معبراً عن الحاكم، وراح يتلمس طريقه، ويمضي قدماً إليه..

-٨-

كان قد صعد على سن قلمه لكي يقترب من قمة السلطة حد «الالتحاق» في عهد عبد الناصر، ثم كاد يكوي بنار القرب الشديد في ظل صراع محتدم ومكتوم على السلطة مرتين كانت الأولى قبل هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧، واستمرت إلى انتحار المشير عبد الحكيم عامر، وكانت الثانية طوال الفترة من رحيل عبد الناصر نهاية سبتمبر سنة ١٩٧٠، إلى انقلاب السادات منتصف مايو سنة ١٩٧١.

كان انحيازه في المرة الأولى إلى جوار عبد الناصر في مواجهة تنامي غير مأمون العواقب في حجم الدور الذي تلعبه القوات المسلحة وفوقها عبد الحكيم عامر في الحياة المدنية..

ثم كان انحيازه في المرة الثانية إلى أنور السادات في مواجهة من أسماهم مراكز القوى، التي كانت تقلص هيمنة الرئيس على القرار السياسي، وتهدد بضرب تأثير هيكل نفسه على صانع القرار..

وبدأت دراما العلاقة مع السلطة الجديدة، سلطة أنور السادات بالاقتراب حد «الالتصاق»، تحت عنوان «توحد المقاصد»، الذي جمع بينهما في تلك الآونة، وانتهى به الحال مبعداً عن الأهرام «مكانه الأثير»، بعد أقل من ثلاثة سنوات، ثم مستبعداً عن أي تأثير في صناعة القرار«هوايته المفضلة»، وعن أسرار تلك

الصناعة « كهنوته الخاص»، ثمَّ مرمياً في السجن مع غيره من قيادات ورموز كل الاتجاهات المعارضة لسلطة أنور السادات في نهاية المطاف..

لم تكن علاقته مع جمال عبد الناصر هي نفسها علاقته مع أنور السادات، كان الأمر قد اختلف كثيراً ، ليس مجرد خلاف أو اختلاف بين رئاستين، أو اختلاف بين عصرين، بل كان أكثر من ذلك خلاف واختلاف بين دورين لهيكل نفسه..

وكما أن المصادفات تستطيع أن تدفع رجلاً إلى مكان قريب جداً من السلطة، ولكنها وحدها لا تكفي لأن تدفعه إلى مكانة مميزة في التاريخ، ومثل هذه المصادفات لا يمكنها أن تعيد إنتاج أو تصنيع نوعية العلاقة نفسها، بين هيكل وكل من عبد الناصر والسادات.

-٩-

اختط محمد حسنين هيكل لنفسه طريقه وسط غابات العلاقة الشائكة قرب قمة السلطة.

استغل في ذلك قربه إلى جوار عبد الناصر لكي يغلق دائرة الاتصال بينه وبين كثير من رموز النظام أفراداً ومؤسسات.

أذكر الأستاذ هيكل وهو يقول لي - في مكتبه وقد دعاني لعرض عمل لي في مجلة « وجهات نظر» التي كان يحوطها برعايته، وهي بالأساس فكرته- موضحاً موقفه من الجماعة - كما يسميهم - في ظل عبد الناصر:

- « كنت أسدلت « ستارة » سوداء بيني وبين هؤلاء المتنفذين في السلطة تحت قيادة عبد الناصر، كنت حريصاً كل الحرص على ألا ينقل عني إليه شئ، وألا أنقل منه إليهم أي شئ »..

ستارة سوداء حافظت على صفاء العلاقة بينه وبين عبد الناصر من تدخلات «الوشاة»، وحفظته من حقد الحاقدين على عمق العلاقة التي ظلت تتطور باستمرار حتى آخر أيام عبد الناصر..

ستارة سوداء أتاحت له أن يظل قريباً من أذن وقلب وفكر الرئيس، منفرداً،

متعالياً على طاقم الرئيس..

ستارة سوداء فصلته عن أن يكون واحداً من أفراد طاقم الرئيس، يصارعونه على موقع أو ينافسونه على سلطات..

ستارة سوداء جعلت رجال الرئيس يسبغون عليه صفة التعجرف أو التكبر، وكان هو واعياً بذلك، وقال: إنه اختار أن يوصف بالعجرفة بدلاً من أن يدخل في حلبة الصراع بالقرب من رأس النظام.

كان قد اقترب من الرأس والتصق بها، وأسدل « الستارة السوداء » على العلاقة، لا يقتحمها متطفل، أو يطلع عليها متطلع إلى الموقع الذي بناه وئيداً طوال سنوات بدأت مع الثورة في سنة ١٩٥٢، وظل يكبر طول الوقت حجماً ومساحة حتى ساعة الرحيل.

ولم يكن « العمار » يسود علاقة هيكل بأكثر هؤلاء، خاصة من يطلق هو عليهم رجال «التأمين» حيث يضع نفسه مع عبد الناصر في خانة« الحلم» الذي جسدته أفكار عبد الناصر.

كان قد أقام ستاراً بينه وبينهم، مكتفياً بقرب علاقته من « الريس »، وكانوا يحسدونه على هذا القرب، الذي قد يؤثر على درجة نفوذهم لدي الرجل الأول.

قالوا إنه يتعالى عليهم..

وقال هو: حسناً فليكن ظنهم صحيحاً.. لست أهتم لا بهم، ولا بما يظنون.

حاولوا أن يرسلوا إليه رسائل حتى لا يتجاوز الخطوط الحمر ضدهم.. وكانت إحدى هذه الرسائل رصاصتان أصابتا سيارته وهو يهم بالركوب فيها..

وفهم الرسالة..

ومن موقعة بالقرب من الرئيس، ومن نطاق الحماية المكفولة له من «الرجل الكبير» هاجم هيكل الأجهزة التي كانوا عليها يشرفون، وهاجم تنظيمات الاتحاد الاشتراكي الذي كانوا عليه يسيطرون..

وكانت آراؤه محل نقد وانتقاد وتخوين من بعض تلك الأجهزة، وبعض

المستويات القيادية في هذه التنظيمات..

وكانت علاقته بجمال عبد الناصر محل نقاش عام في اللجنة المركزية حتي ضاق عبد الناصر بالحوار حولها إلى الدرجة التي قال فيها لهم :

- إذا كنتم تريدون أن أقطع علاقتي بهيكل.. فأنا مستعد..

وللحق فإن ذكاء هيكل كان دائماً معه، وجعله يحرص كل الحرص على أن يلجم نفسه عن المشاركة واكتفي بدور «المشاهد النشط » وابتعد عمداً عن الدخول الرسمي إلى «الطبقة الحاكمة»، ورفع شعار «أنا جورنالجي»، لا ليثبت أنه صحافي وفقط، ولكن ليؤكد لزملائه قبل شانئيه من أعضاء الطبقة الحاكمة أنه ليس منافساً لهم على شئ..

حاول دائماً أن يثبط (يهمد) لديهم روح التنافس، التي سرعان ما تنقلب إلى رياح تقتلع..

كان يقترب من دوائر السلطة، يقود خطاه إحساسه بالمشاركة في صناعة تاريخ في طور التشكل، لذلك كان منذ اللحظات الأولي في حياته المهنية حريصاً على أن يحتفظ بكل ما يقع تحت يده من أوراق حتى القصاصات منها، كانت تجد طريقها إلى « أرشيف » هيكل لتدخل إلى حيث تستقر لوقت يأتي فيه دورها.

في الوقت الذي كان منافسوه في « الصحافة »، التي ينسب نفسه إليها وحدها، يحسدون موقعه الذي فيه، ويثرثرون حول الصحافي "الأوحد" الذي ملك أذن، وعقل الرجل الأول في مصر.

-١٠-

اقترب هيكل من السلطة حد الالتصاق وقدم نموذجاً فريداً في ذلك، وكان يدرك أن مهنته تستوجب أن يقترب من السلطة، بالقدر الذي تتيحه من معلومات لازمة لعمل الصحافي، وفي الوقت نفسه تتطلب استقلالية، وحرية حتى لا ينقلب إلى مجرد صوت «سيده ».

وعى هيكل الإشكالية، وحاول بطريقته أن يخلق توازناً، وظل يلعب الدورين

باقتدار؛ الاقتراب حد الالتصاق، مع الحرص الدؤوب على وضع حدود بين رأيه، وبين ما يراه النظام.

كاتب خاض أكثر من تجربة في علاقته مع السلطة، وهو أمر جعله يشكل ظاهرة فريدة في حياتنا الفكرية والسياسية والصحافية، وامتلك تأثيراً لا ينكره أحد، ولكن هذا التأثير لم يكن من طبيعية واحدة طوال مشواره، أو طوال مشوار علاقته بالسلطة.

يرفع البعض دور هيكل إلى جوار عبد الناصر إلى دور المستشار، وشبه البعض علاقته بعبد الناصر بعلاقة الكاهن والفرعون، وقال البعض الآخر: بل ارتفع من دور المستشار إلى دور المشارك في السلطة.

ورغم أن هؤلاء جميعاً يغالون في تصوير دور هيكل وتأثيره، إلا أن أحداً لا يشكك في أنه يمثل نموذجاً من المثقفين الذين ارتبطوا بالسلطة ـ زمن عبد الناصر ـ وتماهوا مع أطروحتها..

وأياً كانت طبيعة الدور الذي أداه هيكل إلى جوار عبد الناصر، فالمؤكد أن العصر كان ذهبياً على الأقل من حيث تأثير المثقفين في سلطة اتخاذ القرار.

ورغم أن سلطة عبد الناصر نجحت ـ ولو جزئياً ـ في احتواء المثقف، إلا أنها ظلت على علاقة متوترة بهذه القوة الاجتماعية، ذات التأثير البالغ في حركة المجتمع.

ورغم ذلك فيمكن القول أن تأثر سلطة عبد الناصر بأطروحات المثقف في زمانها كانت الأعلى بالقياس ـ مثلاً ـ إلى حكم الرئيس السادات، ومن بعده الرئيس مبارك، وهو الذي نجحت سلطته في احتواء المثقفين في شهر عسل طويل، ولكنها في الوقت نفسه استطاعت عزلهم عن أي قدرة على التأثير في قرارتها الرئيسية، بل إنها تكاد تكون حولتهم ـ في معظمهم ـ إلى دعاة لقبول الواقع كما هو ـ عكس دور المثقف الحقيقي ـ تحت دعاوى تقول بأن البديل قد يكون خطراً.

وهي إذ عكست دور المثقف بتنظيره لتكريس الواقع والرضا به، فإنها تكون اجتازت مرحلة «الاحتواء» إلى مرحلة تحويلهم إلى «أبواق» دعاية لهذا الواقع.

كان محمد حسنين هيكل إلى جانب عبد الناصر، وبالقرب منه، يجيء تأثيره من كونه « مطلعاً » أكثر من غيره، ليس فقط على فكر الزعيم، ورؤيته، ولكن بحكم إطلاعه أيضاً على مطبخ صناعة القرار، ومعرفته لكثير من الأسرار السياسية.

وكان من موقع المطّلع يستطيع أن « يذيع » بعض ما يملك من « أسرار »..

و«المطّلع» الذي يقدر أن يفك طلاسم السر، له جاذبية الغموض نفسه مثله مثل «الكهنة»، لهما ألق يجذب، ويحرق أحياناً، من هنا كان تأثيره في عهد جمال عبد الناصر.

وكان تأثيره إلى جانب أنور السادات في البداية يجيء من كونه « مشارك »، بشكل علني أحياناً، في صناعة القرار، بل بدا لفترات وكأنه يقود خطا السادات، وكان واحداً من أعمدة مطبخ صناعة القرار تحت حكم السادات في بداياته الأولى..

وكان في بداية عهد السادات، ومن موقع «المشارك» يستطيع أن يكون نفوذه أوسع وتأثيره أكبر.

وهو ـ لا شك ـ تأثير مغاير لتأثير «المختلف» علناً مع أنور السادات بعد ذلك في النصف الثاني لمدة حكمه، في تلك الفترة كان تأثيره يجيء من كونه «معارضاً» لمجمل سياسات الرئيس، وكان من موقع المختلف لا يزال قادراً على إذاعة العديد من الأسرار إلى جانب حصيلة تأمله فيما يجري.

وفي تلك الفترة زاد تأثيره توهجاً.

كان قد انتقل من مثقف ملتحق بالسلطة في زمن عبد الناصر إلى محاولة فرض المثقف على صاحب السلطة في زمن السادات، ثم إلى «سلطة المثقف» بعدما حاز ـ عبر معارضته لنظام السادات ثم للسياسات التي يمثلها بعد رحيله ـ مشروعية اجتماعية سياسية نضالية، خاصة بعد سجنه في آخر عهد السادات.

كانت سلطة عبد الناصر قد نجحت في أن « تحتوي » المثقف في هيكل،

وأصبح معبراً عنها، متماهياً مع أطروحتها، داعية إلى ما تمثله، وهو ما فشلت فيه سلطة السادات.

وهي ـ للحق ـ شهادة لهيكل..

فلم يكن الأستاذ « رجل كل العصور » كما حاول البعض أن يصوره.

ولا يقلل ـ في رأينا ـ من قدرة سلطة عبد الناصر على «احتواء» المثقف في هيكل، أنه كان يتوافق مع شرعيتها، أو يوافق على مرجعيتها، هذا الاتفاق وهذا التوافق مع شرعية النظام ومرجعيته، جعل أكبر منظمتين ماركسيتين مصريتين تقرران حل تشكيلاتها التنظيمية، ثم بدأت قيادتها أفراداً مرحلة الدخول إلى قفص «الاحتواء».

وهو احتواء استطاعته سلطة عبد الناصر بدون أن تعين واحداً من هذه القيادات الماركسية في منصب وزير، ورغم أن السادات فعل أكثر من ذلك، وعين اثنين منهم وزراء في أول حكومة بعد انقلاب مايو سنة ١٩٧١، إلا أن هؤلاء أعادوا تنظيم أنفسهم من جديد في السبعينات، وعادوا إلى موقف «التمرد» على السلطة، بعدما سقط الاتفاق على شرعية النظام ومرجعيته.

وكان السادات قد نجح بهم، وبعناصر أخرى غيرهم، في أن يحدث لنفسه شرعية جديدة، نشأت على إثرها مرجعية جديدة، تناقصت وارتدت عن شرعية ومرجعية جمال عبد الناصر.

وكانت هذه المنظمات وتلك القيادات خاضت منذ قيام ثورة يوليو في محاولات شتى لإثبات اختلافها قبل إعلان توافقها على مرجعية النظام وشرعيته خلال اثنتي عشر عاماً، ومع ذلك جرى احتواؤها، والتحقت بمسيرة النظام في النصف الثاني من الستينيات.

وكانت تضم قطاعات من المثقفين ـ ربما الأكثر ثقلاً ـ من كتاب وصحافيين كثيرين، من بينهم هيكل نفسه في ذلك الوقت، ونحن لم نسمع، لا من هيكل، ولا من غيره، أنه خاض خلافاً أو رفضاً مع شرعية النظام ومرجعيته كما فعلت هذه القيادات.

اختلف هيكل مع بعض الإجراءات، نعم هذا صحيح، أعلن اختلافه مع بعض السياسات جائز، وحدث فعلاً، ولكن هل عارض أو اعترض على ما يمس شرعية النظام ومرجعيته، لم يحدث بالقطع.

مع السادات كان الأمر مختلفاً...

مع السادات أحس هيكل ـ أولاً ـ ثم جاءه اليقين يسعى من كل جانب، بأن السادات ماضٍ إلى عكس الاتجاه، فقرر أن يتوقف عن «لعبته» معه.

وحدث «افتراق الطرق» عقب مجيء مستشار الأمن القومي الأمريكي هنيري كيسنجر إلى المنطقة يضع أسساً جديدة، وترتيبات مغايرة لأبسط معاني ظل هيكل يتبناها، ويدافع عنها طويلاً.

وبعد ذلك سيثبت لكل من هيكل والسادات أن تجربتهما معاً مثل «الزواج الفاشل»، زواج لا يقوم على شراكة حقيقية، ولا يجمعه تكافؤ نسبي، وأن ما جمعهما كان مجرد تحالف مؤقت، ولأسباب وقتية، سرعان ما سقطت، فانفك التحالف، وانفرط عقده.

ـ١٢ـ

قال هيكل عن علاقته بسلطة أنور السادات أكثر من وصف.

قال مرة: « أنا مراقب محايد»...

وقال مرة أخري: « أنا طرف مهتم»...

وقال مرة ثالثة: « أنا لست متفرجاً »...

وهي ـ بدون شك ـ ثلاثة أوصاف، لثلاثة مواقع مختلفة من سلطة السادات، فـ « المراقب المحايد » غير « الطرف المهتم » غير الذي « لا يقف متفرجاً » على ما يحدث ويجري أمام عينيه، وتحت بصره وسمعه، وهي للحق ثلاثة مواقع حقيقية، فهو في بعض الأحيان وحسب ما تفرضه الظروف ـ كان مراقباً محايداً، أو أراد لنفسه أن يكون كذلك، وسط ظروف اعترت علاقته بالسلطة بعدما أقصاه السادات من دائرة صنع القرار، ولكنه لم يتخل في أي لحظة عن أن يكون « طرفاً مهتماً »، وكان في كثير من

الأحوال « منغمساً» غير قادر على الاقتصار على دور المتفرج.

وقد فرضت عليه هذه المواقع ثلاثة مواقف أيضاً:

إما« مواقف مؤجلة »، يرتب لها الأوراق، ويكدس من أجلها الوثائق، ويستجلب لها الأدلة، ويقف في الانتظار متحيناً فرصة ملائمة...

وإما « مواقف محسوبة » يطلقها مستعداً لعواقبها، متحفزاً للدفاع عن تفصيلاتها، متجنباً الدخول في متاهات تحيط بها، محافظاً على « الشعرة » في موضعها الصحيح، إن أرخت السلطة شد، وإن شدت « أرخى » حتي لا تنقطع ...

وإما «مواقف محتومة» يدفع إليها دفعاً، لا تترك له مجالاً لشيء غيرها، وتسوقه إليها فلا يجد مناصاً منها، على قاعدة أنه من العار أن يموت جباناً إذا لم يكن للشجاعة بد.

ـ١٣ـ

عندما حبس أنور السادات صديقه اللدود محمد حسنين هيكل كان يهدي إليه آخر « صنائعه » التي توج بها عنقه، وهي أنه قطع صلته بالسلطة، سواء صلة تعاون، أو صلة اختلاف، ثم إنه أسبغ عليه (بسجنه) شرعية نضالية ساهمت في تكريس تأثيره الجديد...

ذلك التأثير الناشئ عن « سلطة المثقف »، تلك السلطة التي لم يكن ذاق لها طعماً من قبل.

هيكل البعيد عن السلطة ـ بفضل السادات ـ هو هيكل جديد...

تأثيره مختلف...

ربما أكثر مصداقية...

ولكن المؤكد أنها أفضل مراحل هيكل...

وهو فيها أكثر تأثيراً..

ذلك التأثير الذي يبقي ـ فعله ـ في المستقبل، أكثر من الماضي، والأزمان التي تتوقف.

بين الصحافة
والسياسة

◆◆◆



-١-

العمل في مهنة الصحافة له بريق، شد إليه حتى رؤساء الجمهورية، وجذب نحوه سياسيين ورؤساء أحزاب، وقد يستغرب البعض أن يتمنى رئيس دولة لو أنه كان رئيساً لتحرير هذه الجريدة، أو تلك المجلة، وكأن رئاسة التحرير أقوى من رئاسة الدولة.

بريق صاحبة الجلالة يخطف الأعين، ورئاسة التحرير، هي رئاسة للعقول، أي رئاسة تأثير، وليست رئاسة قهر، والرئيس يحب أن يكون محبوباً ومقنعاً قبل أن يكون مرهوباً وقاهراً.

من باب الصحافة دلف كثيرون إلى عالم السياسة، ومن عالم السياسة ظل كثيرون يتوقون إلى درجة التأثير التي يملكها أصحاب القلم، بعض هؤلاء سلك الطريق من الرئاسة إلى الصحافة، وبعضهم سلك الطريق بالعكس .

جمال عبد الناصر - بجلالة قدره - داعب محمد حسنين هيكل عندما زاره أول مرة بالأهرام، وهو يفتتح مبناها الجديد، وعندما دخل مكتبه جلس على المكتب، وقال :

- هذا هو العمل الوحيد الذي كنت أرغب في القيام به.

بينما لفت نظر أنور السادات الذي كان هو الوحيد الذي صحب عبد الناصر في زيارته إلى الأهرام الكرسي الذي يجلس عليه هيكل، فقال للرئيس وهو يشير إلى المقعد:

- شايف ياريس محمد قاعد على كرسي شكله إيه؟

كان لدى عبد الناصر غرام بالصحافة، ووضع اسمه على أول صحيفة تصدر في عهد الثورة لتتحدث باسمها كصاحب امتياز جريدة «الجمهورية»، وكان ساعتها هو الرجل القوي في السلطة، والقائد الفعلي لمجلس قيادة الثورة، والمسيطر على القرار السياسي، والأمني، والاقتصادي، في البلد .

وكانت الصحافة وسط كل هذه الاهتمامات، وفي غمار تلك الهموم، واحدة

من هموم واهتمامات عبد الناصر، وضع عينه عليها مبكراً، وكان له معها محاورات ومجادلات وصلت إلى حد تبادل الاتهامات والرسائل العلنية على الهواء - بلغة تلك الأيام - وهواؤها كان على صفحات مجلة "روزاليوسف".

وعلى الطريق العكسي اتجه السادات إلى العمل صحافياً محترفاً في دار الهلال في بداية مشواره، عندما كانت السياسة تتوقف عن أن تعطيه «الشهرة» والتأثير المطلوبين، وانتهى به المطاف رئيساً لمصر، ثم سعى بعدها، وهو رئيس، إلى تأسيس مجلة وصحيفة أسبوعيتان، الأولى هي مجلة «أكتوبر»، وكان يريدها أن تصبح المجلة الأولى في الوطن العربي، وأرادها أن تنافس مجلات بيروت، التي كانت تهاجمه بشدة في تلك الآونة، والثانية هي صحيفة« مايو» الناطقة بلسان الحزب الذي أنشأه باسم الحزب الوطني الديمقراطي، وقد وضعها تحت رعايته المباشرة، وأمدهما بكتاباته الخاصة، وذكرياته التي كان يحب أن يرويها، كل مرة برواية مختلفة، وأحياناً برواية متناقضة مع الروايات السابقة، وكان يريد لجريدة «مايو» أن تكون أحسن من «أهرام هيكل».

والمفكرون الكبار جذبتهم صاحبة الجلالة، وأدخلتهم من خلالها إلى ملاعب السياسة.

طه حسين، ولطفي السيد، ومحمد حسين هيكل، وغيرهم كثيرون..

بل إن كاتباً ومفكراً بحجم ومقدرة وقدرات عباس محمود العقاد دخل من بوابة الصحافة إلى ميدان السياسة، وأصبح عضواً بارزاً في البرلمان ، وصديقاً مقرباً من زعيم الأمة سعد زغلول ، ومتحدثاً باسمه، وأصبح «قلم الوفد الجبار»، كما وصفه الزعيم، وبعد ذلك تقلب العقاد في حلبات العمل السياسي، وكانت الصحافة مدخله إلى تلك الحلبات، ولمع فيها قلمه، وصال وجال، وظلت السياسة ولعه حتى الرحيل .

محمد التابعي كان ملكاً متوجاً في بلاط صاحبة الجلالة، وصاحب تأثير ضخم في الحياة السياسية، ولعله أبو المدرسة الحديثة التي تؤكد دور الصحافي في صناعة

الأحداث، وليس مجرد الكتابة عنها، والصحافة عنده تاريخ تحت الصنع، وفي مدرسته تتلمذ كثيرون على يديه.

إحسان عبد القدوس حاول قبل الجميع ولكن حبه للرواية أخذه من الاثنين؛ الصحافة والسياسة.

مصطفي أمين حاول ونجح، ثم أخفق وهوى، وانتهى به الحال محبوساً على ذمة قضية تتعلق بالسياسة لا بالصحافة، وبتهمة التخابر مع دولة أجنبية.

ـ٢ـ

كان من بين تلامذة محمد التابعي واحد تفوق على الجميع، افتتح لنفسه مدرسة خاصة كان هو ناظرها، ومعلمها، ومديرها الوحيد، وكانت قصته بين الصحافة والسياسة قصة نجاح جعله موضع حسد (لكي لا نقول حقد)، من الكثيرين، كثيرون من رجال السلطة، قبل كثيرين من رجال الصحافة، وظل، ولا يزال، تجربة فريدة في بابها، ذاع صيته بعد كتاب شهير له هو أول كتبه «إيران فوق بركان»، وراح بعدها يتحسس خطاه في أروقة القوة والسلطة، مدفوعاً بطموح ليست له حدود، وجد نفسه ـ لأول مرة ـ يشارك في تسمية بعض وزراء حكومة نجيب الهلالي باشا قبيل ثورة يوليو، ثم راح يتعقب القوة البازغة في الجيش، ولم يكن وجوده يوم ١٨ يوليو سنة ١٩٥٢ في منزل محمد نجيب إلا نوعاً من هذا التحسس للخطا، بعدها رمي أوراقه كلها مع القوة الجديدة في الجيش، وتابع الرجل الأقوى منذ اللحظة الأولي، واقترب منه عمداً وبإصرار، يملؤه طموح بلا حدود للعب دور وإعطاء لولاء كان يبحث عن «أمير» يخدمه.

كان قد انتقل من يد فاطمة اليوسف إلى يد محمد التابعي الذي سلمه إلى الأخوين أمين (على ومصطفي)، وبرز هناك، وأصبح اسمه «مانشيتا» ككبار النجوم والسياسيين، ومن هناك، من على صفحات «أخبار اليوم» و«آخر ساعة»، كان محمد حسنين هيكل متأهباً للإقلاع، موضوعاً بإحكام فوق منصة الانطلاق، بالمسافات و بالقياسات الدقيقة.

فانطلق إلى طموحه ..

وسبق الآخرين جميعاً ..

كان يتقدم في عالم السياسة بقدر ما يتقدم في عالم الصحافة أو بالتوازي، خلط الصحافة بالسياسة، وخالط السياسة بالصحافة، قال مرة ليوسف إدريس : إنه يمارس السياسة كصحافي، ونقول نحن : إنه كان يمارس الصحافة كسياسي، ولكنه- للحق- ظل وفياً لكونه صحافي أولاً، عارفاً بأن هذه هي نقطة قوته، نقطةٌ تميزه عن الآخرين، وبقي يردد دائماً، بمناسبة وبدون مناسبة: «أنا مجرد جورنالجي».

«جورنا لجي» ظل مخلصاً للصحافة كما خبرها ممن تعلم منهم، أو تعلق بهم في بدايات حياته العملية، تلك الصحافة المختلطة بالسياسة، والتي تعرف للصحافي دوراً في صناعة الأحداث التي يكتب عنها أو يتابعها عن كثب.

وظل مخلصاً لنموذج أستاذه التابعي، صحافي قريب دائماً من مصانع الأخبار ومن مسارحها ، قريب - دائماً - من القمة حيث تطبخ «الأخبار» وربما يشارك في إضفاء «لمحة» خاصة عليها، تكسبه دوراً وأهمية، وتزيده قرباً من القمة .

ظل هيكل مخلصاً لصحافة شعارها أن الصحافي الكفء قريب من الحدث ، قريب من القمة.

وبعدما خرج هيكل من دائرة التأثير في صنع الحدث أو صياغة القرار، أغلق الباب وراءه أمام تكرار نفس التجربة، وكان عصرًا جديدًا قد أذن بالبزوغ.

-٣-

أول ما يمكن نفيه من أقوال هيكل الشائعة عن نفسه أنه مجرد «جورنالجي»، فلا هو مجرد «صحافي»، ولا هو اعترف في يوم من الأيام أنه كان بعيداً عن مجال السياسة.

وقد أتقن هيكل لعبة الصحافي في خدمة السياسي، كما أتقن فن أن يكون السياسي في خدمة الصحافي، والحق أنه مارس السياسة كصحافي ومارس

الصحافة كسياسي..

كانت الصحافة حياته، وكانت السياسة ـ بمفهومه ـ إدمانه..

استطاع ـ أولاً ـ بالمعلومات، والحقائق، والتصورات، والسيناريوهات يجمعها، وينسقها في رؤية، أن يكون مفيداً لصانع القرار، فكان طبيعياً أن يكون صانع القرار مفيداً له كصحافي، وعرف مبكراً كتلميذ في مدرسة محمد التابعي، أن الصحافي الحقيقي، هو من يملك بعض المعلومة التي يسأل مصدره عنها، أو الذي يستبدل معلومات مصدره، بمعلومات ينقلها إليه، أتقن هيكل اللعبة، وتفنن فيها، وأصبح صاحب مدرسة خاصة.

ثم كان اقترابه من صانع القرار ـ ثانياً ـ يعطيه قدرة مضافة على نجاحه المهني، فوظف هيكل السياسي، في خدمة نجاحه الصحافي، كما وظف في البدء الصحافي في سبيل نجاح السياسي، ولعب بمهارة اللعبة المزدوجة: الصحافة والسياسة معاً، كل في خدمة الأخرى، يوظف هذه لتلك، وبالعكس، فظل ـ دائماً ـ قرب القمة، يحرص على مكانه، ومكانته التي صنعها بيديه.

ـ٤ـ

لم يكن هيكل بدعة وحده، سواء في موقعه من جمال عبد الناصر، أو من بعده مع أنور السادات .

هو نفسه يشير إلى أن ذلك ليس فريداً، وأن التجربة لها نظائر مشابهة في بلاد كثيرة، اختار منها أمريكا وبريطانيا وفرنسا :

- والتر ليبمان مع فرانكلين روزفلت..
- وليام زيس مع مارجريت تاتشر..
- بيف ميري مع شارل ديجول..

ما لم يقله هيكل أن حضارتنا العربية شهدت مثل هذا الموقع في عصور مختلفة، وبصور تناسب العصر، فقد اقترب عبد الحميد الكاتب من السلطة حتى أصبح وزيراً مقرباً ومسموع الكلمة في دولة الأمويين، وكانت للجاحظ مكانة مميزة في

عصر العباسيين، وكذلك كان أبو تمام مع المعتصم، والمتنبي مع سيف الدولة، ومن بعده مع كافور.

ولعل المتنبي هو أقرب الجميع إلى قلب هيكل، وأقرب إلى تجربته مع فوارق تفرضها متغيرات الظروف، واختلاف الأحوال.

كان أبو الطيب المتنبي ملك الكلمة في عصره، وأصبح هيكل - الذي يحفظ العشرات من أشعاره - خليفته على عرش الكلمة في عصره ..

ولكل عصر أسلوبه .. و أدواته ..

وكما عمل المتنبي إلى جانب، وبالقرب من رجل دولة ودين مثل سيف الدولة، ثم عمل إلى جوار وبالقرب من حاكم مثل كافور، عمل هيكل مع وبالقرب من رجل بحجم ودور عبد الناصر، ثم عمل إلى جوار وبالقرب من حاكم مثل السادات.

الأول ظل وفياً لسيف الدولة وهجا كافوراً، وفضح نفسية العبد فيه: « لا تشتري العبد إلا والعصا معه، إن العبيد لأنجاس مناكيد »، وظل الثاني وفياً لعبد الناصر، وبطريقته هجا السادات، ورأى فيه نفسية العبد: «ابن بنت عبد زنجي، ورث عن أمه كل تقاطيعها، وورث مع هذه التقاطيع مشاعر غاصت في أعماقه إلى بعيد»[1].

وهيكل كما كان المتنبي معتد بنفسه ودوره يردد:« أنا الذي نظر الأعمي إلى أدبي»، وكما سعى المتنبي في زمنه إلى تحقيق حلمه المستحيل في أن يكون المفكر حاكماً، ولو في إمارة صغيرة، سعى هيكل كي يفعل الشيء نفسه مع السادات، ولو بالواسطة، بأن يسيطر على عقل وقلب السادات، ولعل أحد أهم مسببات أن يقف هيكل مع السادات هو طمعه في أن تسهل شخصية السادات عليه تحقيق الحلم المستحيل في أن يصبح المفكر حاكماً.

---

(١)خريف الغضب- ص٣٥- ط الأهرام.

وهيكل كما المتنبي الذي هو عند النقاد والقراء العرب من أعظم شعراء العربية، أو هو أكبر شعرائهم العظام، لا يضاهيه أحد من اللاحقين عليه في مهارته في النظم، وسلاسته في التعبير، وتمكنه من العبارة الرصينة المنمقة، ولا يباريه شاعر في كثرة الاستشهاد بشعره، أو في عدد الأبيات التي جرت مجرى الأمثال، وأضحت على كل لسان، وباتت من مكونات النفس والعقل العربيين.

وكما كان المتنبي عظيم الطموح وسيد شعراء عصره، أصبح هيكل في عصرنا هو سيد العبارة الرصينة المنمقة، خلب الألباب بكتاباته، ونحت الكثير من العبارات التي أصبحت تتردد على كل لسان عربي.

ولع هيكل بالمتنبي - إذن - ولع طبيعي، فالمتنبي هو صورة المثقف العربي الذي رغب بشدة في أن يكون المثقف أميراً، وهو طموح هيكل أيضاً..

والمتنبي هو المثقف الذي اقترب عن طريق قلمه - كما فعل هيكل - من السلطة، وظل في أحضانها، ثم عندما لفظه السلطان دانت له سلطة المثقف.

وأن يحفظ هيكل مئات الأبيات من شعر أبي الطيب لا يمكن فهمه فقط في حدود ما يردده «الأستاذ» من أنه تدريب للذاكرة، كي تظل حية نابضة، ولا يجوز تفسيره على أنه ولع بشعر الشاعر، لأنه - في ظننا - ولع بالشعر والشاعر أيضاً، وولع بالنموذج مكتملاً، موهبة وطموحاً.

وكما المتنبي، كان أكثر ما يقلق هيكل هو الحفاظ على أمنه الشخصي، على طول مشواره بالقرب من السلطة ، وربما من هذه النقطة بالذات جاء وقوفه مع «كافوره»، في مواجهته مع من أسماهم «مراكز القوي» في مايو سنة ١٩٧١.

-٥-

لا جدال في أن علاقة الحاكم بالثقافة تؤثر سلباً أو إيجاباً على علاقته بالمثقف..

وكان هذا هو أساس الاختلاف بين علاقة هيكل مع كل من عبد الناصر والسادات من بعده..

وكانت علاقة الرئيسين بالثقافة مختلفة..

كان جمال عبد الناصر من «مشاهير القراء» كما يردد كامل زهيري[1]، وكما يشهد بذلك كل من اقترب منه بدرجة أو بأخرى، وتنوعت قراءاته ولم تقتصر على العلوم العسكرية وعندما أراد جورج فوشيه أن يكتب عن جمال عبد الناصر كتابه الشهير ذهب إلى مكتبة الكلية الحربية واطلع على كشف استعارات الطالب جمال عبد الناصر، ومن خلال معرفة هذه الكتب تكتشف أنه كان يقرأ لأمثال: ليدل هارت، واللنبي، وتشرشل، وتوفيق الحكيم..

كان قارئاً، وكان مثقفاً، ويقدر المثقفين، وله اهتمامات مثل التصوير السينمائي وأحب السينما، واهتم وهو شاب بالاطلاع على أسرار السياسة المصرية، فنجد لديه كتب لأحمد حسين عن الأزهر ودوره الوطني، وكتب لمحمود أبو الفتح عن الوفد كحركة وطنية، وكان اهتمامه بالكتاب عموماً اهتماماًعظيماً، وكان اهتمامه بالقراءة معروفاً، وكل الذين اقتربوا منه بلا استثناء واحد ، بما فيهم أنور السادات، يؤكدون ولع عبد الناصر بأن يقرأ.

شهادة مثقف كبير مثل كامل زهيري نقيب الصحافيين الأسبق، تؤكد لنا أن «من أهم مميزات عبد الناصر التي لمستها أنا بنفسي أنه كان قارئاً ممتازاً، وأنا أحب الزعيم الذي يقرأ، وعبد الناصر كان «قارئاً محترفاً» لدرجة أنني اكتشفت أنه يراجع ما ينشر مترجماً على الأصل الذي ترجم منه، وعندما ذهبت إليه في بيته، وجدت في مكتبته مئات من الكتب المهمة لتاريخ مصر، حتى الكتب التي كان قد اقترضها أيام كان طالباً،كلها من أمهات الكتب».

شهادة أخرى ذكرها لي السفير محمد وفاء حجازي وكان قد عمل إلى جوار عبد الناصر إبان عمله وزيرا للداخلية في أوائل أيام الثورة، وهي اهتمام عبد الناصر بكتاب «في الدولة» من تأليف هارولد لاسكي وترجمه كامل زهيري، وقرر عبد الناصر بعد أن فرغ من قراءته أن يجري توزيعه على العديد من القيادات ليقرؤوه.

---

(١)كاتب صحافي مصري كبير ونقيب سابق للصحفين لأكثر من دوره، يلقب بنقيب النقباء.

وقرأ عبد الناصر «بدلاً من الخوف» للكاتب الفرنسي الشهير أنورين بيفان فعمل على أن يكون بيفان أحد كتاب جريدة «الجمهورية».

وعندما ترأس كامل زهيري مؤسسة «دار الهلال»، اتصل به سامي شرف مدير مكتب جمال عبد الناصر للمعلومات، ليبلغه أن الرئيس يطلب الاهتمام بسلسلة «روايات الهلال»، ويشير إلى أنها غير مطابقة للأصل المترجمة عنه، وأنها ليست كاملة، وطلب نشر نصوص الروايات، ومنذ ذلك الوقت ظهرت على أغلفة روايات الهلال عبارة «النص الكامل للرواية»..

كل هذا يدل على اهتمام خاص من عبد الناصر بالثقافة..

ومرة أخرى يلفت كامل زهيري نظرنا إلى أن ولع عبد الناصر واهتمامه بالسينما والتصوير السينمائي ثم الأفلام ليس تعبيراً عن ثقافة خاصة يتمتع بها الرئيس وفقط ولكنها جعلت محمد حسنين هيكل يكتب المقال الشهير «بصراحة» على طريقة و«فورمة» السيناريوهات، وهي طريقة تعجب عشاق السينما كعبد الناصر، فاقترب منه بهذه الطريقة.

كان عبد الناصر مثقفاً قبل أن يكون رئيس دولة..

ولا شك أن هذا الجيل كله كانت الثقافة في نظره دور وطني..

ولم يكن هيكل استثناء من ذلك، وظل يزداد اقتناعاً بأفكار عبد الناصر يوماً بعد يوم، وكان أول ما لفت نظره في عبد الناصر هو شخصية المثقف فيه.

-٦-

أول ما لفت نظري في جمال عبد الناصر، هو أول ما يمكن قوله عن شخص مثقف، أنه يفهم لغة الرموز بالكلمة أو لغة الرموز بالصوت، أو لغة الرموز باللون، كان أول تعبير استوقفني في كل ما قاله، باعتباره من الأمور الغريبة جداً، كان هذا في يوم الجمعة الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢، وكان الوقت بعد الظهر، ولا أظن أنني بمفردي الذي استلفت نظري هذا الأمر، يخيل إلى أن سليمان حافظ،الذي جاء من الإسكندرية لساعة واحدة، توقف أمام هذا التعبير مثلما

توقف غيره، كان ذلك عندما قال جمال عبد الناصر: يا جماعة اقرؤوا قصة مـدينتين، الدم سيأتي بمزيد من الدماء.

شعرت أنني أمام إنسان قرأ رواية، وتقبل التعبير الذي تقدمه، ووصل إليه الرمز الذي فيها، وفهمه، وبقي موجوداً في وعيه، وعبر عنه في لحظة معينة، هـذا أول مـا لفت نظري.

ثم لفت نظري بعد ذلك الصورة المشهورة لهذا الرجل والتي توشك أن تكـون جـزءاً مـن صـورتـه الذهنية له عنـد النـاس الـذين عاصـروه، أنـه يبـدو جالسـاً، ويستمع في حالة إنصات وتأمل، من يستطيع أن ينسى هـذه الصـورة بالـذات؟،إن أهم شيء في المثقف ـ من وجهة نظري ـ أنـه هـو الـذي يستطيع أن تكـون عنـده القدرة على الإنصات، الخطيب قد تكون عنده القدرة على الكـلام طـوال الوقـت، وكذلك الإنسان المجادل، لكن الرجل الذي يجيـد الاسـتماع والإنصـات، لابـد وأن يلفت النظر، في الأيام الأولى من الثورة كان عبد الناصر يستمع فقط.

عبد الناصر في روايـة هيكـل قـرأ الكثيـر جـدًا، والـقراءة كانــت أكثـر مـن المقـابلات، بـما لا يمكـن المقارنـة بـين الأمـرين، ومـن الصـعب حصـر هـذه القراءات.

وسنعرف من أكثر من مصدر أن عبد الناصر كان يقرأ، ويحرض على القراءة من هم حوله، وكان يوجه بإرسال بعض الكتـب، أو الملخصـات إلى زملائـه أعضـاء مجلس قيادة الثورة..

ويقول هيكل إن بعض الكتب كانت تلفت نظر جمال عبد الناصر بطريقة تشـعر معها أنها تركت أثراً في نفسه، أتذكر مرة كتابًا عن تروتسكي من ثلاثة أجـزاء، كتبـه أيزاك دويتشير أستاذ التاريخ السوفييتي في جامعة هارفارد وقتها، وقد أعطاه لي عبد الناصر، الجزء الأول كان عنوانه: النبي الأعـزل، والثـاني عنوانـه: النبـي مسـلحاً، والثالث عنوانه: النبي منبوذا أو النبي في المنفي، والرئيس أعطاني الأجزاء الثلاثـة، وقال لي اقرأه، ووجدت علامات على الجزء الأول.

وبالتجربة كان عبد الناصر يعرف ماذا يقرأ، فمن الصحف يحاول معرفة اتجاهات عامة، أكثر من جريه وراء التفاصيل، وهناك أشياء كان يقرؤها قراءة أستاذ المخابرات الذي درس علوم المخابرات ليبحث عما وراء ما هو مكتوب، أكثر من اهتمامه بالمكتوب نفسه، كان يقوم بعملية تحليل مضمون بحثاً عن كل ما هو وراء المكتوب والمنشور، مثلاً هذه الجريدة تمثل من، وتلك من يقف وراءها...

وكان جمال عبد الناصر مهتما بالأدب بصورة كبيرة، نحن نتكلم عن رجل كان يدرس التاريخ العسكري، كان مهتماً بشخصيات صنعت التاريخ، ولهذا كان إنسانياً في رؤيته للتاريخ..

ويربط هيكل بين ملكة الاستماع التي يتمتع بها عبد الناصر وبين الثقافة ويقول:

كان يستمع إلى الآخرين، إما لأنه بطبيعته يحب الاستماع، ومن الممكن القول لأنه كان مهتماً بالتاريخ، كان يحب الاستماع، ومن الممكن القول أيضاً لأنه كان مهتماً بالأمن، كان يحب الاستماع، ما تريده قله، فسر الأمر كما تشاء، لكن أنا لا أعرف زعيماً أو سياسياً عنده كل هذا الفضول للمعرفة مثل جمال عبد الناصر.

وكان جمال عبد الناصر مستعداً لأن يصغي بغير حدود..

وقد دخل مالرو[1] في حديثه مع جمال عبد الناصر من مدخل تاريخ مصر، وراح لمدة ساعة كاملة يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة، وانتقل منها لخمس دقائق إلى الحضارة الصينية القديمة، ثم نظر في ساعته واكتشف أنه نسي نفسه في حديث الثقافة والحضارة، فحاول أن يعتذر لكي ينتقل إلى أحاديث السياسة، وطمأنه جمال عبد الناصر إلى أنه يسمع سياسة طوال أربع وعشرين ساعة كل يوم، وأنه سعيد بهذه الجولة التي طاف به مالرو خلالها بالحضارات القديمة.

***

(١) الأديب الفرنسي أندريه مالرو من أبرز الوجوه الأدبية الفرنسية في القرن العشرين.

-٧-

ومبكراً جداً عرف هيكل ما يحتاج إليه رجل في موقع ومكانة عبد الناصر من أفكار وأخبار واتصالات، وأدي المطلوب على خير وجه، وعبر عن عبد الناصر بصورة كان يقول عنها عبد الناصر:

- «هذا بالضبط ما كنت أريد أن أقوله..

يعني هي أفكار عبد الناصر وصياغة هيكل..

وكان ذلك من مفاتيح شخصية عبد الناصر..

عكس السادات كان من مفاتيحه الشخصية أنه يحب أن يكتب، أو أن يقال عنه أنه يكتب .

موسى صبري استغل هذا المفتاح، وكان يحاول أن يضع ألفاظاً يحبها السادات، ويكثر من تداولها، حتى يظهر وكأن السادات هو كاتب الخطاب، فكان موسى صبري يتقمص شخصية السادات، ماذا لو كتب هو بنفسه هذا الخطاب، فماذا يقول، ويكتب على هذا الأساس، وكان السادات يقول له أنا فعلاً أحس بنفسي عندما أقرأ الخطاب عندما تكتبه بالروح التي أكتب أنا بها، فأحس بنفسي طبيعياً..

وقد تجد أن موسى صبري اقترب من السادات، ولكن إذا دققت النظر في طبيعة العلاقة ستجدها مختلفة، فلا السادات هو عبد الناصر، ولا موسى هو محمد.

اللغة المشتركة في العلاقة بين عبد الناصر وهيكل، كانت المعلومات والأفكار.

وهنا علاقة الكاتب بالسلطة لها أساس مختلف.

ولكن اللغة المشتركة المقبولة من موسى صبري لدي السادات لم تكن غير لغة الدفاع عنه، وتبني ما يراه، وهنا يشير كامل زهيري إلى أن موسى صبري ظلم نفسه، لأنه سجن قلمه في إعجاب عاطفي مبالغ فيه بالسادات، وكان إذا كتب كذب، وإذا

كذب بكي، وإذا بكي تهدج، وهذه ميلودرامية على مقاس ومزاج السادات، ولهذا اقترب منه، وظل عربون الاقتراب أن يبقي دائماً في موقع المدافع عن السادات، إن بالحق، وإن بالباطل.

والخلاف كبير بين الحالتين.

فقد كان هيكل كاتباً محققاً بالأخبار، وهي مدرسة مهمة جداً في الصحافة، كان هو بارعاً فيها، وأي حاكم لا يحب أن يكون الصحافي عالة عليه، بل أن يكون مفيداً له، وكان هيكل مفيداً لعبد الناصر، حتى أنه عندما أسس مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام كان هدفه الأول هو الاهتمام بالمعلومات التي يحتاجها عبد الناصر.

وعلى طول فترة حكمه كانت علاقة عبد الناصر مميزة مع وزيرين من وزرائه، كما يقول كامل زهيري، هما وزير الداخلية، ووزير الري، لأنهما يوفران له المعلومات والأخبار:

وزير الداخلية بحكم ما يملك تحت يده من أجهزة، وبحكم طبيعة عمله، وتنقله في شتى أرجاء البلد، يحمل كمية هائلة من المعلومات، والأخبار..

وكذلك وزير الري الذي عمل مهندساً للري من أسوان إلى الإسكندرية، يحمل في جعبته أخبار، ومعلومات شتى من الريف والصعيد..

وهيكل كان يدرك ذلك..

وكان يدرك أيضاً الفرق بين الدعاية للرئيس وسياسته التي يختلط فيها النفاق، وبين أن يكون مفيداً للرئيس، وكان ذلك مبكراً جداً.

***

ـ٨ـ

كان عبد الناصر قارئاً حتى النخاع، بل لم يكن ينام إلا عندما يقرأ.

عكس السادات الذي يحب الملخصات بمنطق « البعد عن وجع الدماغ ».

ويذكر كامل زهيري أنه كتب مبكراً عن مفهوم الحكم الذاتي لدي وزارة

بيجين[١]، وأنه سيعمد إلى وضع تصور عن مستقبل الضفة والقطاع على أساس اقتبسه مدير مكتبه[٢] من ملفات هتلر السرية، وكان أساس الفكرة هو معاملة الفلسطينيين مثل الأقليات، يعطوا حكماً ذاتياً للسكان فقط، وليس على الأرض .

وكتبت مجلة فرنسية تقريراً تعرض فيه التقرير الذي وضعه أليسار وأشار كامل زهيري إلى ذلك في عموده، واتصلت به مراسلة الأهرام في وزارة الخارجية والرئاسة تخبره أن الخارجية قلبت الأرض بحثاً عنه لتسأله من أين أتي بالتقرير الذي أشار إليه في عموده .

ويذكر زهيري أنه قال لها : إن التقرير أمام الوزير الذي يسأل، وهو منشور في مجلة كذا الفرنسية، أو لو أنه نزل إلى مكتبة « هاشيت » فسوف يجدها، إن لم تكن في مكتبه .

وبعد شهرين جاءته المحررة لتخبره من جديد أن الوزارة حصلت على نص التقرير، وأرسلت به إلى السادات، ولكنه وضعه بالدرج، ولم يقرأه.

على الجانب الآخر، لم يكن معروفاً عن السادات اهتمامه بالثقافة، وثقافته تدخل في باب الثقافة السمعية، أو ثقافة التجربة والاحتكاك، ولم يعرف عنه أنه من هواة القراءة التي هي أحد أهم ركائز تكوين المثقف، كان يعف عن قراءة التقارير اليومية التي تأتيه كرئيس دولة، ويقول لسكرتيره:

- ما أنا بقارئ ..

ويأمره بأن يحمل « هذه الأكوام »، أكوام التقارير التي تراكمت إلى جانب سريره، حيث يجب أن يكون وقت قراءة تقارير الدولة.

وشهادة كاتب ومثقف كبير مثل الأستاذ أحمد بهاء الدين عن السادات تؤكد لنا هذا، يقول:

- « لا أكاد أذكر أنني رأيته يوماً جالساً في مكتبه، ولا أكاد أذكر أنني رأيته يوماً وأمامه في الحديقة، أو في الصالون، أي أوراق، أو ملفات، كان يدير الدولة كلها

---

(١)مناحيم بيجين رئيس وزراء الكيان الصهيوني الأسبق

(٢)الياهو بن اليسار وقد أصبح سفيراً فيما بعد لإسرائيل في القاهرة .

بالتليفون فقط » ..

فوزي عبد الحافظ سكرتير الرئيس السادات الخصوصي أكد هذا المعني لأحمد بهاء الدين :

- « أنت عارف الرئيس من زمان « ما لوش خلق ع القراية »، ودلوقت بقت مشاغله كثيرة جداً، أنا باحط له التقارير على « الكمودينو » جنب السرير كل يوم، لكن يفضلوا يزيدوا لحد ما يبقوا عشرين تقرير، وبعدها يقول لي :

- « شيلهم بقي . . لازم الحاجات اللي فيهم بقت قديمة »...

الحقيقة أن السادات لا يعد مثقفاً إلا بالسماع، أي أن المصدر الرئيسي الذي يستمد منه ثقافته، إن جاز التعبير، هو الالتقاط عن طريق « السماع »، ثم إعادة إنتاج وإخراج ما التقطه سماعياً بشكل مختلف، يغلب عليه التزويق والزعيق .

ولست أستبعد من خلال متابعة دقيقة لمصادر ثقافته أن يكون من بين تلك المصادر، مصادر أخري ثانوية من بينها القراءة العابرة بحسب الظروف، وخاصة تلك التي بدأت معه في مراحل متقدمة من حياته، وخاصة في السجن، حيث لا شيء غير أن تقرأ، أي قراءة بالإجبار، ولكن حصيلة قراءته تلك كانت قد دخلت كهوف الماضي . . .

ولم يكن من بينهما شيء ذا قيمة، إلا بقدر ما تومىء به عن حالته النفسية في ظروف السجن.

يخصص موسي صبري ثلاث صفحات كاملة لاستعراض ثقافة السادات، فيخبرنا أنها « بدأت خلال سنوات الحرب الثلاث الأولي التي أمضاها في السجن » مؤكداً أن تلك « كانت سنوات لقاء مع النفس، وكانت سنوات قراءة في فلسفة الحياة، وتجارب الإنسان »، وقد أثر في تكوينه مقال قرأه في مجلة « الريدرز دايجست »[1] ، والمفروض أنها تسقي عامة القراء « الثقافة » بجرعات سهلة كان

(١)المختار، وهي مجلة المختصرات، تعرضها بطريقتها التبسيطية المعروفة ليسهل على قرائها هضمها.

العنوان: «كيف تظل بمنجاة من أيدي الأطباء المشتغلين بعلاج الأمراض النفسية»، ولم يكن، كما قال موسي صبري «مقال عن النفس ».

ولا ندري ما الذي استوقف السادات وهو في زنزانته بالسجن في ذلك المقال، اللهم إذا كان قد شعر بثقل الضغوط النفسية الواقعة عليه في تلك الفترة المتجهمة من حياته . التي يقول موسي صبري أنها « كانت سنوات تعبد وابتهال إلى السماء أن ينقذه الله من حبل المشنقة » .

ويخبرنا موسي صبري أن السادات «ظل يذكر هذا المقال طوال حياته . وعندما التقي الرئيس السادات مع أحد رؤساء تحرير مجلة «الريدرز دايجست» في عام ١٩٧٤، وقد حضرت هذا اللقاء (التاريخي) في المعمورة، كان أول ما طلبه منه موافاته بهذا المقال، وحدد له سنة نشره، وأرسلته إليه إدارة المجلة العالمية التي تنشر طبعات في ٢٨ لغة، وكانت سعادة السادات لا توصف، عندما تلقي المقال من إدارة «الريدرز دايجست» بعد أكثر من ثلاثين عاماً من قراءته له .

وذكر لي سامي شرف وزير شؤون رئاسة الجمهورية والذي عمل مع السادات تسعة أشهر أن السادات لم يكن يكره القراءة فقط، ولكن ـ بالإضافة إلى ذلك ـ كان يحب أن يعرض عليه التقرير في صورة حكاية أو قصة .

وبدلاً من أن تقول له : إن الرئيس الأمريكي صرح بأن أزمة الشرق الأوسط دخلت منعطفاً جديداً إثر رحيل عبد الناصر، ثم تتابع بأن « تحليلنا لهذا التصريح يؤكد أن الرئيس الأمريكي يقصد » يوقفك السادات فوراً ..

وتكتشف أنه يريد أن تقولها على صورة أخري، يعني الرئيس الأمريكي وهو راكب سفينة في بحر، وكانت المدام معاه . . . وهكذا

يضحك سامي شرف ثم يتابع:

ـ « السادات كان عنده قناعة أن عبد الناصر مات من كثرة القراءة ».

***

-٩-

يدمج هيكل رؤيته حول المثقف والسلطة في علاقة الصحافة بالسياسة، ولـه في ذلك ثلاثة نصوص دالة على نظرته الخاصة تلك..

أول هذه النصوص حول طبيعة العلاقة بين الكاتـب والسـلطة «يـذكرنا لحظـة قراءته بنص قديم، جاء في مقدمة ابن خلدون، يتناول الموضوع ذاته، وتحس بأنـه ترجمة عصرية لنص تراثي..

« فـالعلم الحـديث في معظـم بلـداننا منقـول والتجديـد مظـاهر مسـتعارة لأن التغريب بالتقليد سهل، والتجديد الأصيل مشقة، وهكذا فإنه حتى وسائل التنوير، يمكن أن تحول في أيدينا إلى أدوات تعقيم».

ما ينطبق على الإعلام في دنيا العـالم الثالـث ـ لـدي هيكـل ـ ينطبـق أيضـاً عـلى السلاح .

والعالم العربي بالذات يشتري في كل سنة من السلاح ما تبلـغ قيمتـه مـن خمسـة وثلاثين إلى أربعين بليوناً من الدولارات مـا يسـاوي مـن ١٠ إلي١٢ في المائـة مـن الناتج القومي، ولكن السلاح في بلدان العلم والتجديد للدفاع عن النفس، وأما في أيدينا فإن السلاح لقهر النفس، للقمع الداخلي وليس لعدو خارجي، خصوصـاً في فترات تختلط فيها الأمور، حتى أننا لا نستطيع أن نحدد: من هو العدو؟...

وعندما تختلط الأمور، فإن ما يضيع ليس هـو العلـم، والتجديـد فقـط، وإنمـا يضيع العلم الوطني والقومي، ولا يكون هناك بديل غير القمع والقهر..

« وكنت أقول دائماً ولا أزال، إنه عندما يضـيع الحلـم، فـإن الأنظمـة لا يعـود أمامها غير طريق واحد، بدايته قناة تليفزيون، أو محطة إذاعة، أو جريـدة، ونهايتـه دبابة، أو مدفع، أو طائرة »،« وإذا عجزت الأنظمة عن تطويع الناس بـالكلام تـولي السلاح مهمة إخضاعهم بالنار» .

المعاني نفسها جاءت في مقدمة ابن خلدون، لـدي حديثـه عـن «التفـاوت بـين مراتب السيف والقلم في الدول»..

وفيها يشير ابن خلدون إلى أن حظ أهل الفكر أو أهل القلم (الثقافة والإعلام)، يتسع أو يضيق، طبقاً لدرجة الازدهار والاستقرار في مجتمعهم، حيث يقول بالنص: « اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة، يستعين بها على أمره، إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد من أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم، (الاستيلاء على السلطة أولاً ثم تكريسها)، لأن القلم في تلك الحالة (خادم) فقط، ومنفذ للحكم السلطاني، والسيف(شريك) في المعونة، كذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها، أما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره، ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك، من الجباية والضبط، والمباهاة، وتنفيذ الأحكام، والقلم في هذه الحالة أوسع جاهاً، وأعلى رتبة، وأعظم نعمة، وثروة، وأقرب من السلطان مجلساً، وأكثر إليه تردداً، وفي خلواته نجياً، لأنه حينئذ آلته، بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه، والنظر إلى أعطافه، وتثقيف أطرافه، والمباهاة بأحواله، وتكون السيف مهملة في مضاجع أغمادها، إلا إذا أنابت نائبة، أو دعيت إلى سد فرجة » .

والذي يقرأ النصين بتمعن يجد أن الخلاف بين النصين اختلاف بين العصرين، لغة وأساليب،لا أكثر ولا أقل ..

وإذا راجعنا النصين وجدناهما يتفقان في أكثر مما يختلفان:

يقدمان ـ أولاً ـ رؤية مشتركة لأهمية الإعلام في كل عصر...

ويتحدثان ـ ثانياً ـ عن قيمة صاحب القلم لدي الحاكم ...

-١٠-

هل انتهي دور الكاتب أو المفكر إلى جانب صانع القرار؟

الكاتب أحمد هاشم الشريف أرقه السؤال نفسه، وفي رسالة إلى محمد حسنين هيكل طرحه بصيغة خاصة:

- هل انتهى بموت أحمد بهاء الدين عصر المفكر شريك الحاكم في صنع القرار؟

وتوجيه السؤال إلى هيكل له دلالة بالطبع، ولكن ما لا نوافق عليه في السؤال أنه افترض ـ والفرض غير الواقع كما يقول القانونيون ـ أن بهاء كان يشارك السادات في صنع القرار، وهو افتراض لا يرفع من شأن أحمد بهاء، بل لعله يقلل منه إذا صح، وهو غير صحيح، فقد كان يشارك بالرأي مع السادات عندما يطلب منه، وكانت أغلب مشاركاته لمنع قرارات أكثر منها في صنع قرارات، ثم أنه لم يدع لنفسه هذا الدور.

إقحام اسم أحمد بهاء الدين ضمن سؤال عنوانه مشاركة المفكر مع الحاكم في صنع القرار، أثار لدي ملاحظة أراها جديرة وبالتسجيل وربما المناقشة..

والملاحظة أن مسألة المشاركة في صنع القرار، لا تطرح إلا مع أشخاص ذوي وزن خاص، وأن مجرد الاقتراب من السلطة، لا يدعو وحده إلى الحديث عن مشاركة، أو تأثير في صناعة القرار، فوزن الشخص، وثقله الخاص لاعب رئيسي في القيام بمثل هذا الدور..

مثلاً اقترب موسى صبري في علاقة مع أنور السادات إلى درجة الالتصاق، وكان له من تاريخ مشترك معه في بدايات كل منهما ما يسمح له بعلاقة خاصة ومميزة وتأثير كبير...

ولكن أحداً لم يتحدث عن موسي صبري بمثل ما جري الحديث فيه مع هيكل.

أنيس منصور كان مقرباً من السادات في آخر أيامه، وربما اقترب ـ أيضاً ـ من حسني مبارك ولم يذكره أحد في الموقع، والمكانة التي يذكر فيها محمد حسنين هيكل أو أحمد بهاء الدين.

فلا هيكل ولا بهاء من صنع السلطة، ولا هما ممن يرضون لأنفسهما بأن يكونا تابعين، أو مجرد أبواق دعاية لها، كما كان الحال مع موسى وأنيس.

والحقيقة أن المقارنة بين الدورين، غير واردة، وتكاد تكون ظالمة للطرفين، أو بالأحرى هي ظالمة لكل أطراف العلاقة...

ما يجعلنا نؤكد على ذلك أن أنور السادات نفسه لم يكن ينظر إلى موسى صبري

أو إلى أنيس منصور نفس نظرته إلى هيكل أو بهاء، وقد كان حريصاً حتى النهاية، على إبقاء هيكل إلى جانبه بشروطه، حتى بعد ما انقطعت بينهم السبل، وافترقت الطرق، واختلفت الرؤى والأدوار، ورغم وجود موسى، وأنيس إلى جانبه، ولكنه كان يتوق إلى أشياء أخرى في هيكل غير الدعاية الفجة..

كان يتوق إلى خبرته في التعبير عن السلطة..

وكان يتوق إلى خبرته تلك الناشئة من طول اقترابه من السلطة..

وكان يتوق، فضلاً عن ذلك، إلى مصداقيته، التي صنعها طوال تاريخه، ولا تتوفر عند الآخرين، الذين ينظر إليهم كأبواق لا أكثر ولا أقل..

وعندما انقطع حبل الوصل بينه وبين هيكل نهائياً، وبدون رجعة، بقي أحمد بهاء الدين يمثل له امتداداً للدور نفسه، وللمصداقية نفسها المتوفرة لهيكل..

وكان بهاء يمثل إلى جانبه ثقلاً لا يراه في الآخرين، وكان السادات يستدعيه من الكويت، فيما كان الآخرون قابعون قانعين تحت أقدامه، أو بالقرب من طرف أصابعه..

يبقي السؤال قائماً...

هل انتهي دور المفكر إلى جانب صاحب القرار بعد هيكل؟

إجابتنا تكاد تكون: نعم..

ونبدأ من تربع السادات على عرش مصر...

عندها كانت المهام المطروحة على المثقف العربي تحمل عناوين القومية والاشتراكية والعصرية والعقلانية والاستقلال.

وهي عناوين تحتاج إلى أدوار المثقفين، وتجعل هذا الدور محورياً، ولكن بعد حرب أكتوبر، ومع اكتساب السادات شرعية جديدة، راح يفتش لنفسه عن طريق جديدة، لها مهام جديدة، وعناوين مغايرة، وتبحث لنفسها عن منفذين جدد، وكان الكثير منهم قيد الجاهزية للدور الجديد.

وكان هذا بمثابة بدء تاريخ جديد، تراجع فيه دور المثقف، مع تراجع المهام التي كانت قد استقرت نصف قرن على جدول أعمال الوطن.

مع الاتجاه العكسي لهذه المهام، وعند هذه النقطة على خريطة التراجع جاء الدور على هيكل لكي يتراجع.

كان هو الذي حاول أن يطوع المثقفين لمصلحة دولة عبد الناصر ومشروعه الذي كان يكتنف هذه المهام، وجاء عليه الدور لكي يختار بين أن يطوع نفسه، وقدراته، وخبراته، واتصالاته، لمصلحة السادات الذي أصبح هو الدولة، أو يذهب إلى حيث أراد السادات..

إلى الظل. . .

مع نزول كلمة النهاية على دور المثقف..

وبدء دور الحاشية. . . والندماء. . . والأبواق...

خرج هيكل في هذه اللحظة من قلعته، خرج من «الأهرام» الجريدة والمؤسسة التي صنعها على عينه، وقد أحسن صنعاً بأن خرج، وكان خروجه في لحظة مناسبة، فلا الزمان أصبح زمانه، ولا هو يصلح لأن يكون من رجال الزمن الجديد، كما كان مناسباً للسادات ألا يظل «نزناز» هيكل مفتوحاً فوق رأسه، مع بداية طريقه الجديدة، طريق الرجوع عن خط عبد الناصر، ورسم خط جديد، خط أنور السادات، خط الالتحاق بالغرب، والصلح مع العدو.





الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة
بين الكاتب والسلطان



صداقة
الحظ والشرف



-١-

في البداية، ولمدة طويلة نسبياً، وفي أعقاب قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، لم يكن محمد حسنين هيكل هو أقرب الصحافيين إلى جمال عبد الناصر، وكان هناك صحافيون آخرون أقرب.

إحسان عبد القدوس كان شديد القرب من عبد الناصر، وكان صديقاً له، وانتهى الأمر بعد اعتقاله، وكان هناك أحمد أبو الفتح رئيس تحرير جريدة « المصري » الذي كان سبباً في سرعة تحرك الضباط الأحرار بالقيام بالثورة عندما أبلغ صهره البكباشي ثروت عكاشة بأن الملك يدبر أمراً ضد الضباط الأحرار وأنه ينوي أن « يتغدى » بهم، قبل أن « يتعشوا » به، وحالت وفدية أحمد أبو الفتح بينه وبين التعبير عن فكر وسياسة قائد الثورة، وانتهى أمره إلى مغادرة البلاد بعد إغلاق جريدة « المصري »، ومحاكمة شقيقيه محمود وحسين.

وكان حسين فهمي من المقربين إلى قلب وعقل عبد الناصر طوال السنين الأولى من عمر الثورة، وبقى عبد الناصر يحمل له وداً خاصاً على طول الأيام، وأذكره وهو يقول لي ونحن في شقته بالقرب من كوبري الجامعة بالجيزة:

- هنا كان يرقد عبد الناصر بعد مناقشات بيننا تدوم إلى ما بعد منتصف الليل، فيضطر إلى النوم قليلاً يذهب بعدها إلى مجلس قيادة الثورة.

ولكن حسين فهمي لم يكن منضبطاً، وكان يعيش حياته أقرب إلى حياة الفنانين ما أدى إلى أن يبحث عبد الناصر عن «الانضباط» عند آخرين.

وحتى لا ننسى فهي موهبة هيكل الأولى، «الانضباط» حد الصرامة، وهو يصف لنا كامل الشناوي الكاتب والشاعر الشهير، فيقول إنه «فنان قَلَبَ نواميس الكون، فإذا النهار نوم، وإذا الليل يقظة، ومغامرات، وحكايات لا أول لها ولا آخر..

وكان هيكل يتهمه «بالبوهيمية»، وكان كامل الشناوي يتهم هيكل «بالنظام» أي بالانضباط، ولم يدر أن ما يتهمه به، هو أهم مواهبه التي صنعت ظاهرته فيما بعد.

ونعود إلى الذين كانوا ـ في البداية ـ أسبق من هيكل، لنجد أن أحداً من هؤلاء، وكانوا الأقرب إلى رجل الثورة القوي لم ينجح في اكتساب ثقة عبد الناصر.

« اكتساب الثقة » كانت موهبة هيكل الثانية.

وهي موهبة لا يباريه فيها أحد حسب رأي إحسان عبد القدوس:

- «هيكل كان الصحافي الوحيد الذي كسب ثقة والدتي روزاليوسف فقربته إليها إلى حد كبير».

اكتساب الثقة موهبة متأصلة عند هيكل، وفن يتقن قواعده، وكانت مواهبه الأخرى كثيرة ومتعددة..

تفوق هيكل على ثلاثة كانوا قد سبقوه إلى الاقتراب من كثيرين من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وعرفوهم معرفة وثيقة، إبان سنوات الإعداد لها، وكانوا ثلاثتهم يصادقون عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وصلاح سالم.

تفوق هيكل على إحسان عبد القدوس صاحب معركة «الأسلحة الفاسدة»، وتفوق على أحمد أبو الفتح بكل معاركه حول قوانين «تعبيد الصحافة»، وتفوق على حلمي سلام صاحب الحملة على «فساد إدارة الجيش».

تفوق على الجميع، لأنه بلا شك كان يملك ما لا يملكونه ...

تفوق عليهم، لأنه كان مؤهلاً لهذا التفوق، ولأنه كان موهوباً بالفطرة ليتبوأ تلك المكانة.

-٢-

كان هيكل مجرد صحافي بين صحافيين..

لا هو أشهرهم ولا أخملهم..

ولكنه بالقطع كان من أذكاهم..

وقد صادفه حظه، وصادف هو قدره..

ولم يكن أياً من دعاة النظام السابق مؤهلاً لأن يكون داعية النظام الجديد خاصة لدى الرجل الأول في هذا النظام.

كانت الساحة مليئة بأسماء تتقدم لتنال رضى النظام الجديد ورجله القوي.

مصطفى أمين حاول، ولكن عبد الناصر كان يشك في نواياه، لأنه كان مسموعاً ومقروءاً في نظام ما قبل الثورة.

كان الذين قاموا بثورة يوليو سنة ١٩٥٢ قد طلعوا من المجهول، ولم يكن ليقبلوا التعامل مع هؤلاء الذين كانوا نجوماً في عصر ما قبل الثورة.

وهكذا سقط واحد مثل التابعي..

وتأرجح موقع وموقف مصطفى أمين..

والآخرون جميعاً قصرت مؤهلاتهم عن أن تدفع بهم إلى الموقع الأثير لدى رجل النظام الجديد..

وحده هيكل، دفعته جملة مصادفات إلى حيث يمكنه أن ينفرد بتلك المكانة وذلك المكان..

لم يكن ملوثاً قدر ما كانوا ملوثين..

لم يكن منخرطاً قدر ما كانوا منخرطين..

لم يكن ذا لون سياسي قدر ما كانت لهم ألوان وانحيازات.. واللون السياسي يجذب كما أنه ينفر..

وكان مؤهلاً أكثر من غيره لتقدير وتفهم والتعبير عن أفكار القادم الجديد..

بدا كأنه واحد من القادمين الجدد، سنه قريبة جداً إلى أعمارهم..

يوم الثورة كان عمره حوالي ٢٩ سنة، وهم أكبر بسنوات معدودة، لا تزيد على الخمس والست سنوات.

كان معهم من نفس الجيل، من نفس الطبقة، الطبقة الوسطى، من الشرائح الدنيا للطبقة الوسطى..

كانوا تواقين لصناعة مجد الأمة.. ولتخليد أسمائهم في التاريخ..

وكان تواقاً لصناعة مجده وتخليد اسمه في التاريخ..

لم يكن مثلهم ثورياً..

وإن كان مثلهم آملاً في عهد جديد يتيح له ولطبقته ما حرمت منه طويلاً.

-٣-

من حسن حظ جمال عبد الناصر أنه وجد واحداً مثل هيكل بالقرب منه..

ومن حسن حظه أيضاً أنه وجد مفسراً ومعبراً عن سياسته بهذه الروعة التي وجدها في هيكل الكاتب والصحافي..

كان عبد الناصر فوق قمة الهرم، في أعرق سلطة دولة في العالم، وهناك فوق تلك القمة لا أحد غير العزلة والوحدة، ولا شيء غير صقيع القمة.. وفي هذه العزلة، وفي تلك الوحدة، وفي ذلك الصقيع يصبح واحد مثل هيكل هدية من السماء..

وقد لامس هيكل هذا الصقيع بيديه، وكتب عن ذلك مرة قال:

كنا ليلتها على ظهر باخرة الحرية، في وسط الأدرياتيكى قادمة من يوغوسلافيا، بعد اجتماع بين عبد الناصر وتيتو، وكانت الثورة في العراق قد قامت يوم١٤ يوليو سنة ١٩٥٨، وفى وسط طريق العودة، ونحن بعد في الأدرياتيكى، جاءت الأنباء بحشود الأسطول الأمريكي السادس في البحر الأبيض وبالإنزال الأمريكي على شاطئ لبنان..

وفكر جمال عبد الناصر أن يقطع عودته إلى الإسكندرية، وفكر في وسيلة يطير بها إلى موسكو يتباحث مع القادة السوفييت في التطورات الجديدة، لكي يستطيع تقدير موقفه بجلاء ويقين، قبل أن يعود إلى منطقة الشرق الأوسط، والعواصف المتحفزة للهبوب عليها.

ودعانا إلى مكتبه على ظهر الباخرة الحرية: الدكتور محمود فوزي وأنا، ثم طلب رأينا فى فكرته بأن يطير إلى الاتحاد السوفيتي، وأعطانا ربع ساعة، لكي نعود إليه بجواب.

وخرجنا نفكر معاً، ثم عدنا بعد ربع ساعة، وقال الدكتور فوزي للرئيس:

«إنك وحدك تستطيع أن تجيب على هذا السؤال بتفاعلك الداخلي مع الحوادث، وباتصالك العميق بالجماهير العربية، هذا سؤال يتولى الجواب عليه «إلهام الزعامة»، ولا يتولى الجواب عليه «حساب المنطق»، قرر بإحساسك ماذا تريد؟ ، وما تقرره سوف يكون الصواب»، وأصغى الرئيس جمال عبد الناصر في سكون، ثم كان قراره وحده بالسفر.

وكان تعليق هيكل: «أحسست بالوحدة المروعة عند القمة».

أحس بالصقيع الذي يعانيه من هم فوق القمة..

ولعلها لم تكن المرة الأولى التي يلمس تلك البرودة عن قرب، ولكنها بالنسبة لنا تدل على وعيه المبكر بما يعانيه صاحب القرار من وحدة وعزلة، ومسؤولية، وأمانة ناءت بحملها الجبال..

ولاشك عندنا أن وعي هيكل المبكر بهذه الحالة جعله يرسم لنفسه دوراً إلى جانب الرئيس، دور يكون مفيداً فيه، بأكثر ما يكون مجرد عالة على صاحب القرار.

-٤-

كان هيكل مؤهلاً لكي يقوم بأكثر من دور، فهو مثقف وشخصية عصرية، وإذا أنت قارنت بينه وبين الذين يحيطون بعبد الناصر من شخصيات معتمة، أو مجرد موظفين ومنفذين لسياساته، لن تكون المقارنة إلا لمصلحة شخص مثل هيكل..

ويجوز القول بأن هيكل كان جليس الرئيس ونديمه، ولكن بشكل عصري، وربما بطبيعة مختلفة تفرضها طبيعة الأشخاص، وبدور مختلف تفرضه وقائع العصر.

ولا شك أن جمال عبد الناصر وجد في هيكل الأسلوب الرائع، والبراعة في الصياغة، وقد كان فعلاً أبرع الكتاب وأجزلهم، وأكثرهم جاذبية، وكان صاحب لغة صحافية أدبية سائغة، وسهلة، وممتعة، يقرأها الجميع بشغف الحريص على أن يستزيد..

كفاءة هيكل، ووطنيته، وعروبته، كانت كلها جواز مروره إلى عقل وقلب عبد الناصر، ولا شك أن الحصول على ثقة رجل مثل جمال عبد الناصر، وفي الموقع الذي كان يملؤه طوال حكمه، كان يحتاج إلى كفاءة شخصية، وذكاء سياسي من واحد مثل هيكل..

وقد امتلكهما بامتياز..

وهيكل هو الذي استطاع أن يحول « الأهرام » من جريدة هي بعض ميراث الاستعمار، كان العنكبوت يعشش فيها، إلى مؤسسة عصرية، وإلى جريدة تتحدث باسم الثورة، وجند فيها طاقم من أبرع الصحافيين، واستقدم إليها جوقة من كبار الكتاب، وجعلها الجريدة الأولى في مصر، والوطن العربي، وارتفع بها لكي تكون واحدة من خمس جرائد في العالم، تقرأ لكي يعرف العالم ما يحدث في مصر.

وهو يفعل ذلك كان يبني اسمه ومجده الصحافي، وفي الوقت نفسه يخدم عبد الناصر ونظامه..

ولا يستطيع منصف أن يقول ـ مطمئناً ـ أن هيكل مجرد « صنيعة عبد الناصر »..

ولا يستطيع أحد أن يغفل دور « العلاقة » مع عبد الناصر في صناعة هيكل الظاهرة الصحافية والسياسية والفكرية..

لا هو صنيعة أحد، فقد كان نجمه الصحافي قد بدأ يلمع في الأفق وقت قامت ثورة يوليو، وكان قبلها بشهر قد عين رئيساً لتحرير مجلة « آخر ساعة » التي رأس تحريرها من قبله أستاذه وصاحبها الأول محمد التابعي.

ولا هو ينكر دور علاقته مع عبد الناصر في صناعة ظاهرته..

هو مِن صنع نفسه، مِن صنع قدراته، ومواهبه، وجهوده التي لم تنقطع عن تنمية هذه القدرات، وصقل تلك المواهب.

وهو من صنع ظروف أملت وجوده، فكان ملائماً لها بما له، وبما عليه، وإن لم يكن موجوداً هناك لحظة أهلته تلك الظروف لموقعه من الرئيس، لخلقت تلك الظروف رجلها المناسب.

وعلاقة هيكل بعبد الناصر ليست فريدة في بابها، فالعقاد كان إلى جوار سعد زغلول هو « الكاتب الجبار للزعيم الجبار »، يدافع عنه، ويشن الغارات على أعدائه،ويطلق نيران قلمه الجبار عليهم، فتتناثر جثثهم على صفحات الصحف..

وقبله كان عبد الله النديم هو لسان الثورة العرابية البليغ، وترجمان أحمد عرابي ورسوله إلى قلوب الغلابة، وكان صنو زعيمه بسيطاً وسيء الحظ..

وكان أستاذ هيكل الكاتب الشهير محمد التابعي هو واسطة مصطفى النحاس إلى الناس، حارب إلى جواره بالمانشيت، والخبر، والمقال القصير الرشيق، والتعليق الساخر أيضاً..

ذلك أن القيادة أو الزعامة تحتاج ـ بالضرورة ـ إلى لسان حال يعبر عنها، ينقل أفكارها بالشكل المناسب إلى الجماهير.

ـ٥ـ

صحيح أن هيكل توحد بالسلطة زمن جمال عبد الناصر، حتى أصبح اللسان البليغ في التعبير عن أفكار الزعيم، وأصبحت مقالاته مقروءة ومؤثرة، وأدى مهمته على خير وجه، وعبر عن أفكار الرئيس بصورة كان يقول عنها عبد الناصر:

ـ هذا بالضبط ما كنت أريد أن أقوله..

كانت أفكار عبد الناصر، وبصياغة هيكل..

ذلك أن عبد الناصر كان رئيس دولة مثقف، وكان هيكل أكثر اقتناعاً بأفكار عبد الناصر، كل هذا الجيل كانت الثقافة عنده مسألة وطنية، ومازال هيكل حتى الآن مقتنع بأفكار عبد الناصر..

واحتواء سلطة عبد الناصر لهيكل كانت عن قناعة منه..

والأستاذ كامل زهيري له كلمة مشهورة تقول إنه«ليس بالضرورة أن يكون من يؤذن من خارج القلعة، أفضل ممن يؤذن من داخلها، وليس بالضرورة أن من هم داخل القلعة عملاء، وأن من هم خارجها ثوار».

هذا، ويشير زهيري إلى أن سلالات من المثقفين والكتاب حاولت التعامل مع

التناقض بين سلطان الكلمة، وكلمة السلطان كلٌ بطريقته، وأن كثيرين كانوا قادرين على أن يؤذنوا من داخل القلعة، وقادرين على أن يكونوا مؤثرين، يفعلون ذلك وهم يعرفون الحدود بين المفكر والحاكم، وكما نجح عبد الله النديم في أن يكون لسان الثورة العرابية من خارج القلعة، كان هناك على مبارك الذي ولي الوزارة، وكان له تأثير إيجابي كبير على الحياة السياسية والثقافية في مصر، ومثقف كبير مثل طه حسين قبل الوزارة بشرط مجانية التعليم.

ويطالبنا الكاتب الكبير كامل زهيري بألا نقيم وزناً لهذه الثنائية، إلا بقدر ما تفرض الأمور، فليس كل من مع السلطة ضد الفكر، وليس كل من مع الفكر ضد السلطة، وهي ليست مناظرة بين السيف والقلم، وليس كل من ضد السلطة بالطبيعة ثوري، كما أن كل من مع السلطة ليس بالضرورة رجعي.

....

....

والحقيقة أن عبد الناصر وجد في هيكل الرجل القادر على أن يصوغ أفكاره ويفسرها.

لم تكن الأفكار، أفكار هيكل راح عبد الناصر يحققها، ولكنها كانت أفكار عبد الناصر راح هيكل يكتبها، ويصوغها الصياغة الملائمة..

هي أفكار عبد الناصر بصياغة هيكل.

لا ننكر دور « الصائغ »، ولكننا نكتفي له بهذه الحدود..

لا يتعداها إدعاءاً..

ولا يتنازل عنها تواضعاً..

ويؤكد محمد فائق وزير الإعلام الأسبق أن هيكل بالنسبة لعبد الناصر كان معبراً جيداً عن أفكاره، ولذلك كان يطلعه على تفاصيل الصورة لكي يعبر عنها بشكل أفضل، ومن هنا سبب إطلاع هيكل على الأوراق، وحتى على ما يفكر فيه عبد الناصر.

كنا نجلس قبل كتابة خطاب لعبد الناصر وأقول: إن المطلوب أن نركز على أننا من أفريقيا، ولم نأت من الخارج، وأننا أبناء قارة واحدة، وكان الحديث يجري بيني وبين عبد الناصر في حضور هيكل الذي يسجل نقاطاً فقط، ولم يكن يشارك في الحديث، ويخرج ساعتين ويرجع، ليقرأ علينا خطاباً جميلاً في صياغته، وأجمل إخراجاً للأفكار التي طلبنا التركيز عليها، فيقول: النيل يجري من هنا، ويعطي المسألة عمقاً تاريخياً، ونراجع الخطاب، نضيف، أو نحذف، ولكننا نجد أنه قد صاغه في أحسن صورة ممكنة.

....

....

كل ما كتبه هيكل كان مقتنعاً به، ويمكن القول بأنه لم يكتب عن أشياء لم يقتنع بها، ولذلك كان صادقاً فيما كتب، لأنه لا يمكن أن يصل أي صحافي إلى المكانة التي وصل إليها هيكل، بدون أن يكون صادقاً فيما يكتب، وكتب كثيراً مختلفاً مع بعض ما يحدث، وكانت هناك مسافة بينه وبين التنظيم السياسي، وكتب حول ذلك كثيراً..

وهناك صحافيين أعطوا الفرصة نفسها التي أعطيت لهيكل: وكان من بين هؤلاء مصطفى أمين، ولكن انتهى به الحال إلى ما هو معروف، وأقول باطمئنان وعن ثقة أن كفاءة هيكل هي التي فرضت نفسها، كفاءته أولاً ثم حسن تعبيره عن عبد الناصر، ولا شك أنه كان أكثر الذين أعطوا هذه الفرصة تميزاً، وكان أكثرهم إخلاصاً لعبد الناصر.

-٦-

الذين يقولون أن مقالات محمد حسنين هيكل لم تكن إلا تعبيراً عن رأي عبد الناصر شخصياً، أو هي بمثابة مجس يتعرف من خلاله على حقيقة نبض المجتمع، وردود الفعل فيه، يسيئون إلى حقيقة العلاقة بين هيكل وعبد الناصر، فلا هيكل يقبل لنفسه أن يكون في هذا الموضع، ولا نظن أنه كان يمكن أن يقبل على نفسه أن

تنحدر به العلاقة إلى هذا الموقع.

كما أن مثل هذا القول لا يفهم حقيقة الدور الذي كان هيكل يقوم به باقتدار إلى جوار الرئيس، وهو في كل الأحوال لا يتواضع إلى حد الأداة التي تكتب ما يملى عليها، أو التي تكتب ما يصلح لأن يكون مجساً لمعرفة نبض الناس..

والحقيقة التي عليها مائة إثبات أن عبد الناصر لم يكن يقرأ ما يكتبه هيكل، وكان يقرأه مثل ما يقرأه الآخرون..

أكثر من ذلك أن بعض ما كان هيكل يكتبه لم يكن يعجب عبد الناصر.. وهذا لا ينتقص من قدر هيكل ولا مكانته..

والوقائع أكثر من أن تحصى..

بعضها يؤكد أن الرئيس لم يكن يقرأ ما كان يكتبه هيكل قبل نشره..

وبعضها يؤكد أن الرئيس لم يكن يعجبه بعض ما يكتبه هيكل..

وعبد الناصر نفسه نفى..

وهيكل بدوره نفى..

وشهادة الكثيرين أكدت ما نفاه كلاهما..

كان هيكل يكتب من موقع أنه في «صورة ما يحدث»، ولم تكن كتاباته من وحي جمال عبد الناصر ولا هي كانت بالونات اختبار يطلقها الرئيس من أجل التعرف على حقيقة الرأي العام من حوله، وهناك أكثر من قصة كلها تؤكد أن عبد الناصر كان يقرأ مع القراء مقال هيكل بعد نشره، ومن الجريدة مباشرة.

وطبيعي أن ينفي هيكل، ما قيل عن أنه كان يجلس مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قبل ظهور مقاله الأسبوعي في الأهرام (بصراحة)، أو أنه كان يجري اتصال بينهما لإطلاع الرئيس على ما يكتبه..

وطبيعي كذلك أن يؤكد أن عبد الناصر لم يكن يعلم شيئاً عما يكتبه، ويقول في حوار مع مجلة (نصف الدنيا) القاهرية:

ـ «كان بيننا اتفاق غير مكتوب على ذلك، ولعل هذا سبب المشاكل فيما بعد بيني وبين الرئيس السادات.».

ذلك أن السادات كان يريد من هيكل المهمة التي لم يكن يقوم بها مع عبد الناصر، الذي لم يكن يناقشه في ما يكتب، فهيكل كان يعرف الصورة، ويعبر عنها، هكذا كان الأمر بكل بساطة.

-٧-

شفيق الحوت المفكر الفلسطيني الكبير يقدم شهادة تؤكد المعنى نفسه، على لسان عبد الناصر فيقول:

«أول مرة هاجمت فيها محمد حسنين هيكل كانت أمام عبد الناصر، لم يكن هيكل حاضراً، ولم أكن أعرفه شخصياً حتى ذلك الوقت، وقلت لعبد الناصر:

- سيادة الرئيس نريد أن نعرف إجابة سؤال يحيرنا:

هل هيكل يمثلك؟، نحن برأينا أنه أمريكاني..

يقول الحوت وهو يضحك:

كنت شاباً ومتهوراً، فطرحت هذا السؤال، بهذه الطريقة، فسألني عبد الناصر: تقول «نحن برأينا» فمن أنتم؟

ثم أضاف: تقصد شلة «مطعم فيصل»[1] وتابع عبد الناصر:

- لاشك أن هيكل مستفيد من قربه مني وهو مطلع، ولكن ما يكتبه يمثله هو وليس أنا، وسأقول لك الدليل على ذلك..

دليلي على أن هيكل يعبر عن نفسه هو أنك مرة رددت عليه، وأنا قلت لهيكل: «شفيق معه حق»[2].

(١)مطعم لبناني يقع مقابل الجامعة الأمريكية في رأس بيروت، يتجمع فيه مفكرون ومثقفون ومستغتربو العرب.

(٢)يقول شفيق الحوت: قبل الانفصال مع سوريا، كان هيكل كتب مقالاً عنوانه: «نحن وحدنا في المعركة»، فأنا رددت عليه في مجلة «الحوادث» في بيروت بعنوان «لا لستم وحدكم في المعركة»، وهذا دليل على مدى اطلاع الرئيس عبد الناصر على الصحف اللبنانية».

ثم سألني الرئيس عبد الناصر: على فكرة أنت بتعرف هيكل؟، فأجبته: لا، فقال: لماذا لا تتعارفوا؟، الحق عليه، هو مقصر تجاهك، لأنك في مصر وضيفنا».

وفعلاً بعد يوم أو يومين، يرن جرس الهاتف في غرفتي، ويكون الأخ هيكل على الخط، ثم تعارفنا إلى بعضنا البعض، وبعد ذلك صارت لقاءاتي بالرئيس عبد الناصر تتم عبر محمد حسنين هيكل.

هيكل نفسه يحكي إحدى تلك القصص في حوار له مع مفيد فوزي[1] فيقول:

« أذكر أني عدت من رحلة في أوروبا عام ١٩٦٤، وكتبت مقالات بعنوان «رحلة إلى شواطئ مجهولة» وكتبت عن عدم الانحياز، فذهب سفير الهند وقابل الرئيس عبد الناصر وقال له:

– هل هناك تغيير في مفهومكم لعدم الانحياز؟

قال له:

– لماذا؟

فقال السفير الهندي:

– هيكل كتب مقالة يلمح فيها إلى هذا التغيير ..

وقال عبد الناصر:

– والله؟ ... لم أقرأها...

ـ٨ـ

قصة أخرى يحكيها جون بادو السفير الأمريكي في القاهرة، والذي كان قريب الصلة من عبد الناصر، لحبه لمصر وتاريخها وحضارتها، والقصة لا تدل فقط على أن عبد الناصر لم يكن يوحي إلى هيكل ما يكتبه، بل أنه كان يرى بعض ما يكتبه مجرد « كلام فاضي »..

---

(١) نشر بمجلة صباح الخير بتاريخ ٢٩ يوليو سنة ١٩٧٣.

نبدأ رواية القصة من أولها، لأنها تعطينا أكثر من دلالة على علاقة عبد الناصر بهيكل:

عندما انتخب الرئيس الأمريكي جون كينيدي أراد أن يحسن أداء سفارات بلده في أكثر من مكان بالعالم، ورأى أن يجري تعيين سفراء يفهمون البلاد التي يمثلون الولايات المتحدة فيها، وعلى هذا الأساس قرر تسمية جون بادو سفيراً في القاهرة.

وجون بادو كان عميداً سابقاً للجامعة الأمريكية بالعاصمة المصرية التي ظل يعمل بها، ويعيش فيها لمدة ٣٥ سنة، وتتلمذ على يديه بعض المسئولين المصريين في حكومة عبد الناصر أثناء دراستهم بالجامعة الأمريكية.

وكان من بين هؤلاء علي صبري وأخوه حسين ذو الفقار صبري.

وكان لإجادة جون بادو اللغة العربية، التي يتحدثها بطلاقة، دور كبير في تنمية صداقاته داخل مصر، طوال فترة وجوده بها، وزاد ذلك من تعرفه على الأحوال العامة في مصر، بعدما أصبح سفيراً بها لبلاده، وكانت أهم عواصم المنطقة تحت حكم الرئيس عبد الناصر.

اقترب بادو من عبد الناصر، الذي أصبح صديقه على حد وصف السفير الأمريكي نفسه، وإلى الدرجة التي أغاظت السفير السوفيتي في القاهرة، ما جعله يثير المسألة مع عبد الناصر، وقد أفهمه الرئيس بدوره أن السفير الأمريكي يعرف ويتقن اللغة العربية، التي لا يعرف السفير السوفيتي منها حرفاً واحداً، وقال له : إن معظم المقابلة مع السفير الأمريكي تتطرق إلى « دردشات » عامة، وأنها لم تكن بالضرورة ذات طبيعة سياسية أو دبلوماسية.

وهكذا حاز السفير الأمريكي ربما لأول مرة ولآخر مرة ما لم يحز عليه أي سفير غربي آخر وهو صداقة عبد الناصر الشخصية..

وفي كتابه « الشرق الأوسط يعود إلى الذاكرة » ذكر جون بادو هيكل في أكثر من موقع، وهو يؤكد أن هيكل كاتب بارع جداً، وله أسلوبه وحيويته، وأن هناك نكهة خاصة للكتابة العربية الجيدة، ويقول:

- «من الواضح أنه كان رجلاً يحدد له ناصر إطار فكرة ما ويقول له: اذهب واكتبها، وكان هيكل يفعل ذلك، وقد أعجب ناصر بطريقة كتابته، وترتيباً على ذلك، فإن كثيراً من خطب ناصر كتبها هيكل».

وفي رأي جون بادو فإن «هيكل لم يكن محبوباً من جانب العديد من أعضاء حكومة الرئيس عبد الناصر»، وأرجع ذلك جزئياً إلى الغيرة بين رجال السلطة، ولكنه شدد من ناحية أخرى على أن هيكل كان يغالي أحياناً في التأكيد على علاقته بعبد الناصر، ويسعى لاستغلالها، وهو ما كان باعثاً على سخط الآخرين..

ويقول بادو:

-«عندما قدمت إلى مصر، كان محمد حسنين هيكل في أوجه من جوانب متعددة، واستمر الأمر على هذا المنوال طوال الفترة التي كنت فيها هناك، فكل يوم جمعة يظهر مقاله في«الأهرام»، وكان موضوعاً للاهتمام في السفارة، حيث يجري تحليله، ويتم بعث رسالة إلى الولايات المتحدة بشأنه بصورة متكررة.

وعندما أعود بذاكرتي متفحصاً مقالات أهرام الجمعة، فإنها لم تكن تترك انطباعاً قوياً في نفسي، فلم تكن عميقة، كان هيكل في رأيي صنايعياً حاذقاً، أكثر من كونه محللاً عميقاً للشئون السياسية، وفي الواقع فإنه كان صائغاً للتاريخ الآني، يلتقط موقفاً، وبإمكانه دائماً تقريباً أن يجد سابقة تاريخية، ويعلق عليها أحياناً بتفصيل تام.

وفي رأيي أنه من الخطأ للغاية تصور هذا النوع من الربط بين ما يكتبه هيكل، وما إذا كان يمثل بحق تفكير حكومة ناصر، أو ناصر ذاته، وقد تحققت من ذلك أثناء اشتعال أزمة الصواريخ الكوبية، والتي حظيت باهتمام كبير في مصر، وكانت السفارة تقطع إجازتها يوم الجمعة لنعكف على قراءة مقالة بصراحة، ونرسل أهم ما فيها إلى الخارجية الأمريكية، حيث نتوقع أن مقال «بصراحة» تعبر عن آراء عبد الناصر.

نشر هيكل مقالاً طويلاً يوم الجمعة، مع تحليل مطول لأوجه التشابه بين أزمة

الصواريخ الكوبية، وأزمة قناة السويس سنة ١٩٥٦، وفي اليوم التالي لنشر المقال، سنحت لي الفرصة للقاء الرئيس ناصر، وسألني إذا كنت قرأت المقال، فقلت له: نعم لقد قرأته، وأراد ناصر أن يعرف رأيي فيه، وأجبت:

- « حسناً لم يترك لدي انطباعاً قوياً، ولم تبد لي أن هذه المقارنة حقيقية.

فقال وهو يبتسم:

- « أعتقد أنه كلام تافه أو سفاسف[1]، وقد قلت هذا لهيكل، لا يوجد أي تشابه أو تماثل بين الحالة في كوبا، والحالة هنا بأي حال.

يقول السفير:

- من ساعتها أخذت السفارة إجازتها يوم الجمعة.

وإذا رجعنا إلى المقال سنجد أنه بعنوان: « الفرق بين معركة السويس ومعركة كوبا، ملاحظة على السويس على ضوء ما يجرى في البحر الكاريبي »، منشور بتاريخ ٢/ ١١/ ١٩٦٢، وعقد فيه هيكل مقارنة بين ما حدث في العام ١٩٥٦، وما يحدث في أزمة الصواريخ النووية، مؤكداً وجود شبه كبير بين المعركتين، مع وجود فارق ضخم بينهما، في أن مصر كانت تتحدث عن نفسها، بينما كان الاتحاد السوفيتي هو الذي يتحدث عن كوبا.

ثم راح هيكل يقارن بين المعركتين، لكي يثبت في نهاية تحليل وسرد تاريخي طويل، أن لكل من المعركتين ظروفها، وأنه مهما يكن، فإنه معجب بنضال شعب كوبا، ولكنه عاشق لنضال شعب مصر.

وصحيح القول بأن لا تشابه بين الحالتين، فكسر احتكار السلاح الذي أقدمت عليه مصر العام ١٩٥٦، لا يشابه بأي حال من الأحوال نشر صواريخ نووية سوفيتية إلى جوار الحدود الجنوبية لأمريكا، في ظل تصاعد وتيرة الحرب الباردة بين العملاقين النوويين وقتئذ، كما أن الموقفين مختلفان بالطبيعة في علاقة كل

---

(١) Nonsense.

من مصر وكوبا بالاتحاد السوفيتي، وكذلك الموقعين مختلفين بالنسبة إلى أمريكا، فكوبا من حيث الموقع هي الحديقة الخلفية للولايات المتحدة الأمريكية، بينما مصر تبعد عنها عشرات الآلاف من الكيلومترات.

ـ٩ـ

لعل أكثر الذين يهاجمون هيكل هم في الحقيقة يطرونه بأكثر مما يقدحون فيه، فهو عندهم إما شريك لعبد الناصر، أو هو عندهم أصل، وعبد الناصر الظل، وأن علاقتهما هي علاقة الصوت بالصدى، ويعده البعض ـ خاصة من ناقديه ـ واحداً من الذين حكموا مصر، بل يتطاول البعض الآخر عليه وعلى عبد الناصر قبله بالقول: « بأنه كان يحكم عبد الناصر الذي كان يحكم مصر ».

الغريب أن أنور السادات كان هو الموزع الرئيسي للحن رديء الصنعة والأداء، يعزف على جملة موسيقية نشاز، هي أن عبد الناصر رفع هيكل ليكون شريكاً له في الحكم، حيث بحجر واحد يضرب مصداقية الاثنين معاً..

أي إطراء لشخص ـ مهما علا قدره ـ يجعله شريكاً لأهم حاكم عربي في القرن العشرين..

أي إطراء لشخص ـ مهما كانت كفاءته ـ يجعله مشاركاً في صناعة أهم أحداث القرن، في منطقة كانت، وما تزال، هي الأهم استراتيجياً في العالم.

ومثل هذا الحديث يطرح سؤال:

هل كان هيكل «صانع سياسة» في ظل حكم عبد الناصر؟

الإجابة السهلة، وربما المستمدة من كتابات هيكل نفسه، ولا تعتمد على الوقائع الموثقة تقول:

نعم، هيكل صانع سياسة في ظل عبد الناصر..

بل أن واحداً في قيمة وقدر الدكتور جلال أمين الأستاذ بالجامعة الأمريكية يكتب أن هذا الوصف كان معروفاً، ومسلماً به في حياة عبد الناصر، وأنه استمر، وكان بمعنى مختلف فيما بعد عبد الناصر.

والحقيقة غير ذلك.

والشهادات الموثوق بها لعدد لا بأس به من الذين تزاملوا مع هيكل في «خدمة» عبد الناصر، وسياساته، تؤكد أنه وإياهم لا يمكن إطلاق وصف «صانع سياسة» على أيهم.

ووقائع الأمور تشهد أن عهد عبد الناصر كان فيه «صانع سياسة» واحد، وهو أمر لا يتعارض مع وجود «مؤثرات » عدة، و«تأثيرات» متفرقة..

كانت السياسة في زمن عبد الناصر من صنعه، واختلف معه من كانوا يملكون حق الاختلاف معه من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة، وتقاعدوا..

كانت كلما تتطور سياسة عبد الناصر إلى مرحلة جديدة، بأهداف متطورة، كانت بعض القيادات التي شاركت معه في قيادة عملية التغيير في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ تغادر الساحة، تاركة له إكمال الطريق التي رسمها، والسياسات التي صنعها..

وكان هؤلاء وحدهم أصحاب الحق في القول بمشاركة عبد الناصر في صنع السياسة، ولما اختلفوا افترقوا..

واستمر من وافقه منهم على سياسته..

سياسات عبد الناصر التي صنعها، وصاغها، وقاد تحقيقها على أرض الواقع، يمكن إجمالها في عدة محاور:

- أن استقلال مصر، وحريتها يفرضان عليها ألا تنكفئ عن محيطها العربي، بل أن تكون مؤثرة فيه بما يحقق استقلال العرب ويمهد لوحدتهم.

- أن حرية المواطنين تبدأ من تعديل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يرزح تحتها الشعب في أغلبيته.

- أن تعديل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للأغلبية الكاسحة من أبناء الشعب لن يتم في ظل الظروف التي كانت قائمة إلا عن طريق التحول إلى الاشتراكية.

- أن معركة الاستقلال التي تدور في مواجهة الخارج (الاستعمار)، ومعركة البناء والتحول الاشتراكي التي تدور في الداخل (الرجعية وأذناب الاستعمار) لا

يمكن لهما أن ينجحا في تحقيق حرية وطنية إلا في ظل علاقات دولية متوازنة، وسياسة خارجية تتحسب للأعداء، ولا تتنكب للأصدقاء.

من هذه المحاور مجتمعة، أو متفردة، يمكن لأي باحث منصف، ونزيه، وموضوعي، أن يفسر أي قرار، أو إجراء، أو سياسة، اتخذها عبد الناصر.

وهي محاور، وأفكار، وسياسات، توصل إليها عبد الناصر أولاً بأول، بدأت معه من « فكرة مركزية» ضاغطة في ظل الاحتلال الإنجليزي، وهي فكرة «التحرر»، وحلم «الاستقلال»، ثم قادته الأحداث ووقائع ما جرى في الطريق إلى الاستقلال إلى تبني التحول الاشتراكي، والعمل على توحيد العرب في مواجهة المؤامرة الاستعمارية التي تستهدفهم.

وهذه المحاور لا يجد أي باحث في التاريخ مهما جنحت به اللاموضوعية أن لهيكل أو لغيره فضل في «صناعتها » غير فضل جمال عبد الناصر.

-١٠-

قصة لها علاقة بما نقول جرت وقائعها في مارس سنة ١٩٥٥ حيث صحب محمد حسنين هيكل رئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» ومندوب جريدة « الأخبار» الرئيس جمال عبد الناصر إلى مؤتمر «باندونج»، ذلك المؤتمر ذائع الصيت، والذي وضعت فيه قواعد سياسة «عدم الانحياز»، وبرز خلاله الأقطاب الثلاثة الجدد على صعيد السياسة الدولية: جواهر لال نهرو زعيم الهند الكبير، وجوزيف بروز تيتو زعيم يوغسلافيا الفريد، وجمال عبد الناصر زعيم العرب الجديد.

كان عبد الناصر يقود خطا مصر، في تلك الآونة، إلى وضع دولي مميز، وجعلها صانعاً هاماً من صناع السياسة الدولية، وكان في طريقه إلى كسر احتكار توريد السلاح إلى المنطقة العربية، وإلى الاعتراف بالصين الشعبية، في مواجهة السياسة الأمريكية التي ترفض الأمرين معاً (كسر احتكار السلاح، والاعتراف بالصين) ..

في تلك الأثناء، لن تقرأ في تغطية محمد حسنين هيكل لهذا الحدث الكبير إلا تحقيقاً في « الأخبار» منشور يوم ٢٥ مارس ١٩٥٥ بعنوان «تعالى معي إلى باندونج»،

وفيه يسخر هيكل من إندونيسيا، ولاحظ فيه «أن بائعات الهوى يزيفن بطاقات على أنهن طالبات في الجامعة»، ولن تجد كلمة واحدة في التحقيق الصحافي عن المؤتمر الذي أصبح علامة بارزة في العلاقات والسياسات الدولية، والذي ذهب لتغطيته..

ولم يكن ذلك الرأي من هيكل رأيا عارضاً، ولا كان خطأ صغيراً ويمر، ولكن وفي تحقيق ثان يوم ٢٧ مارس سنة ١٩٥٥ ستقرأ لهيكل:

-«لا يعنيني ماذا قرر المؤتمر، ولا كيف كان اتجاه المناقشات فيه، تلك كلها مسائل ثانوية »..

واكتشف هيكل أنه أخطأ التقدير..

وأنه لم يفهم مغزى «باندونج»..

واعترف أنه لم يكن متحمساً، لأن يحضر عبد الناصر بنفسه ذلك المؤتمر، وكتب ينقد نفسه ويقول:

-« إن الاستقبال الكبير الذي لقيه جمال عبد الناصر بعد عودته إلى أرض الوطن بعد مؤتمر باندونج المثير، وبعد الرحلة السريعة فوق بلاد الشرق الأقصى أثبت لي مرة أخرى خطأ كنت قد وقعت فيه، وأعترف بأنني لم أكن متحمساً لسفر جمال عبد الناصر، ولا الاشتراك بنفسه في مؤتمر باندونج »..

وأذكر بأن علاقة هيكل بعبد الناصر في تلك الأثناء كانت قد توثقت بعد انحيازه الكامل إلى جانبه في أزمة مارس سنة ١٩٥٤، قبلها بعام كامل ورهانه عليه وسط تلاطم أمواج أزمة كادت تعصف به وبمجلس الثورة.

-١١-

السؤال موجه إلى الذين يروجون إلى وصف هيكل بأنه «صانع سياسة» في ظل عبد الناصر، متى كان هيكل صانع السياسة في عهد عبد الناصر؟ وما هي القرارات الكبرى التي يمكن أن تصفه بهذا الوصف فيها؟

هل كان لهيكل تأثير يذكر في قيام الثورة؟

عندما كان عبد الناصر يخطط لقيام ثورة تجتاح الملكية وتغير وجه مصر، كان

هيكل يقترح عليه – طبقاً لروايته– أن يذهب ٢٠٠ ضابط يسجلون أسمائهم في سجل التشريفات الملكي تعبيراً عن عدم موافقتهم على حل مجلس إدارة نادي الضباط ، وأسأل:

هل كان لهيكل أي تأثير يذكر في أحداث أزمة مارس سنة ١٩٥٤؟

هل كان له أي تأثير في قرار تأميم قناة السويس؟

هل كان له تأثير في قرار الوحدة المصرية السورية؟

متى كان له تأثير في صناعة السياسة أو الأحداث الكبرى؟

هل كان له تأثير في صدور قرارات يوليو الاشتراكية؟

كان هيكل هناك لحظة تفجر الثورة، واستخدمه جمال عبد الناصر.

وقصارى ما يقوله هو نفسه أنه كان هناك..

كان هناك لحظة تأميم قناة السويس، وكان مأخوذاً من جرأة الفكرة وقوة التصميم.

وأكثر ما قاله تجرؤاً على عبد الناصر أنه طرأ له بعض ما فكر فيه عبد الناصر.

كان هناك في كل وقت، مقرباً من عبد الناصر، ولم يفرض نفسه عليه، باختيار عبد الناصر ليكون « شاهداً » قريباً من الأحداث، أراد لنفسه هذا الدور، وأراده له عبد الناصر « عله يجلس في يوم من الأيام يكتب قصة ما حدث ».

لم يكن هيكل ـ بيقين ـ شريكاً، ولا أصلاً، ولا صوتاً.

ربما كان صدى الصوت..

ببساطة لأن طرف العلاقة الآخر هو جمال عبد الناصر، الذي يتحول الجميع معه إلى ظلال وأصداء، وفي أحسن الأحوال صوراً باهتة، أو مجرد منفذين..

هيكل ـ في نظرنا ـ كان أقل من شريك،« وأكثر من «شاهد»، إذا جاز لنا أن نعبر بدقة عن واقع الحال كما كان، لا كما يتمنى هذا أو ذاك.

وفي رأينا أن « الضعف الإنساني » كان يجذب هيكل أحياناً إلى رواية وقائع ما جرى واضعاً نفسه في منطقة « المشاركة »، وفي أحيان أخرى كانت رواياته تبتعد به

إلى منطقة « المشاهدة»..

كان « مشاهداً » حين تكون المشاركة محسوبة عليه..

وكان «مشاركاً » حين لا تكون «المشاهدة » محسوبة له..

كان ـ في بعض الأحيان ـ لا يريد أن يجري حسابه على مشاركته..

ويريد قصر الحساب على كونه معبر عما يحدث..

يعني أن يقل حسابه إلى مستوى صحافي شاهد، ولا يرتفع إلى كونه شخص مارس وشارك.

وفي جميع الأحوال ظل هيكل ـ بذكاء ـ يصر على كونه منذ البداية وحتى النهاية «جورنالجي»..

ويقول لي أحد القيادات البارزة في زمن عبد الناصر أن هيكل لم يكن بأي حال سياسي، أو صانع سياسة، وأنت إذ تقرأ له تجد انطباعاً عاماً بأن دوره السياسي كبير، وأنه رجل Policy Maker، وأستطيع أن أؤكد لك أنه لم يكن هذا بالمرة.

لم يكن هيكل، ولم يدع هو، ولا ادعى أحد غيره ـ أنه مهندس اللحظات الفاصلة في عمر الثورة، وفي حياة عبد الناصر، كما كان الحال في لحظة اختيار السادات خلفاً لعبد الناصر، وهو دور اعترف به السادات لهيكل في البداية، ثم عاد لينكره بعد ذلك.

بعبارة أخرى، لو أننا فرضنا (والفرض هنا نظري لتوضيح ما نريد) أن هيكل محذوف من معادلة قيام ثورة يوليو، ثم حسم الزعامة لجمال عبد الناصر على نحو ما هو معروف في مسيرتها بعد ذلك، هل كانت المعادلة التاريخية التي أنتجت بروز اسم ودور عبد الناصر قد تأثرت بهذا الحذف؟

نكاد نجزم بالقول: لا ...

أما إذا حذفنا هيكل من لحظة بدء التفكير في تنصيب السادات، ومن ثم حسم المسألة لمصلحته كلياً بعد ذلك في مايو سنة ١٩٧١، هل كانت النتائج ستختلف؟

نكاد نجزم بالقول: نعم.

والأحداث والوقائع والحوادث كلها شاهدة على ما نقول.

-١٢-

كان هيكل لا ينظر إلى عبد الناصر بصفته، ولكنه ظل ينظر إلى ما يمثله، وإلى ما يقوم به من دور «كنت مؤمناً بأن جمال عبد الناصر ليس الحكم أو السلطة، وإنما هو التجسيد الحي للوطنية المصرية وللقومية العربية.»

وهو أمر لا شك يعطي لطبيعة العلاقة بينهما مذاقاً مختلفاً، ووضعية مغايرة.

صحافي يجد نفسه في لحظة تاريخية نادرة، مع شخصية زعامية نادرة، ووسط أمواج حركة التاريخ وفي القلب منها، يعيش عنفوانها، ويلمس بيديه ويرى بعينيه، ويسمع بأذنيه تدافع حركتها.

لم يقترب من سلطة الزعيم لكي يحقق لنفسه، أو لأحد من أقاربه، أو معارفه، من وراء ذلك مغانم، لم يكن ذلك هدفه بالتأكيد، ولم يكن قانون سلطة الزعيم الاستثنائي يقبل منه، أو من غيره، أن يكون ذلك هدفه، ثم يقربه إليه، كان القانون الذي يحكم العلاقة أكبر من منافع شخصية، كانت متعة الاقتراب من الشخص، أنه هو الذي تتجسد فيه الوطنية المصرية في مرحلة من أهم مراحل التاريخ.

وكانت متعة الاقتراب من الزعيم الذي تتمثل فيه كل أماني التقدم الاجتماعي، وآمال الأمة العربية، متعة لا يدانيها متعة أخرى.

كان هيكل يخدم عبد الناصر..

وكان مفيداً له..

ومن هنا اقترب هيكل وقربه عبد الناصر، لم يكن عبد الناصر يحتاج من الصحافة «صناع سياسة»، ولكن كان في حاجة إلى مفسرين لسياسته التي يصيغها، كان يحتاج إلى معبر عن هذه السياسة يؤمن بها، ويتقن التعبير عنها، وكانت مواهب هيكل توفر الشروط المطلوبة.



صداقة وحوار
أم كاتب وزعيم

◆◆◆



-١-

لكي تستطيع أن تحاور هيكل لابد أن تسترد «عقلك» الذي لابد أنه أمسك بـه، ولعب فيه، لابد أن تقفز من فوق الأسوار التي سور بها أفكارك..

وإذا نجحت في أن تتغلب على حسن التعبير، وألا تأسرك الأفكار التي تبدو مرتبة، وإذا استطعت أن تفلت من براعة الأسلوب، وإذا نجوت من قدرته الفذة على الإيغال إليك برفق، يمكنك بعد ذلك أن تناقشه، تحاوره، وقد تختلف معه، وأكثر من ذلك قد تكتشف ضعفاً في الرؤية، أو قد تكتشف تناقضاً في الرواية..

قبل أن تسترد عقلك، لن تستطيع إلا أن تبقى في منطقة الإعجاب، كواحد من جمهور يجذبه ضوء النجم الساطع، ويمنع عنه أن يرى نور الحقيقة.

وأعترف أنني ما استطعت أن أغادر أسوار هيكل إلا بصعوبة، وأقر أنني أغالب نفسي طويلاً أمام ثغرات تكشفت لي في رواية هيكل، ولرؤيته لبعض الأحداث والوقائع.

وأكثر ما كنت أحسه، وأكاد أمسك به باليد، أن المواقع التي شابها الكثير من التناقض في روايات هيكل، هي تلك المواقع التي خاض فيها في الحديث عن الذات، إلى المدى الذي يجعله يترك وراءه ثغرات كبيرة، تصعب على المعالجة الموضوعية، بعد أن يكون قد مد الحديث عن الذات طويلاً وبعيداً..

والباحث المدقق في مقالات هيكل، وحواراته، وكتبه، يمكنه أن يكتشف ذلك بوضوح، ولكن بعد معاناة، وأي معاناة..

وأكاد أجازف بالقول أن هيكل راح يستجيب ـ بالضعف الإنساني ـ إلى أفكار بعض الذين تحدثوا عن دوره إلى جانب جمال عبد الناصر بالتضخيم في دوره وبالتقزيم لدور عبد الناصر..

بعض هؤلاء يختصرون علاقة هيكل بجمال عبد الناصر في مقولات ساذجة، فضلاً عن كونها تسطيحاً متعمداً، وتدخل ضمن حملات الهجوم على الرجلين معاً؛ القائد الفذ، والكاتب الاستثنائي.

بعض هؤلاء قال: إن عبد الناصر كان هو الصدى، لأن هيكل كان هو الصوت، وأنه كان الظل لأن هيكل كان هو الضوء..

وبعضهم قال: إن هيكل لم يكن يمد يده ليأخذ من جيب عبد الناصر الأخبار، ولكن الصحيح أن عبد الناصر هو الذي كان يمد رأسه إلى رأس هيكل لكي يأخذ منه الأفكار..

وبعضهم انحط بقدر وبمقدرة هيكل إلى درجة تحوله إلى مجرد بوق للحاكم، يتبعه كظله، ويدافع عنه ظالماً أو مظلوماً، ويزين إليه كل الشرور...

هؤلاء البعض رفعوا هيكل إلى موقع وتأثير «الرجل الثاني» في نظام عبد الناصر.

وبعض هؤلاء رفعوه إلى موقع « الشريك » في الحكم زمن عبد الناصر ومنهم السادات نفسه..

ومن أسفٍ أن مثل هذه الآراء قيلت، وكتبت، وجرت بها أحبار، فوق سطور، سودت بها صفحات، في جرائد أو في كتب..

لم يكن عبد الناصر مجرد حاكم يريد بوقاً، وكان طالبو الدور ينتظرون إشارة من إصبع يده الصغير، لكي يهرعوا إلى موقع البوق الذي لا يتقنون غيره..

ولم يكن هيكل مجرد صحافي صغير يحتكر الأخبار من مصدرها الأول..

ولم تكن العلاقة بينهما على مثل صورة ذلك الاختصار المخل..

كانت العلاقة بين هيكل وعبد الناصر أكبر من إجمالها، وأوسع من اختصارها، وأشمل من قصرها على أحد جوانبها..

ووقائع ما جرى تدل على ما نقول.

-٢-

وقد نلتمس لهؤلاء وهؤلاء بعض العذر، فهيكل نفسه تعددت أقواله عن علاقته بعبد الناصر؛ واختلفت من فترة إلى أخرى ، فنجده يقول بعد أقل من ستة أشهر على رحيله :

- في الفترة من ١٨ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، كان لي الحظ

والشرف بملازمة جمال عبد الناصر، والحياة بالقرب منه، ومتابعته على المسرح، ووراء كواليسه بغير انقطاع، وكانت إلى جانب ذلك سنوات حوار لم يتوقف معه في كل مكان وفي كل شيء » ..

كان له الحظ، وكان له الشرف، أن لازم عبد الناصر، وعاش بالقرب منه وتابعه على المسرح (بطلاً)، ووراء الكواليس طوال الفترة من يوليو سنة ١٩٥٢ إلى سبتمبر سنة ١٩٧٠.

هكذا قال في أعقاب الرحيل.

وبعد ذلك، ومع مرور الوقت بدأ يتحدث بنغمة أخرى، وربما بلغة مختلفة يقول ـ مثلاً ـ :

- « جمال عبد الناصر صديق أعتز به جداً، وأحترمه جداً، وأقدره إلى أبعد مدى، وأقدر أيامي معه، وعلاقتنا لم تنشأ بأني عرفته كصحافي، ولا أني عرضت عليه شيئاً، ولكن حين قامت الثورة، وبدأ هو دوره العام، كنت أقرب الناس إليه، بالحوار وبالمشاركة في الحوار »..

كان هيكل قد بدأ حديثه عن علاقته مع عبد الناصر بعد رحيله مباشرة حذراً، وكان ساعتئذ أقرب إلى الحقيقة منه إلى الادعاء، وانطلق بعدها من الصداقة إلى علاقة حوار دائم، ثم إلى أنني اختلفت معه كثيراً، ثم بعدها :«أعتقد أنني أثرت فيه، بقدر ما تأثرت به، وفي الوقت نفسه اختلفنا، نعم اختلفنا، لكن عيب أن أذكر ما اختلفنا فيه، حتى لا أدعي بطولة على حساب رجل لم يعد على ظهر الحياة..

وبعد أن تقتنع أنه يحتفظ لنفسه بموضوعات الاختلاف تجده يقول :

- من يقرأ ما كتبته، وهو على قيد الحياة، ويتابع ما حصل، يكتشف أننا اختلفنا في مواضيع كثيرة جداً، مثل قانون تنظيم الصحافة، أنا في مؤتمر صحافي قلت : إنني ضد القانون..

ليس هذا فقط، بل يلفت نظرك إلى شيء غريب فيقول :

«وتلاحظ ملحوظة هامة، وهي أن كل الصحافيين الذين اعتقلوا لأسباب

متعلقة بالمهنة كانوا من الأهرام: لطفي الخولي، وأحمد نافع، وحمدي فؤاد، وجمال العطيفي، مثلاً.. .»..

اللغة اختلفت .. والأنا كبرت.. والعلاقة بين كاتب صحافي، ورئيس دولة أصبحت علاقة بين أنداد...وفي حوار آخر ترتفع نبرة الندية فيقول :

– اختلفنا اختلافات كثيرة جداً، بعضها كان شديداً، ولكن كلنا كان يدرك أنها اختلافات أصدقاء، وليست اختلافات أعداء[1].

ويبدو أن المحاور الذي أمامه يعطي ظلالاً تجعله يتمادى أكثر فيقول :

« اختلفنا اختلافات كثيرة جداً، ولك أن تتصور أني على مدى ١٨ عاماً، وهي الفترة التي عاشها جمال عبد الناصر في السلطة كنت أجلس معه – كصديق – محاوراً له طوال هذه الفترة، صحيح لقد دبت خلافات بعضها كان شديداً ولكن كلانا كان يدرك أنها «خلافات أصدقاء» ليست خلافات أعداء، وهناك شيئان كنت حريصاً عليهما، جعلاني أحافظ على هذا التوازن، وأن أقول رأيي لعبد الناصر بلا تردد :

١ – أنني لست طرفاً في صراعات السلطة بمعنى أن جمال عبد الناصر لا يستطيع أن يمنحني أي منصب..

٢ – أنا لم أطلب أي ميزة شخصية لي أو لأحد من أقاربي..

ثم يصل إلى القول :

– أتكلم كمدني (!) وصديق (!) ومن غير عوائق (!)، وأنا وسط مؤسسة فيها أحسن عقول في مصر (!)، وعندما قال لطفي الخولي يوماً أن المثقفين يتحاورون مع عبد الناصر من خلال هيكل كان صادقاً (!)

-٣-

وأول ما نلاحظه على هذه الأقوال من «الأستاذ» أنه يريد أن يقول :

---

(١)كتاب الآخر لمفيد فوزي من ص ٤٥ إلى ص ٥٠، طبعة هيئة الكتاب.

إن سبب صراحته فيما يسميه «حواره» مع عبد الناصر، ليس هو ولاؤه للرجل، ولا لصدقه معه، ولكن بسبب أنه لا يريد منه شيئاً، لأنه ليس طرفاً في الصراع على السلطة، وأن عبد الناصر لا يستطيع أن يمنحه أي منصب..

وهو أمر غريب أن ينسى هيكل أن منصبي رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة الأهرام، ثم الجمع بينهما وبين رئاسة مجلس إدارة الأخبار في بعض الأوقات كان بقرار من عبد الناصر..

أم أنه قد حصل على تلك المناصب عنوة واقتداراً من الرجل؟

ثم ألم يرحل جمال عبد الناصر، وترك وراءه هيكل وزيراً مع احتفاظه بمنصبيه كرئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير الأهرام؟

هل قل منسوب الصراحة في «حوار» هيكل مع عبد الناصر عندما أصبح وزيراً بقرار من عبد الناصر؟

اتفاق رؤى، ولاء لقائد، صدق في العلاقة، أمانة يؤديها، طبيعة شخصية لا تسمح له بالممالأة، لا شيء من هذا تجده في الأسباب التي يوردها هيكل والتي تقف وراء صراحته مع عبد الناصر.

فقط لأن جمال عبد الناصر لا يملك أن يمنحه أي منصب، ولأنه لم يطلب منه أي ميزة لشخصه، أو لأحد من أقاربه..

ونحن على يقين أن هيكل لم يطلب أي ميزة شخصية لنفسه، ولا لأحد من أقاربه، وعلى يقين أيضاً، من خلال الصورة التي رسمها هيكل نفسه لشخصية جمال عبد الناصر، أن الرئيس لم يكن ليستجيب لأي طلب لهيكل فيه ميزة شخصية له، أو لأي من أقاربه..

ثم قضية أنه « يتكلم كمدني» توحي كأن جمال عبد الناصر رئيس العسكريين في نظامه فقط، أما المدنيين فهو « صديقهم » يعاملهم معاملة خاصة، ويتقبل منهم الصراحة في الحديث معه، بينما العسكريون ممنوعون من الصراحة مع الرئيس العسكري مثلهم باعتباره الأعلى رتبة..

ومثل هذا الحديث من هيكل يدفعنا إلى التساؤل :

ألم يكن في نظام عبد الناصر ومن القريبين إليه مدنيين غير هيكل؟

ولماذا يتصور «الأستاذ» أن صفته المدنية كانت تزكيه عند جمال عبد الناصر بأكثر مما تزكي غيره سواء من المدنيين أو من العسكريين؟

الأكثر غرابة أن يؤيد «الأستاذ » ما قاله فيه لطفي الخولي من أن المثقفين يتحاورون مع عبد الناصر من خلال هيكل..

ذلك أن لطفي الخولي يقصد ـ ضمن ما يقصد ـ أن عبد الناصر اختصر، بقرار منه، المثقفين في شخص هيكل، وهو اتهام يعزل جمال عبد الناصر عن تفاعله اليومي مع المجتمع، ذلك التفاعل الذي كان يتم عبر أجهزة كثيرة وشخصيات متعددة، ودوائر اتصال مختلفة، منها الاتحاد الاشتراكي، ومنها النقابات العمالية، والمهنية، وكثير من كوادر العمل العام، في شتى المجالات ممن كانوا على اتصال مع الرئيس..

ثم اختصار المثقفين في شخص هيكل لا شك فيه كثير من النفاق له من واحد يعمل تحت رئاسته وحمايته المباشرة، وفيه كذلك من جانب هيكل نفسه كثير من «النرجسية»، إن لم نقل الغرور، وكأن الحوار الوحيد في البلد لم يكن يجري إلا عبر هيكل، وهو قول فيه تجرؤ على عبد الناصر، وفيه إهانة وامتهان لعلاقات كثيرة فيها غيره..

ثم القول بأنه وسط مؤسسة فيها أحسن عقول مصر، فيه أيضاً مغالاة ثبت عدم صدقها، ويوحي بأن «الأستاذ» يتحدث عن المؤسسة باعتبارها مركز ثقله في الحوار مع جمال عبد الناصر.

ثم هذا الحديث الفج عن خلافات مع عبد الناصر، هو نوع من القفز من موقع الكاتب المعبر عن رئيس الدولة، إلى موقع « الند »، يختلف مع الرئيس ويتفق، كأننا نتحدث عن رئيسين: واحد للجمهورية، والآخر للأهرام، وليس عن رئيس دولة وقائد بحجم وقيمة ودور جمال عبد الناصر، وكاتب شاءت له الظروف أن يقترب منه، ويعبر عنه..

لا ينكر أحد أن «الأستاذ» كان واحداً من الدائرة المقربة إلى عبد الناصر، ولم يقل واحد من هؤلاء ـ غير هيكل ـ إنه اختلف مع عبد الناصر، أو كان بينهما خلافات كثيرة.

والغريب أن يدعونا هيكل لقراءة ما كتبه في حياة عبد الناصر لكي نتعرف على هذه الخلافات التي أبى أن يخوض في الحديث حولها حتى لا يقال: إنه يدعي بطولة على الأموات.

ثم القول بأنه اختلف على قانون الصحافة، فيه لعب على أوتار النقد الموجه إلى قانون الصحافة، وهو نقد تجاوز حدوده إلى التهجم على عصر عبد الناصر، وكأنه محاولة للتنصل من مساوئ القانون، والحقيقة أنه لم يحدث أن اعترض هيكل علناً على القانون المذكور، بل إنه تناوله أكثر من ثلاث مرات بالتأييد والتفسير، والتبرير..

وكان ذلك أولاً بتاريخ ٢٨ مايو سنة ١٩٦٠ تحت عنوان الصحافة، وفيه قال:

«كيف يمكن أن يخطر على البال أن الضمانات لحرية الصحافة كانت مصونة حين كانت الصحف في ملكية فرد أو أفراد، منهم تخرج خطوط التوجيه، وإليهم يدخل فائض الربح، ثم يكون الخوف على هذه الضمانات أن تقل، وقد أصبحت الملكية المعنوية في الصحف للشعب، كما أن الملكية المادية قد انتقلت من فرد أو أكثر، من أصحاب الصحف، إلى ألف أو أكثر من عمال كل صحيفة وموظفيها ومحرريها وكتابها؟».

ثم كتب بعدها بيومين وفي ١ يونيو سنة ١٩٦٠ تحت عنوان «الصحافة: لماذا يتحتم أن يملك الشعب وسائل التوجيه؟، وفيه قال:

«وأسأل بعد ذلك كله، هل كان يمكن أن تترك وسائل التوجيه، والصحف في مقدمتها، في يد غير يد الشعب؟...

هل كان يمكن أن تترك ليصبح أساس التوجيه فيها هو المصلحة المادية وحدها؟..

هل كان يمكن أن تترك لتظل الاشتراكية شعاراً ليس له صدى من الواقع، وعلماً يرفع أمام الاحتفالات؟..

هل كان يمكن أن تترك لتصبح سيدة المجتمع التي هربت من زوجها أسطورة يتابع الناس أخبارها في لهفة وشوق؟..

هل كان يمكن أن تترك ليصبح شغل الناس الشاغل هو حكايات الليل، وعقاقير الشباب، وجرائم هتك العرض بالرضا أو بالغصب؟..

أم أن وسائل التوجيه يجب أن تكون في يد الشعب، لكي يستطيع أن يوجهها في دفع التطور، وخدمة الحقيقة الكبرى؟»

ثم وبعد يومين آخرين وبمعدل مقال كل ٤٨ ساعة، وبتاريخ ٣ يونيو سنة ١٩٦٠ كتب تحت عنوان «الصحافة لم تؤمم»، وفيه قال:

«لماذا يقال أن القانون الذي صدر بشأن الصحافة أخيراً هو قانون «لتنظيم الصحافة»، ولماذا لا يقال صراحة أنه قانون لتأميم الصحافة؟

جواب - لأن الصحافة لم تؤمم..

نقول ذلك لا تجنباً لكلمة التأميم، أو حذراً منها، فإن كلمة التأميم كلمة لها قيمتها، ولها احترامها، في مجتمع يؤمن بالاشتراكية..

وإنما نقول أن الصحافة لم تؤمم انسجاماً مع الواقع والتزاماً له».

وقد كتب هيكل (٦٠١) مقالاً تحت عنوان «بصراحة» منذ تولى رئاسة تحرير الأهرام وحتى مقاله الأخير قبل رحيل عبد الناصر بعشرة أيام.

وبمراجعة هذه المقالات لن نجد اختلافاً واحداً مع جمال هبد الناصر خلال هذه المقالات، جميع المقالات بلا استثناء لا تحتوي على ما يسميه هيكل «اختلفنا» ..

ليس كل ما كتبه هيكل كان يوافق عليه جمال عبد الناصر، ببساطة لأنه كان يكتب رأيه، ولا يكتب آراء عبد الناصر.. هذا مفهوم.. وهو طبيعي، وما دام يكتب رأيه، وليس رأي عبد الناصر، فلا شك أنك ستجد آراء لهيكل لا يوافق عليها عبد

الناصر، ولكنك لن تجد آراء تختلف مع آراء عبد الناصر، وهنا الفرق..

وهو فارق كبير ودقيق، فهيكل لم يختلف مع آراء لعبد الناصر، ولكن طرح آراء تخصه، قد لا يوافق عليها عبد الناصر.. بل أن عبد الناصر كان يصف بعض ما يكتبه هيكل بأنه مجرد كلام فارغ[1].

والغريب أن هيكل نفسه ـ ولكن في مراحل مبكرة قال:

- «عشت طول عمري صحافي أشتغل في الصحافة من موقف ملتزم، ملتزم بما أراه، وليس التزاماً مسبقاً برؤية حزبية معينة، حتى مع عبد الناصر طرحت أشياء، ولم يكن يوافق عليها.. فعلاً تكلمت عن تحييد أمريكا، ولم يكن هو في هذا الرأي، ولم يكن يعترض على حقي في إبداء ما أشاء من آراء، لأني أتكلم من داخل التجربة، ومن موقف وطني،حتى وإن اختلفت مع رؤيته»..

إذن فالموضوع أنه أعطاه حريته في الكتابة عن آرائه، بل وقال له عبد الناصر:

ـ « ليس لدي اعتراض على ما تكتب، ولن يصيبك أحد بسوء طالما أنا على قيد الحياة، لكن لن أمنع أحداً من الهجوم عليك.. دافع عن نفسك، وعن أفكارك » ..

ـ٤ـ

لست من أنصار أن نأخذ أقوال أعداء الرجلين عبد الناصر وهيكل في العلاقة بينهما، ولا حتى بأقوال هيكل نفسه حول العلاقة، لأن أقواله نفسها تغيرت بتغير الظروف، وساق الروايات التي تضاربت في بعض الأحيان حول أحد جوانب العلاقة بينهما.

تضاربت رواياته لبداية العلاقة ما أعطى لبعض خصومه زخماً في الهجوم عليه.

واختلفت لغة الحديث لدى هيكل عن عبد الناصر من فترة زمنية إلى أخرى، وطوال فترة حكم عبد الناصر لم يحدث ـ ولا مرة واحدة ـ أن تحدث هيكل، أو كتب واصفاً علاقته مع عبد الناصر بأنها علاقة «صداقة»، وهو ما راح يردده بعد

---

(١) يراجع ما قاله بهذا الخصوص جون بادو في كتابه «الشرق الأوسط يعود إلى الذاكرة» وقد سردنا القصة على لسانه في الفصل السابق ص ١٤٦

رحيله، ثم استقر حديثه بعد ذلك عن توصيف العلاقة بأنها «حوار» دام ١٨ عاماً هي الفترة التي عاشها عبد الناصر في السلطة.

وهو «الوصف» الذي رفضه المثقف الفرنسي الكبير أندريه مالرو والذي عمل وزيراً للثقافة مع الرئيس شارل ديجول.

وقد سأل هيكل في حوار بينهما جرى بعد وفاة عبد الناصر بأقل من أربعة أشهر:

-« هل كتبت ما تريد أن تكتبه عن عبد الناصر؟

قلت:

- «لدى أوراق كثيرة ومذكرات بغير نهاية».

قال:

- «لا تنتظر... ابدأ كتابة ما تريده من الآن كاملاً.. ثم تصرف في النشر كما تقتضي الظروف...اكتب كل شيء على الفور، ثم قرر بنفسك ماذا تنشر، ومتى».

وسألته:

- «هل فعلت أنت ذلك؟»

قال:

- «إنني الآن أكتب... سوف أكتب علاقتي بديجول كاملة في جزأين... جزء ينشر الآن، وجزء يبقى لا ينشر حتى أذهب إلى الموت أنا الآخر».

واستطرد:

- «هناك شيء لابد أن نفعله، سوف أفعله أنا فيما يتعلق بديجول، وليتك تستطيع ذلك فيما يتعلق بعبد الناصر.

إننا نستطيع أن نجد «حديثاً» بين شخصية تاريخية وبين كاتب... ولكننا لا نستطيع أن نعثر على «حوار» كامل بين شخصية تاريخية، وبين كاتب».

قلت:

- «هل أستطيع أن ألفت نظرك إلى أنني صحافي...».

قال بسرعة:

- «ليكن... ليكن، ليس هذا هو الموضوع.... لابد أن نترك ما لدينا مادة للتاريخ... وليست تاريخاً كاملاً... وليكن لغيرنا أن يحلل ويقيم، كما قلت لك، هناك أحاديث منشورة بين شخصية تاريخية وبين كاتب، ولكن ليس هناك - فيما أعلم - حوار كامل متصل بينهما»[1].

رفض مالرو أن يقر هيكل على أن «حواراً» يمكن أن ينشأ بين الكاتب أو الصحافي وبين الرئيس، وخاصة إذا كان بحجم ودور وقيمة و«كاريزمية» عبد الناصر في مصر، أو ديجول في فرنسا.

ورفض مالرو ليس فقط أكثر حصافة، وأقل غروراً ولكنه - في الحقيقة ـ أكثر واقعية من محاولات هيكل تصوير العلاقة بين الكاتب وصاحب السلطة بأنها علاقة «صداقة»، و«حوار»، كأنها علاقة بين أطراف متساوية، أو بين أنداد.

ـ٥ـ

ونحن نسأل:

هل كان هيكل صديق عبد الناصر؟

هيكل نفسه يقول:

«إنني خلال الثمانية عشر عاماً الأخيرة حصلت على ما أعتبره أعز وأغلي شيء وهو صداقة جمال عبد الناصر.»، وقال إن علاقتهما كانت علاقة صداقة وحوار..

السؤال وجهته إلى الكثيرين ممن كانوا بالقرب من عبد الناصر..

محمد فائق وزير إعلام عبد الناصر الذي استلم منه هيكل الوزارة وسلمها إليه مرة أخرى، وهو من أكثر الذين يقدرون دور هيكل إلى جوار عبد الناصر أجاب بالصمت أكثر من الكلام، وعندما صمت بدوري منتظراً إجابة قال فائق كأنه يرفض الفكرة:

- ... صديق؟ ... أصل موضوع الصداقة مع رئيس الجمهورية موضوع......

---

(١) بصراحة ـ ١٥ يناير ١٩٧١ - بعنوان «عن عبد الناصر في مناسبة عيد ميلاده».

وصمت من جديد ثم عاد فقال:

-.. كبيرة قوي حكاية صديق.... حوار؟.... آه طبعاً.. لأن عبد الناصر هو الذي أمر أن يطلع هيكل على مجريات الأمور، لأنه اختاره كمعبر عنه، يكتب له أفكاره بطريقة ممتازة، لكنها أفكاره هو، يطلع هيكل عليها، وعلى ملابسات الوضع، كي يستطيع أن يعبر عنها بأفضل صورة، مراعياً تلك الملابسات.

أحد القريبين إلى عبد الناصر[1] كان في دائرة صنع القرار بالقرب من عبد الناصر قالها لي صريحة:

- هيكل دائماً يكبر دوره، ويشعرك أنه هو محور كل ما يحدث، وهو ما لم يكن صحيحاً في ظل عبد الناصر، ولست أظن أنه كان صحيحاً في ظل السادات، وعندي الكثير من الشواهد التي كنت قريباً منها، وهي تعطيني الحق في أن أقول لك ما قلته..

وتوقف محدثي قليلاً ثم وكأنه تذكر شيئاً:

- هيكل يقول لك : إنه قعد مع «الريس» عشر ساعات، وتكون كل المدة التي استغرقتها المقابلة لا تزيد عن عشر دقائق، يخرج بعدها ليكتبها على أنها عشر ساعات.. وسوف تصدق أنها كانت عشر ساعات لأنه يكتبها «كويس» قوي.

سألت:

- إذا وافقنا معك أن «الصداقة» غير واردة في علاقة الرئيس والكاتب، فما هي في رأيك طبيعة العلاقة بينهما؟

قال :ببساطة علاقة رئيس بحجم عبد الناصر مع كاتب بحجم هيكل لا أكثر ولا أقل، هيكل خدم مع عبد الناصر، وكان أحياناً يمثل بالنسبة إلى عبد الناصر «وجهة النظر الأخرى»، أو رأي الذين على الضفة الأخرى، وكنت وأنا مع عبد الناصر نتحدث في موضوعات معينة وقبل أن ننتهي يقول :

---

(١) طلب مني عدم ذكر اسمه، وسمح باستخدام المعلومة كخلفية بدون نسبتها إليه، وتمنى ألا تتغلب الصحافة على الأخلاق، ووعدته.

-« خلينا نشوف رأي الغرب إيه، ويضحك وهو يتصل بهيكل.

وقال:

- لا تنس أن هيكل كان جورنالجي، وشاطر جداً، وكفاءة غير عادية، وعبد الناصر حاول الاعتماد على غيره، مثلاً مصطفى أمين وخانه في النهاية، ولكن هيكل وطني، كان عبد الناصر يعرف أفكاره ذات الاتجاه الغربي أو الأمريكي، وكان ينظر إليه كنافذة يطل من خلالها على الرأي الآخر لدى الغرب، ولكن كان دائم التأكيد على وطنية هيكل، وقد سمعتها منه بنفسي، ذكرها لي عبد الناصر أكثر من مرة :

- « هيكل معنا في نفس الخندق»

يواصل محدثي فيقول:

ـ أضف إلى ذلك أن هيكل كان مفيداً لعبد الناصر من ناحية أخرى غير كتابة أفكاره، فقد كانت له علاقات جيدة، وكان عبد الناصر يوجهنا إلى الاستفادة من العلاقات الاجتماعية غير الرسمية، وكان كلفني عندما كنت وزيرا بأهمية العلاقات الاجتماعية، وكان يرى أنها مفيدة جداً للحصول على معلومات، كما أن العلاقات الاجتماعية الجيدة تفيد في التعرف على حقيقة الآخر أكثر من العلاقة الرسمية.

وأعود لأسأل هل كان السادات صديقاً لعبد الناصر؟

ويجيب محدثي بسرعة وبتلقائية:

- السادات كان صديق عبد الناصر، آه طبعاً وكان عبد الناصر يستريح إليه، ولماذا لا يستريح مع رجل لا يقول غير «صوتي في جيبك يا ريس»؟، واستطاع أن يقنعه أنه بلا أدنى مطالب في الحكم، وأنه يأتمنه على تربية أولاده، بعد ما يموت، وأنه صاحب مرض، وأنه مصاب بأزمة قلبية، وكان قريبا من عبد الناصر خاصة بعد رحيل المشير عبد الحكيم عامر..

وتوقف محدثي ثم وكأنه يحدث نفسه:

- عبد الناصر والسادات أصدقاء.. آه، إنما هيكل وعبد الناصر..

وسكت محدثي من جديد..

وكان سكوته سكوت رفض..

وليس من نوع السكوت الذي هو علامة القبول.



في خدمة الأمير

◆◆◆



-١-

اختلف كثيرون حول قيمة، ووزن هيكل إلى جانب عبد الناصر، وكان دوراً محبباً إليه و«شرف لا يدعيه، وتهمة لا ينكرها».

واختلف كثيرون حول دور هيكل إلى جانب السادات وهو دور ليس محبباً إلى الكثيرين ـ ونحن منهم عن دراسة وتمحيص.

ثم بقي أحب أدواره إلى جمهرة كبيرة من الدارسين والقراء هو دوره بعيداً عن السلطة، حتى ولو كان هو من بين الذين لا يحبون هذا الابتعاد، ولا يطيقون مثل هذا البعاد..

إبعاد وابتعاد فرضته الظروف..

واستجاب هو لما تمليه الظروف..

وكان أهلاً لما حظي به من تقدير عام، وهو بعيد عن أي سلطان، وبقي له سلطان واحد.. سلطان كلمته الذي يتزايد تأثيره يوماً بعد يوم...

والحق أن هيكل كان له دوراً مرسوماً إلى جانب جمال عبد الناصر، دور رسم ملامحه ووضع لافتات المحاذير على جانبيه عبد الناصر نفسه، يدفعه إليه ويلجمه عنه، ويتحكم فيه بتحريك الدفة كما يريد، أو كما يجري اتفاقهما عليه.

مع السادات اختلف الأمر..

أراد هيكل أن يلعب الدور الذي يرسمه لنفسه..

أراد أن يلعب الدور الذي يرى نفسه مؤهلاً له، وكان يرى أن السادات نفسه مؤهل لأن يلعب هيكل دور المرشد الذي يقود خطاه..

تطلع هيكل إلى أن يلعب السادات الدور الذي يرسمه هيكل له، ولم يكن غافلاً عن بعض أسباب القصور فيه، لكنه تصور أن «أعباء المنصب، ووقر المسؤولية، سوف تقوي كل العناصر الإيجابية في شخصيته، وسوف تساعده في التغلب على جوانب الضعف فيها»(١).

---

(١)خريف الغضب ـ ص ١٧٠ ـ ط مركز الأهرام للترجمة والنشر.

وبينما كان هيكل يقوم بدور «المبشر» مع عبد الناصر، وكان ينـدب لـدور «المعبر» عن أفكار الزعيم، إلا أنه مع السادات راح يحاول القيام بدور «صانع الألعاب»، صاحب الرؤية والخبرة، وماسك خزائن المعلومات، وصاحب العلاقات مع أطراف عدة في الشرق، كما في الغرب، في الداخل كما في الخارج..

اختلف الدور، واختلفت طبيعة هذه الدور من اختلاف الرئيسين، ومن الاختلافات بين هيكل نفسه في الحاليين، حاله مع عبد الناصر، وحاله مع السادات..

هيكل مع عبد الناصر لم يكن قد تشكل وعيه السياسي والأيديولوجي، كان ما يزال مثقفاً «تحت التمرين»، وظل وعيه يتشكل طوال الفترة من تفجر الثورة، وحتى صدر الميثاق الوطني في العام ١٩٦١، وبفعل تأثير عبد الناصر الفكري في هيكل، اكتملت شيئاً فشيئاً مرجعية لدى هيكل يمكن القياس عليها مع عبد الناصر، أو مع غيره.

انتقل هيكل تحت تأثير عبد الناصر العميق فيه من معسكر فكري إلى معسكر فكري آخر، واقترب من الفكر الاشتراكي بفعل هذا التأثير، ولم يكن في يوم اشتراكياً، وهذا ما قاله عبد الناصر نفسه..

إيمان هيكل بالقومية العربية، والعدالة الاجتماعية، ودعوته المستمرة إلى بناء سياسة وطنية عربية مستقلة عن الضغوط الغربية، كل هذا ترسخ لدى هيكل بفعل تأثير أفكار وتجربة عبد الناصر.

الذين يفسرون وفاء هيكل لعبد الناصر أخلاقياً وعاطفياً فقط، مخطئون، لأن هيكل يدافع في الحقيقة عن أفكار انتمى إليها، وآمن بها مع عبد الناصر، وظل يدافع عنها بعد رحيله..

ظل هيكل ينزع إلى قليل من الليبرالية، وينحاز أكثر إلى مصالح الرأسمالية، وذلك كله في ظل الأفكار الرئيسية لعبد الناصر..

كان هيكل مع عبد الناصر «شاهداً» بالمعنى الحرفي للكلمة، وبالمعنى القانوني

أيضاً..

كان عبد الناصر نفسه يوصي بأن يظل هيكل شاهداً مطلعاً، وكان يهدف - فيما يبدو لنا – إلى أمرين معاً:

الأول: أن يمكنه الاطلاع على حقيقة ما يجري التفكير فيه، والتخطيط له في بعض المجالات، من حسن ودقة التعبير عنه، إما في مقالاته، أو في كتابته لخطب الرئيس، وقد كان كاتبها الوحيد، وإما في مراسلات الرئيس، وقد كلف بكتابة الكثير منها.

الثاني: كان عبد الناصر مقتنعاً أنه سيأتي يوم يجلس فيه هيكل إلى هذه الأوراق، يقلب فيها، ويكتب شهادته على ما حدث، وأنه هو سيكون ساعتها في رحاب الله..

وقد انتقل «الشاهد المطلع» في حالة عبد الناصر، إلى «دور أكبر» في حالة أنور السادات..

لم تكن انتهازية هيكل هي التي جعلته يعمل في نظامين مختلفين حد التناقض، نظام عبد الناصر، ثم نظام السادات من بعده.

ذلك أنه ابتعد ـ عمداً ـ عن نظام السادات، بعد أن اكتملت خطوط سياسته على الأرض، ونقول: ابتعد عن السادات، ولم يبعده السادات، ذاك أن هيكل لو وافق السادات، لكان سعد بوجوده، إلى جانبه، ورحب به، وقدمه على كل من هم حوله..

وظل السادات - في الحقيقة- يتمنى وجود هيكل إلى جواره، لكن هيكل كان دائماً هو الذي يرفض ويبتعد..

لأنه كان يعرف أنهما ابتعدا موضوعياً، وعلى الأرض..

والحق أن هيكل ظل هو نفسه في ظل السادات، كما كان في ظل عبد الناصر..

كان على يمين عبد الناصر الثوري، وبقى إلى جانبه إصلاحياً بامتياز، وظل على موقفه نفسه، عندما جاء السادات اليميني، فأصبح هيكل على يساره، بدون أن يحرك مواقفه الفكرية والسياسية.

-٢-

كان هيكل وطنياً قومياً آمن بدور عبد الناصر وزعامته، ووعى قوانين العصر، وعبر عنها جيداً، وظل في الجانب الإصلاحي، ولم يدع أنه كان ثورياً حقيقياً.

منذ البداية أدرك عبد الناصر أن ثورة يوليو لابد لها أن تكون ثورة شاملة، لها بعدها السياسي التحرري، ولها بعدها الاجتماعي التحريري من أوضاع تكرست مع الإقطاع، وما كان إصدار قانون الإصلاح الزراعي مبكراً في أوائل أيام الثورة، إلا وعياً بأن الثورة الاجتماعية هي الوجه الآخر للثورة الوطنية، وتطور فكر عبد الناصر حتى أصبح اشتراكياً، عاش مأساة مجتمعه بعمق، وكان مؤمناً عن قناعة بحتمية الحل الاشتراكي، فيما بقى هيكل يؤمن بدور الطبقة الوسطى، وقد استمات هو وسيد مرعي في تحجيم الإصلاح الزراعي، وعندما بدأ عبد الناصر حديثه عن الاتجاه إلى الزراعة الكبرى بأساليب حديثة وعلمية، كان هيكل ومعه سيد مرعي وآخرون ينادون بقصرها على تجربة مديرية التحرير، وكانت تلك هي الثغرة الكبيرة التي استطاع كبار ملاك الأراضي أن يعودوا فيما بعد من خلالها.

وكان هيكل في عهد عبد الناصر، هو الناطق المعتمد باسم اليمين المستنير، يمين التجربة الناصرية..

وإلى الأهرام جلب هيكل أسماء من على هامش الحركة الماركسية في مجلة الطليعة، وسعى من خلالهم إلى خلق تيار يساري ماركسي مسالم، ومتعاون، مع نظام عبد الناصر، وفيما بعد تعاونوا مع نظام السادات، وكتبوا ينظرون للساداتية.

كانت تركيبة الأهرام التي أرادها هيكل: «قليلٌ من اليسار المدجن على يساره، وجيش من اليمين على يمينه»، وكان على يمينه بطرس بطرس غالي ومعه جيش من اليمين الاقتصادي، وفي القسم الثقافي كان يسيطر عليه توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزي ثم ثروت أباظة..

وبقي اليسار بلا تأثير حقيقي، أو بتأثير محدود للغاية..

وخارج الأهرام التف حول هيكل ـ بسبب قربه المعروف من جمال عبد الناصر

ـ يمينيو التجربة الناصرية، على رأسهم سيد ومرعي، الذي كان يجد في هيكل مدافعاً حقيقياً عن أفكاره، وتوجهاته، وحتى عن مركزه داخل التركيبة الحاكمة[1]، وكذلك عبد العزيز حجازي وعبد المنعم القيسوني وكان هؤلاء يرون في هيكل صمام الأمان ضد السير قدماً في تعميق الإجراءات الاشتراكية، وظل هيكل مدافعاً عمن نالت منهم تلك الإجراءات وأسماهم « الأرواح الهائمة » ..

وفي مستوى آخر، وعلى صعيد علاقات مصر الخارجية كان هيكل يدعو ـ مستميتاًـ إلى تحييد أمريكا، وكتب حول ذلك أكبر سلسلة في مقالات «بصراحة»، وكان في الوقت نفسه حريصاً على أن تقف العلاقات المصرية مع الاتحاد السوفيتي عند حدود تساعد على تحييد أمريكا، وكتب في ذلك الكثير من المقالات، بل إنه عاير السوفييت بقصة قتال الجيش الأحمر إلى جانب قوات النازي، ولعب هيكل دوراً ملحوظاً في إشعال الحرب بين عبد الناصر من جهة، والشيوعيين السوريين والعراقيين من جهة أخرى.

ـ٣ـ

ويمكننا أن نستوعب دور هيكل إلى جوار عبد الناصر على حقيقته، دون ادعاء، وبدون تواضع، من روايات رواها هيكل نفسه، وكلها توضح صور مختلفة من صور هيكل إلى جانب عبد الناصر:

إحدى هذه الروايات كانت مبكرة جداً بعد رحيل جمال عبد الناصر بحوالي ٦ شهور، والأخرى بعدها بسنين طويلة:

الوقائع كما رواها هيكل في كتابه « عبد الناصر والعالم»[2] تقول:

« تلقيت ذات يوم برقية تسألني إذا كانت «الأهرام» مهتمة بعقد حديث صحافي مع أولبريشت، فأبرقت موافقاً، قائلاً إننا سنكون مستعدين لذلك عندما يصل، ولكني في أصيل ذلك اليوم بالذات، تلقيت برقية تحتوي على زهاء عشرين سؤالاً

(١)راجع مذكرات سيد مرعي.

(٢)عبد الناصر والعالم ـ طبعة دار المنار ـ بيروت ص ٤٤٧.

طرحها أولبريشت على نفسه، وأجاب عليها.

وبالطبع هاجم بون في أجوبته..

وأصبت بشيء من الحيرة بصدد حديث أولبريشت، ذلك أننا لم نكن الذين طرحنا الأسئلة..

فاتصلت بالرئيس عبد الناصر، وأبلغته بأنني تلقيت هدية لم أنتظرها، وإن كانت هدية مقبولة بكل ترحيب..

فقال لي الرئيس:

- امض في طريقك وانشر الحديث.

ونشر هيكل الحوار المفاجأة بأمر مباشر من الرئيس، الذي يهمه في المقام الأول صراعه مع ألمانيا الغربية، التي زودت إسرائيل وقتها بصفقة أسلحة ضخمة، ولم يكن يهمه أن يكون هيكل هو الذي طرح الأسئلة، أم أنها وضعت له مع إجاباتها، قدر ما يهمه أن يرد على صفقة ألمانيا مع إسرائيل بدعوة زعيم ألمانيا الشرقية إلى مصر.

وسواء كانت الهدية التي وصلت هيكل مرحب بها منه أم لا، فإن الرئيس ليس أمامه إلا الاعتبارات السياسية، وهي غالبة، في هذه الحالة، على الاعتبارات المهنية.

ونفذ هيكل أمر الرئيس، ونشر الحديث، الذي لم يضع أسئلته، ولم يسمع إجاباته، بل جاءه مكتوباً كهدية غير منتظرة، وإن كانت مقبولة بحكم الأمر الواقع.

وصورة أخرى من صور استخدام النظام الناصري لهيكل، يرويها بنفسه في كتابه «أكتوبر السياسة والسلاح»[1]:

كانت العادة في الترتيب للمحادثات الهامة التي يجريها عبد الناصر أن نجلس معاً لساعات وأن أسمع منه .. ثم أكتب له بخط يدي نقاطاً تمثل سياق عرضه الافتتاحي للمناقشة ويجري عليها ما يشاء من تعديلات، ثم يضعها أمامه أثناء

---

(١) أكتوبر السياسة والسلاح ـ هامش صفحة ١١٥.

الجلسات ويعود إليها حين يشاء أثناء جريان الحوار.

وكانت الكفاءة التفاوضية لعبد الناصر تتجلى أكثر ما تتجلى في مرحلة الحوار»

وهي صورة شائعة في علاقة هيكل مع عبد الناصر، أن يعيد ترتيب أفكاره عليه، وأن يمتحن هذه الأفكار أمامه، وأن يختبر أسلوب التعبير عنها في مواجهة شخص، حتى لا تكون المرة الأولى التي يرى تأثيرها على الآخرين في مجال مفتوح غير منضبط كهذا المجال المغلق الذي يجري خلاله اختبار الأفكار على مهل وفي محيط مغلق.

يطرح عبد الناصر نقاط أفكاره الرئيسية..

وينتظر من هيكل صياغتها في صورة كلمات..

ثم يجري على الصياغة ما يشاء من تعديلات حتى تصبح أكثر دقة في التعبير عن أفكاره أو عن جوهر هذه الأفكار، ثم تعود إليه في صورتها النهائية ليضعها أمامه إما في جلسات المحادثات مع الآخرين، وأما على منصة الخطابة في لقاءات جماهيرية واسعة، وإما يرسلها في مظروف إلى رئيس دولة أجنبية، رداً على رسالة أو توضيحاً لسياسة بلاده..

دور آخر يقوم به هيكل إلى جوار عبد الناصر نجده في ملفات السويس برواية هيكل يقول:

قمت بترتيب الاجتماع بين جمال عبد الناصر ونجيب الهلالي باشا بناء على طلب عبد الناصر، وقد تم الاجتماع في بيت نجيب الهلالي في المعادي،

وقد ذهب إليه جمال عبد الناصر، وأنا بجواره يقود بنفسه سيارة «جيب» كان يقودها، ويستعملها في تلك الأيام.

كان ذلك في أغسطس سنة ١٩٥٢..

ودور ثالث يرويه هيكل بنفسه[١] فيقول: حين أرسل عبد الناصر مدير مكتبه

---

(١) ملفات السويس - ص ١٨١.

على صبري إلى واشنطن للتفاوض على شراء صفقة أسلحة أمريكية للجيش المصري في أوائل نوفمبر سنة ١٩٥٢، تصادف في هذا الوقت أن سافر هيكل إلى الولايات المتحدة لمتابعة معركة الرئاسة الأمريكية، وطلب عبد الناصر منه أن يجري بعض الاتصالات مع من يعرف من الصحافيين والساسة في الولايات المتحدة حتى يستكشف نواياهم إذا استطاع فيما يتعلق بصفقة الأسلحة مع مصر.

وكانت السفارة الأمريكية بالقاهرة قد أخطرت واشنطن عن سفر هيكل وأضافت إليه أنه وثيق الصلة بجمال عبد الناصر، وهكذا وجد هيكل - حسب نص كلامه - أبواباً كثيرة مفتوحة أمامه في العاصمة الأمريكية.

خدمات أخرى يقدمها هيكل للرئيس[١] يقول:

«قدمت الدكتور محمود عزمي إلى الرئيس جمال عبد الناصر وقد حضرت كل اجتماع بينهما، وكان عبد الناصر يناقش معه على جلسات طويلة، وبالتفصيل، أسس دعوته إلى الحياد، وكيف يمكن تطبيقها، على موقع مصر الجغرافي، وكان محمود عزمي يخرج من جلساته مع عبد الناصر ليكتب له دراسات مستفيضة عن جوانب الموضوع، ثم يعود لمناقشتها معه».

نفس الدور الذي يقوم به هيكل، ولكن في موضوع تخصصي، استوجب وجود متخصص فيه، وانتدب إلى ذلك الدكتور محمود عزمي..

وتكليفات من نوع خاص يكلفه بها عبد الناصر شخصياً[٢]، يقول:

«كنت ذاهباً إلى جنيف لمتابعة أعمال القمة الرباعية بين أمريكا والاتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا صحافياً وطلب مني الرئيس جمال عبد الناصر أن أكون على اتصال يومي بالمراقبين المصريين هناك، وأن أحضر اجتماعاتهما، ومناقشاتهما، قبل أن يبعثا إليه بتقاريرهما اليومية، وحين عدت إلى القاهرة من اجتماعات القمة، ناقش الرئيس عبد الناصر معي تفاصيل ما رأيت، وسمعت

---

(١) ملفات السويس - ص ١٨٨.

(٢) ملفات السويس - ص ٣٥٣.

هناك، لمدة ثلاث ساعات، وكانت أسئلة جمال عبد الناصر لا تنتهي..

تلك هي طبيعة الخدمات التي كانت تطلب من هيكل إلى جوار دوره الرئيسي، دوره الإعلامي، وهو دور لاشك أهم، وأخطر، من تدبير مقابلة مع فلان، أو تقديم تقرير عن مجال حركة تواجد فيه، أو وجد نفسه فيه بالصدفة.

***

ـ٤ـ

صديق أم أقرب المعاونين؟

يصر الأستاذ على أن علاقته مع جمال عبد الناصر كانت علاقة صداقة، قال للكاتب الصحافي صلاح منتصر[1]:

ـ أحسن ما كان في علاقتي مع عبد الناصر، هو ما كان فيها من تلقائية، بمعنى أنني لم أكن أقصد، ولا هو كان يقصد، الصداقات لا تنشأ بتصميم سابق، الصداقات تنشأ بصلات إنسانية يشعر بها الناس، وتتوثق لحظة بعد لحظة ويوما بعد يوم، الذي حدث أن الرجل كان لديه استعداد تاريخي خارق، وأنا كصحافي أعرف المنطقة بشكل أو بآخر، وأسوأ شيء تفعله لأي إنسان في السلطة، أن تحاول أن تتقرب إليه، أو تفرض نفسك عليه ـ لأنه بطبيعته يشك ـ ليس فقط جمال عبد الناصر، وإنما كل إنسان في موقع السلطة، ولو أنني حاولت بناء على تصميم مسبق، لأثرت الشكوك، لكن علاقتنا نمت، إننا حتى دون أن نلتقي، كنا نتكلم في آراء واحدة، ثم بعد ذلك الصداقات تأتي عندما يجد اثنان نفسيهما منجذبين سواء بحكم تلاقيهما الفكري، أو بحكم عناصر الكيمياء الإنسانية، لا هو هيأ، ولا أنا هيأت، ولكن العلاقة نشأت كما تنشأ أي «صداقة» بطريقة طبيعية.

لماذا يصر هيكل على نعت علاقته مع عبد الناصر بأنها علاقة صداقة؟

والسؤال يجد مشروعيته أكثر حين لا نجد أحداً من معاوني جمال عبد الناصر

(١) حوار على حلقات نشر في مجلة أكتوبر أعداد ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨ الصادرة في الفترة من ٥ يونيو سنة ١٩٨٨ إلى ١٩ يونيو سنة ١٩٨٨.

ادعى لنفسه موقع الصديق، لا أحد على الإطلاق ادعى لنفسه هذا الموقـع، وهـذه المكانة، من خارج دائرة أعضاء مجلـس قيـادة الثـورة، عـلى مـا بيـنهم مـن رفقـة السلاح، وكانوا رفاق في صناعة الثورة.

وكيف يستقيم تقديم علاقة هيكل الصحافي بعبد الناصر الـرئيس عـلى أنهـا «علاقـة صداقة» مع ثلاثة أحداث - على سبيل الأمثلة - في حياة العلاقة بين الرجلين؟

الأول : تعيينه للوزارة بدون علمه وتعمد عبد الناصر ذلك..

الثاني : القبض على بعض العاملين معه، والقريبين إليه..

الثالث : إطلاق الرصاص عليه..

وللأسف فإن رواية هيكـل لهـذه الأحـداث في حياتـه كلهـا غامضـة، تكشـف أشياء، وتبقي الكثير منها في منطقة الغموض، أو الألغاز؟

لو أخذنا علاقة عبد الحكيم عامر مع عبد الناصر الـذي كـان يعـرف ـ حسـب شهادة كل القريبين منه ـ قيمة الصداقة، هل كان يمكن أن يمر مـرور الكـرام عـلى مثل هذه الأحداث، لو أنها اعترضت طريق العلاقة بينهما؟

لا نسأل عن قبول عبد الحكيم عامر لمثل ما فعله عبد الناصر مـع هيكـل فهـذا غير وارد.

ولكن ما نهتم به هو السؤال:

هل يقبل عبد الناصر أن يفعل ذلك معه وهو صديقه.

إجابتنا حاسمة : لا

فالصديق لا يفاجئ صديقه بتعيينه ـ رغماً عنه وغصباً عن إرادتـه ـ وزيـراً، ولا يترك أمامه مجالاً غير الانصياع لما تقرر، وأعلن قبل أن يعلمه.

حسب رواية هيكل فإن عبد الناصر كان يعرف عزوفه عن المناصب الوزاريـة، وتمسكه بـ «الأهرام» التي جعلت منه مركز قوة حقيقي في نظام عبد الناصر.

وحسب رواية محمد فائق وزير الإعلام الذي استلم منه هيكل وزارة الإعلام :

- هيكل كان كثير النقد لعمل وزارة الإعلام أمام الرئيس، فالريس قال :

« طيب هاتوه بقى يمسك الإعلام يورينا هيعمل إيه؟

ويضيف سامي شرف أن الرئيس قال له: «أنت تفلسف هذه المسائل، وأنت صحافي خارج عن الدائرة، امسك الوزارة وفلسفها من الداخل وأنت وزير»

يقول سامي شرف أمرني عبد الناصر بأن أذيع قرار تعيين محمد حسنين هيكل في الوزارة في موجز أنباء الساعة ١٢ ظهراً بالإذاعة..

وفوجئ هيكل بالقرار.

محمد فائق ذكر الواقعة نفسها، وأكد أن عبد الناصر نبه عليه بإذاعة الخبر قبل أن يعرف هيكل، «وبعد الإذاعة كنت أنا أول من أبلغه أنه صدر قرار بتعيينه وزيراً للإعلام، وكان القرار قد وصلني لإذاعته في وسائل الإعلام المختلفة".

ويشهد محمد فائق أن هيكل لم يكن مرتاحاً للقرار، كان منحازاً أكثر إلى كونه كاتب منذ البداية، كانت صفته التي يعتز بها هي صفته ككاتب، وكان يحرص على تلك المسافة الموجودة بين الكاتب والحكم، وكان يرى ـ وهو صحيح ـ أن توزيره يعني دفاعه بحكم المسئولية التضامنية عن سياسات الدولة.

ونسأل: أي «صداقة» تلك التي يجبر فيها الصديق صديقه على ما يريد منه، دون الأخذ في الاعتبار رأيه أو ما يفضله لنفسه؟

لم تكن «صداقة» تلك العلاقة التي جعلت «الرئيس» يطلب من أحد المتعاونين معه، والمعاونين له أن «يخدم» في الموقع الذي رآه له أن يخدم فيه.

ـ٥ـ

ثم قصة إطلاق النار على هيكل.

الأسئلة حولها أكثر إثارة وأشد غرابة، ما هو رد الصديق على إطلاق الرصاص على صديقه:

هل يجوز منه اللامبالاة بما حدث كأنه لم يحدث؟

هل يجوز أن يعرف الرئيس خبراً مضمونه أن صديقه كان يمكن أن يذهب ضحية أجهزة تابعة له، وتأتمر بأمره، ويمكن محاسبتها، وإيقاع العقاب، أقسى

العقاب على الفاعل، ولا يفعل شيئاً غير إبداء القلق..

حتى عبد الناصر الرئيس، لا الصديق، لا يجوز أن يسمع من هيكل أنه تعرض لإطلاق نار، ويسكت، ولا يفعل شيئاً، غير مصمصة الشفاه، حسرة على انفلات الصراع تحت جناحه، بين معاونيه، والعاملين معه..

والحق أن عبد الناصر الذي يقدمه لنا هيكل في علاقته معه، رجل غريب، غير مبرر، لو أننا أخذنا بما يقول هيكل، بدون تمحيص أو تدقيق.

« لقد قلق عبد الناصر لحادثة إطلاق رصاصتين عليَّ وأنا نازل من مبنى الأهرام القديم في شارع مظلوم، وأنا رفضت إبلاغ النيابة وتقديم شكوى.

« وبعدما عرف عبد الناصر التفاصيل سألني إذا كنت أتهم أحداً، واستغرب ردي حيث قلت: إنني لا أتهم أحداً.

وأنا أرى أن ما حدث لي، ولزملائي في الأهرام، كان ناتجاً عن اصطدامنا مرات عدة ببعض أجهزة السلطة ».

هذه هي الصورة التي يريد هيكل أن نصدقها على عبد الناصر.

صديق لا يحمي صديقه، رغم أنه رئيس الجمهورية.

قلق عبد الناصر، ولكنه لم يقم الأجهزة ولم يقعدها، من أجل أن يعرف من وراء حادث إطلاق النار، لا نقول على صديقه، ولكن على الأقل أحد المعاونين المقربين إليه.

لو أن مواطناً عادياً قال أمام عبد الناصر إنه أطلق عليه طلقتين رصاص لأمر من فوره بإجراء تحقيق شامل لمعرفة الأسباب والمتسببين والفاعلين ونواياهم.

ألم نقل أن عبد الناصر الذي يقدمونه لنا غريب.

هل يريد هيكل أن يقول: إن عبد الناصر كان يحكم دولة مماليك، لا يقدر على محاسبة أحد منهم إذا هو تجاوز؟..

دولة عبد الناصر دولة «منفلتة»، لا تحترم القانون، دولة غابة أم دولة قانون، تلك التي يحدثنا عنها هيكل..

وعن أي شيء يدافع..

ألم أقل أن الأمر إذا اختلط بما هو ذاتي عند هيكل، اختلطت عنده الأمور وضاعت الحقيقة، وسط أوهام الذات..

ويقول هيكل :

ومعظم الكتاب والصحافيين الذين اعتقلوا أيام جمال عبد الناصر كانوا من الأهرام، لطفي الخولي اعتقل، وجمال العطيفي اعتقل، وأحمد نافع ويوسف صباغ وحمدي فؤاد قبض عليهم، وسكرتيرتي نوال المحلاوي قبضوا عليها.

ولم يقل لنا : لماذا؟

لماذا اعتقلت الأجهزة سكرتيرة صديق الرئيس، وزوجها، ولطفي الخولي وزوجته؟

وما هي الاتهامات التي وجهت إليهم؟

ولماذا اكتفى بالقول: «لقد كانت محنة لي في بداية عهدي بالوزارة، أن يقبضوا على سكرتيرتي، وبعض العاملين معي في الجريدة »

أي محنة تلك التي أغلقت فم الصديق المقرب جداً من الرئيس، الذي لا يجد حرجاً للحوار معه في أي شيء، الصديق الذي يتحدث إليه باستمرار من دون وساوس، ومن دون إحراج»؟..

لماذا سكت «الحوار» المستمر من ١٨ يوليو سنة ١٩٥٢ حتى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ لحظة جرى القبض على لطفي الخولي، وعلى سكرتيرته نوال المحلاوي وزوجها؟..

وهل يجوز من هيكل القول بأن هذه الاعتقالات بالإضافة إلى حادثة إطلاق رصاصتين عليه، كانت ناتجة عن اصطدامنا مرات عدة بأجهزة السلطة؟

سلطة من كانت؟

ألم تكن سلطة جمال عبد الناصر، أم كانت سلطة معاونيه؟، يفعلون بها ما يريدون دون علمه؟

أي عبد الناصر هذا الذي يوحي إلينا به في مثل تلك القصص؟

أم هي قصص ملفقة..

ملفقة بالاختراع..

أو ملفقة بالسكوت عن سببها الحقيقي..

أكاد أجزم أن قصة الرصاصتين ملفقة بالاختراع، وقد سألت كل الذين كانوا قريبين من صناعة القرار، ومنهم من هم أصدقاء لهيكل مثل الأستاذ محمد فائق وزير الإعلام، فأجمعوا كلهم أنهم لم يسمعوا بقصة إطلاق الرصاصتين على هيكل إلا الآن، ساعة قرأتها عليهم من الكتاب الذي نشرها[1].

وأجزم أن قصة القبض على لطفي الخولي ونوال المحلاوي ملفقة بالسكوت عن سببها الحقيقي..

لأن سببها الحقيقي هو أن أجهزة المخابرات سجلت حواراً في منزل لطفي الخولي كان حاضراً فيه، بالإضافة إليه وزوجته، كل من سكرتيرة هيكل وزوجها، وتحدثوا بما لا يليق على قرار عبد الناصر تعيين هيكل وزيراً للإعلام، متبنين وجهة نظر هيكل الرافضة لقرار التعيين، متجاوزين في الحديث على عبد الناصر بألفاظ ومعان مسيئة، ليس لعبد الناصر فقط، ولكن لمن أطلقوها وتلفظوا بها أيضاً..

ولم يكن الأمر استهدافاً للأهرام التي لا يجب أن ننسى أنها كانت تحت الحماية والرعاية المباشرة من جمال عبد الناصر نفسه، في مواجهة انتقادات تأتي من قيادات وكوادر التنظيم السياسي التي لم يكن يروق لها توجهات هيكل اليمينية والمعادية للاشتراكية والمطالبة بتحييد أمريكا وغيرها من الآراء التي لم تكن هذه القيادات وهذه الكوادر توافق عليها وتراها مناقضة لسياسة التنظيم السياسي وسياسة الدولة نفسها.

-٦-

في أرشيف هيكل خطابان، الأول موجه منه إلى «سيادة الرئيس جمال عبد

(١) فؤاد مطر ـ بصراحة عن عبد الناصر حوار مع محمد حسنين هيكل ـ دار الكتاب ـ بيروت.

الناصر»، والثاني إلى «الأخ والصديق أنور السادات»..

والخطابان، يقدمان تصويراً دقيقاً لطبيعة العلاقة بين هيكل والرئيس، وهي - من مطالعة الخطابين - مختلفة في الحالين، ليس - فقط - لأن هناك فارقًا كبيرًا بين الرجلين، ولا الفارق يكمن - فقط - في اختلاف أدوار كل منهما، ولكن الفارق - وهذا هو الأهم - يكمن في نظرة هيكل نفسه، إلى كل منهما.

ونظرة أي شخص إلى آخر - من حيث الزاوية - فيها نظرة من فوق، وفيها نظرة من تحت، كما أن نظرة أي شخص إلى آخر - من حيث المشاعر - فيها نظرة حب وتقدير واحترام، وفيها نظرة قبول ورضا وأمل، وسوف تجد في نظرة أي شخص إلى آخر - من حيث الدور - نظرة إكبار وإجلال واحتفاء بالشخص وبالدور الذي يقوم به وبالطريقة التي يؤديه بها، وسوف تجد على الجانب الآخر نظرة إشفاق على الشخص في الدور الذي ألقي عليه أو وجد نفسه - فجأة - في مهب رياحه وخماسينه.

والفارق لا يكمن فقط في دور كل منهما؛ رجل حاول جهده أن يخرج مصر من إسار التبعية للغرب، ورجل بذل كل الجهد لكي يعيد مصر مرة أخرى إلى ركاب الغرب، ولكنه يكمن في نظرة هيكل إليهما..

وكما أن الفارق في علاقة هيكل بالرئيسين، هو نظرته إلى كل منهما، فإن نظرة كل منهما إلى هيكل بدورها تشكل فارقاً هاماً في طبيعة العلاقة مع كل منهما..

والقراءة المتفحصة للخطابين تدلنا على طبيعة العلاقة بين هيكل وكل من عبد الناصر والسادات، وتوضح - في الحقيقة - الفارق بين الرجلين..

والخطابان يظهران الكثير من خفايا، وأسس العلاقة بين هيكل وبين الرئيسين.

لم يكتب هيكل غير هذا الخطاب إلى جمال عبد الناصر ..

هو خطابه الأول إليه، والأخير أيضاً..

وخطاب هيكل إلى السادات لا يفصله عن خطابه إلى عبد الناصر إلا خمسة أشهر وعدة أيام ..

كان خطابه إلى عبد الناصر في ٢٦ أبريل سنة ١٩٧٠ ..

وكان خطابه إلى السادات في ٢ أكتوبر سنة ١٩٧٠..

وخطاب هيكل إلى عبد الناصر كان قبل رحيل هذا الأخير بعدة أشهر، أي أنه جاء والعلاقة بينهما في أعلى درجاتها، وفي أفضل أحوالها..

وخطابه إلى السادات جاء بدوره والعلاقة بينه وبين السادات في أحسن أحوالها فيما بينهما..

الخطاب الأول كان إلى جمال عبد الناصر:

أرسله هيكل إلى بيت عبد الناصر في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الأحد ٢٦ إبريل سنة ١٩٧٠ وكان نصه بالحرف كما يلي:

سيادة الرئيس:

إن المفاجأة التي تلقيتها ظهر اليوم بترشيحي وزيراً للإرشاد القومي كانت مفاجأة كبيرة، كما أنها كانت شرفاً أكبر؛ ذلك أنها كانت شاهد ثقة أعتز بها وأفخر لأن مصدرها هو ذلك الزعيم والقائد الذي تتجسد فيه الوطنية المصرية في مرحلة من أهم مراحل التاريخ وأحفلها، فضلاً عن أنه الزعيم والقائد الذي تتمثل فيه كل أماني التقدم الاجتماعي وآمال الوحدة العربية.

وإذا أذنتم لي ـ يا سيادة الرئيس ـ فإني أرجو أن أضع تحت نظركم بعضاً من الظروف الخاصة التي تدعوني إلى أن ألتمس منكم معاودة بحث الأمر فيما يتعلق بي، وهذه الظروف كما يلي:

١ - أن الصحافة هي مهنتي منذ ثمانية وعشرين عاماً، ولم أعرف لنفسي في حياتي عملاً غيرها، لدرجة أستطيع أن أقول معها بإخلاص أن هذه المهنة هي حياتي ذاتها.

٢ - إنني عن طريق هذه المهنة خدمت وطني بقدر ما وسعني الجهد، ومن خلال خدمتي لوطني فقد جاءت خدمتي للثورة، التي كان لكم فضل قيادتها، والتي سوف يذكر التاريخ لها -مهما كان أو يكن- أنها نقلت مصر إلى القرن العشرين بآماله وأفكاره وآفاقه الواسعة.

٣ - لقد استقرت أفكاري وأهدافي منذ وقت طويل على أن مستقبلي هو العمل الصحافي وحده، وقد بلغ ذلك في يقيني مبلغ المبدأ، وذلك إحساس أنتم أكثر من يقدره بحسكم الصافي وإيمانكم العميق.

٤ - أنكم تعرفون ما يعنيه الأهرام بالنسبة لي، كما أنكم تعرفون ما يؤديه الأهرام في مجال الخدمة العامة، ولقد فعل الأهرام ما فعل وحقق ما حقق بفضل رعايتكم له، وأصبح في النهاية مركزاً من مراكز التقدم في وطننا في العالم العربي، وأنا أشعر - و قد يكون في ذلك غرور ألتمس منكم اغتفاره لي - أن وجودي في الأهرام في هذه المرحلة ضروري لاستمرار دوره. وحتى لو لم يكن ذلك صحيحاً فإني أحب أن أتصوره، كما أني بصدق لا أستطيع أن أجد لنفسي عملاً أحبه خارج الأهرام، ولقد أحسست في الساعات الأخيرة أن كل من في الأهرام يشاركني هذا الشعور، وصدقني - يا سيدي الرئيس - إنه كان هناك من جاءوا لتهنئتي والدموع في عيونهم.

٥ - أن قراركم الكريم الذي سمح لي استثناء بأن أجمع بين الوزارة وبين العمل في الأهرام يلقي على ما لا أستطيع تحمله، وأعرف مقدماً أن جهدي كله سوف يميل إلى جانب الأهرام، وليس ذلك إنصافاً لمسئولية أخري، وفضلاً عن ذلك فإن الجمع له محاذير لعدة أسباب:

لأن هناك تعارضاً بالطبيعة بين العملين... الصحافة والوزارة.

ثم لأن الجمع بين رئاسة تحرير الأهرام ووزارة الإرشاد سوف يجعل في يد فرد واحد من أسباب القوة السياسية ما يمكن أن يحوله بحق إلى مركز قوة، وتلك إساءة إلى النظام إذا وقعت.

وأخيراً فإن الجمع سوف يثير حساسيات لا داعي لها بين زملاء المهنة، خصوصاً إذا ظهر انحيازي للأهرام، وسوف يحدث ذلك يقيناً بحكم صلتي به وانتمائي إليه وشعوري بالألفة مع كل شيء فيه حتى أحجاره الصماء.

٦ - إن هناك مشكلة سوف تعرض لي على الفور وهي مشكلة مقالي الأسبوعي بصراحة، وقد أصبح هذا المقال جزءاً لا يتجزأ من كياني، كما أنه ارتباط وثيق بصلة

القلم مع مئات ألوف من قراء الأهرام في مصر، وسوف يـزداد اللـبس بـين آرائـي وآراء الحكومة، وهو لبس يقع بالفعل بغير وزارة، فكيف إذا أضيفت له الوزارة؟

إنني - يا سيادة الرئيس- لا أستطيع أن أكف عن الكتابـة لأنهـا حركـة التـنفس بالنسبة للكاتب.

ولنفرض أني واصلت الكتابة فإني أترك لسيادتكم مدي التعقيدات التـي يمكـن أن يصنعها ذلك.

٧ - إن الوزارة تتطلب استعداداً آخر لا أظنه يتوفر لي، كمـا أن مهامهـا محاطـة بظروف لا أظنني أهلاً لها، وليكن ذلك تهيؤاً، لكن لكل إنسـان حـدوده وطاقاتـه، ومن الخير أن يسلم كل إنسان بأن له حدوداً وطاقات لا يستطيع تجاوزها.

سيادة الرئيس:

إنني أجد نفسي أمام خيار صعب، وألتمس منكم أن تجنبوني مشاقه.

إنه ليس خياراً بين عملين؛ وإنما هو أبعد من ذلك بكثير.

سيادة الرئيس:

إنني أعرف مشـاعركم نحـوي، وسـوف أبقـي طـول العمـر مطوقـاً بفضـلكم وبرعايتكم لي، ولعملي.

ويكفيني للتاريخ أن يقال عني إنني أديت دوري في الخدمة العامة للوطن تحت راياتك المنتصرة بإذن الله.

وتقبلوا يا سيدي الرئيس تحية من أعماق القلـب، وسـلمت، وعشـت، لـوطن منحته من حبك وإخلاصك وجهادك ما هو كثير كثير.

وسلمت وعشت - يا سيدي الرئيس- لكل الذي يؤمنـون بقيادتـك، وبـدورك التاريخي وبقدرك الذي هو قدر مصر.

محمد حسنين هيكل

٢٦ / ٤ / ١٩٧٠

وكان خطابه الثاني إلى السيد أنور السادات بتاريخ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٠، ونشره

هيكل في الأهرام يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٧٠، ومعه رد من أنور السادات عليه ..

وكان نص الخطاب يقول:

سيادة رئيس الجمهورية بالنيابة...

الأخ والصديق أنور السادات:

الآن وقد استقر جثمانه الطاهر في ثري مصر الخالدة، فإني أتقدم إليك راجياً أن تأذن بإعفائي من العمل في وزارة الإرشاد القومي.

إن وصولي إلى القرار الذي يدفعني إلى التقدم بهذا الرجاء إليك لم يصدر عن إحساس بلوعة عاطفية -مع أنه لدي منها أكبر مما يتصور أحد- ولكنه يصدر أيضاً عن اعتبارات عديدة إنسانية وفكرية، أجملها فيما يلي:

١ - إن الكل يعلم أنني حاولت طول عمري أن أبتعد عن المناصب الرسمية، تمسكاً بمهنة اعتقدت وما زلت أعتقد أن حياتي فيها.

٢ - إنني خرجت عن هذه القاعدة، نزولاً على أمرٍ كريم منه، عندما شاء أن يكلفني بالتعبير الرسمي عنه في فترة من النضال القومي بالغة الحساسية، وكان هذا من جانبه اختياراً شخصياً... ومن بعده، فإنني لا أملك هذا الحق بالنسبة لغيره، كما أنني لا أستطيع أن أبقي على رأس وزارة الإرشاد القومي تعبيراً عن نفسي، فمكان ذلك الصحيح هو الأهرام وحده، وليس أي مكان آخر غيره.

٣ - إن جزءاً كبيراً من مهمة إعادة تنظيم وزارة الإرشاد القومي قد تم؛ بإنشاء اتحاد الإذاعة والتليفزيون العربي، وبالدراسات المعدة للبت في شأن الهيئة العامة للاستعلامات وغيرها من مؤسسات الوزارة، ومع أن عملية إعادة التنظيم لم تظهر آثارها بعد أمام الناس -فإني أتوقع مع بداية سنة ١٩٧١ بمشيئة الله- أن تكون هذه الآثار أمام الجميع مرئية ومسموعة.

٤ - إنني لم أعد أستطيع، بكل ما أحس به الآن، التوفيق بين وزارة الإرشاد وبين الأهرام، وكنت قد استطعت ذلك بجهد جهيد لبضعة شهور، لكنني الآن أجد أن ذلك سوف يكون مستحيلاً بالنسبة لي.

وإذا كـان لي أن أختـار - والخيـرة لله- فـإنني أوثـر أن أبقـي في المكـان الـذي أسهمت مع آلاف من أبنائه في تحويله إلى إطلالـة مصـرية عـلى العصـر الحـديث، وكان ذلك، ولكي أكون منصفاً للتاريخ، بتشجيع معنوي كبير منه، وبإلهام مضيء.

٥ - إنني أعتقد، إلى جانب ذلك أن على مسؤولية أتحملها أمام الأجيال، فلقد اقتربـت من فكره وعمله؛ ولابد لي أن أعيد ترتيب أوراقي وذكرياتي عنه؛ لأننا نحن الـذين عرفنـاه عن قرب، وشرفنا بالوقوف، حيث يمكننا من رؤيتـه وهـو يحلـم ويناضـل ويحقـق - لا نملك وحدنا قصة حياته، فهذه القصة ملك لشعبنا ولأمتنا العربية، وللإنسانية.

ولعلك تذكر مرة أيها الصديق الكريم، وكنا معاً أخيراً في فندق هيلتـون -أثنـاء أزمة الأردن التي كانت آخر معاركه المنتصرة- أننـا تحـدثنا عـن التـاريخ وكيـف سيروي حكاية هذا العصر، وتذكر أنه أمامك وأمام السيدين حسين الشافعي وعلى صبري، أشار إليَّ وقال: إنه هو المسئول عن ذلك... لقد كان يعرف كـل شـيء... وهو يتحدث دائماً عن الإحساس بالتاريخ... والكتابة صناعته».

ومن جانبي أيها الأخ الكريم فإنني أعتبر تلك وصية يسـائلني عنهـا ضـميري، وسوف يسائلني عنها الضمير العام لأمتي.

وليس معني ذلك أنني أفكر في النشر العاجل؛ فأنا أول من يقدر أن هناك أشـياء لم يحُن بعد أوانها، ولكنني بأمانة المسئولية أمام ذكراه الغاليـة لا أسـتطيع أن أتـرك شيئاً للضياع أو للنسيان.

إنني أرجو ملحاً ومن كل قلبي، أن لا تعتبر هذا تخلياً مني في وقت عصيب.

إنك تعلم أن ذلك لا يمكن أن يخطر لي ببال؛ فأنت الرجـل الـذي اختـاره هـو بنفسه نائباً له في وقت علم فيه أنه معرض لمخـاطر ومـؤامرات خطـط لهـا الـذين تصدي طول عمره لمطامعهم وسيطرتهم على مقدرات أمته..

وذلك الاختيار وحده يكفي، ليس بالنسبة لي وحدي، وإنما بالنسبة لكل الـذين تراودهم اليوم أعظم الآمال بأن يستمر الخط الـذي رسـمه لأمتنـا سـواء لمرحلـة النصر أو لما بعد النصر بإذن الله.

إنني أناشدك أن تغفر لي ما أستأذنك فيه الآن إذا كان رأيك فيه مخالفاً لرأيي، وأتمني على الله وعليك أن يكون غفرانك من فهمك لموقعي وظروفي ومشاعري.

وأريدك أن تعرف في النهاية أن قلبي معك، وأن عقلي بكل ما أستطيع دفاعاً عن مبادئه، وعن سياسات أجراها نابعة من تلك المبادئ، ولك الدعاء خالصاً وصادقاً أن يعينك الله على ما تحملت أمانته، ولك التحية والمحبة.

محمد حسنين هيكل

السبت ٣ أكتوبر ١٩٧٠

***

وأدعوك إلى إعادة قراءة الخطابين من جديد لتلاحظ معنا عدة فروق بين الخطابين،وهي فروق في الحقيقة بين الرجلين وبين العلاقتين، بل لعلها فروق بين هيكل نفسه، بينه في علاقته مع عبد الناصر، وبينه في علاقته مع السادات :

سنلاحظ أولاً : أن هيكل لم يشر إلى خطابه الموجه إلى عبد الناصر إلا بعد رحيله، بينما نشر خطابه إلى السادات ولم يكن قد مضى على توجيهه إليه إلا عشرون يوماً.

وسنلاحظ ثانياً: أن لغة التخاطب من هيكل إلى الرئيسين مختلفة تماماً في الخطابين:

فهو يخاطب عبد الناصر بصفته الرئيس والزعيم والقائد.

ولن تفاجئك الزاوية التي ينظر منها هيكل إلى عبد الناصر وهو يخاطبه بعبارات من مثل :

- إذا أذنتم لي يا سيادة الرئيس فإني أرجو أن أضع تحت نظركم...

- ذلك إحساس أنتم أكثر من يقدره بحسكم الصافي وإيمانكم العميق..

- أن قراركم الكريم.. التمس منكم.... إنني أعرف مشاعركم نحوي، وسوف أبقى طول العمر مطوقاً بفضلكم وبرعايتكم لي ولعملي... يكفيني أن يقال عني أنني أديت دوري في الخدمة العامة للوطن تحت راياتك المنتصرة بإذن الله.

- سلمت وعشت يا سيدي الرئيس لكل الذين يؤمنون بقيادتك وبدورك

التاريخي وبقدرك الذي هو قدر مصر.

ولكن مع السادات زاوية النظر إليه اختلفت، فاختلفت لغة الخطاب:

- الأخ والصديق أنور السادات ....

- أيها الصديق الكريم...

- إنني أرجو ملحاً من كل قلبي أن لا تعتبر هذا تخلياً مني في وقت عصيب..

- أنك تعلم أن ذلك لا يمكن أن يخطر لي ببال ...

- أريدك أن تعرف أن قلبي معك ...

- لك التحية والمحبة...

والفارق بين النظرتين وزاويتي النظر كبير وشاسع وعميق...

فارق كبير بين لغة خطاب موجهه إلى عبد الناصر، لا يستخدم فيها الضمير المفرد نهائياً (أنتم، فضلكم، حسكم، إيمانكم، قراركم، ألتمس منكم) وإذا استخدمه كان من قبيل (سلمت وعشت، سيدي، قيادتك، دورك، قدرك الذي هو قدر مصر).

ومعروف أن لغة التخاطب مع الأعلى يستخدم فيها صيغة الجمع ....

ولغة التخاطب مع السادات لم يستخدم فيها ضمير الجمع أبداً (لا تعتبر، انك تعلم، أريدك أن تعرف، لك التحية)..

وهي لغة أنداد ...

وإذا تذكرنا أن هيكل يعتبر نفسه صديقا لعبد الناصر، وكانت تلك لغة الخطاب بينهما، فما هي طبيعة العلاقة بينه وبين السادات مع لغة خطاب من مثل ما عرضنا له؟

مع السادات، لم تكن لغة أنداد فقط، إنها لغة صاحب فضل.

وسنلاحظ أن هيكل فطن وهو ينشر إلى الخطابين إلى أهمية أن يتصدرهما حديث عن علاقة الصحافي بالسلطة، وكأنه يقول العلاقة هنا مختلفة..

كانت مع سلطة عبد الناصر غيرها مع سلطة السادات، وأن علاقته مع السادات لن تكون كعلاقته مع عبد الناصر.

أزمة عندما أصبح وزيراً، ومشكلة عندما استقال



-١-

رحل جمال عبد الناصر..

وكان رحيله فجيعة بمعنى الكلمة، ومفاجأة بكل المقاييس ولكل الأطراف، في الداخل وفي الخارج، وكانت مفاجأة أطراف الداخل هي الأشد وطأة والأكثر تأثرا وشهدت جنازته مشاهد حزن جماعي بالغة التأثر شملت الجماهير العربية في أكثر من بقعة عربية، وكان الحزن داخل مصر أكبر من أن يوصف وابلغ من كل الكلمات..

ودَّعت مصر عبد الناصر، ولم يعد للقرار فيها صاحب، وإن أصبح له ورثة، وجدوا أنفسهم لأول مرة بدون الزعيم أمام كل الصعاب، وفي مواجهة كل المسؤوليات..

كانت هناك ثلاثة أمور تأخذ بناصية النظام، ومن ثم بناصية المتواجدين على محيط القمة في ذلك الوقت..

كان أولها: صاعقة الرحيل المفاجئ، وخلو موقع الرجل الأول بدون أية ترتيبات جاهزة مسبقاً..

وكان ثانيها: عدم بروز اسم يمنع بقية الأسماء أو يحجب طرح أسماء آخرين، فكل الأسماء كانت سواء، أو تكاد..

وكان ثالثها: أن محيط القمة ضم أكثر من مجموعة، كانت تعمل كلها في كنف الزعيم الراحل، رغم تنافسها، أو حتى تناقضها، في بعض الأحيان، وهي الآن بعد رحيله، أصبحت وجهاً لوجه أمام مصائرها، وأمام قرار عليها أن تتخذه بدون الرجوع إليه، أو الاحتكام إلى رأيه، أو انتظار أوامره، ثم هي الآن أمام ما اكتسبت من نفوذ تحت جناح الرئيس، وقد أصبحت، وأصبح نفوذها على المحك، إما يزداد ويتدعم ويرسخ، وإما أن يضيع ويتلاشى فتضيع، وتسقط من فوق محيط القمة.

كان محيط القمة يشمل ثلاث مجموعات كبيرة، لا تعدم كل مجموعة

التباينات داخلها، ولكنها تحمل سمات وقسمات تقربها، وتجعلها تصنيفاً مختلفاً عن المجموعات الأخرى.

من أكبر المجموعات المنتشرة قي دوائر الحكم، وعند القمة، كانت جماعة « التنفيذيين » الذين قامت على أكتافهم المشروعات الكبرى للثورة، وهي جماعة في أغلبيتها الغالبة من المدنيين من أهل الاختصاص الذين استعانت بهم ثورة يوليو على مراحل مختلفة للقيام على تنفيذ مشروعاتها الكبرى.

وكان على رأس هؤلاء عزيز صدقي الملقب بأبي الصناعة المصرية، والوزير الذي نجح في نقل مصر الزراعية المتخلفة إلى مصر الصناعة الحديثة.

وكان من بين هؤلاء سيد مرعي وزير الزراعة واستصلاح الأراضي الذي أشرف لفترات طويلة من عمر الثورة على خطتها ومشروعاتها الزراعية الكبرى..

وكان من بينهم عشرات الوزراء المختصين كل في مجاله..

ولا شك أن تلك المجموعة فوق محيط القمة كانت ترى أن المنفذ على أرض الواقع يعطيها شرعية المشاركة مع الآخرين في اختيار من يخلف جمال عبد الناصر، الرجل الذي كان فوق الخلافات، ولم يعد أحد غيره يحوز تلك الصفة..

ولا شك أنهم كانوا يحبذون اسماً ويرفضون أسماء أخرى..

وقد عملت هذه الجماعة مع شخصين كان هما الأكثر ترشيحاً لخلافة عبد الناصر.

عمل أكثرهم تحت رئاسة زكريا محيي الدين في مجلس الوزراء، وعمل الكثير منهم تحت رئاسة على صبري عندما ترأس المجلس..

ولا شك أن البعض منهم كانوا يؤثرون زكريا محيي الدين، ويرفضون على صبري، وأن البعض الآخر كانوا على العكس يحبذون على صبري، ويرفضون العمل مع زكريا محيي الدين، ولكل أسبابه..

ولكن أحداً من هؤلاء، وهؤلاء، لم يكن يتصور أن أنور السادات هو المرشح الذي ستغلق عليه بورصة الترشيحات، ويستقر عليه المتنفذون في هذه البورصة.

وكانت هناك جماعة صغيرة جداً، أكثر ترابطاً وأكثر نفوذاً، وهي ما يمكن أن نطلق عليهم جماعة «التأمين»، وهي التي اعتمد عليها جمال عبد الناصر في تصفية جماعة المشير عبد الحكيم عامر في أعقاب نكسة يونيو سنة ١٩٦٧، ثم كانت هي نفسها التي أعتمد عليها في « تأمين » النظام، والإمساك بخيوط العمل اليومي في أيديهم، حتى يتسنى له التفرغ لمهمة كان قد نذر نفسه لها، وهي إعادة بناء وتأسيس القوات المسلحة المصرية، وتأهيلها لإزالة آثار العدوان، وقيادة الجهد السياسي على الصعيد العالمي والعربي والمحلي، لتوفير الفرصة الأفضل لهذه القوات لكي تقوم بمهمتها الموكولة إليها...

وعندما أدخل عبد الناصر في وزارته الأخيرة التي ترأسها حتى وفاته ٢٤ وزيراً جديداً، أعطى ذلك ثقلاً لمجموعة « التأمين »، حيث أصبحوا هم الوزراء الأقدم، إضافة إلى مسئوليتهم عن الوزارات الأهم التي كانت في أيديهم..

كان الأمن هو هاجس عبد الناصر المستمر..

أولاً: لأنه هو نفسه جاء فوق دبابة أطاحت بالنظام السابق..

وثانياً: لأن المؤامرات عليه، وعلى نظامه، لم تتوقف للحظة طوال عمر الثورة، من الخارج ومن الداخل على السواء..

وثالثاً: لأن التجربة مع عبد الحكيم عامر تركت آثاراً سلبية ضخمة على مسيرة الثورة، والأهم أنها تركت آثاراً لا تمحى من ذاكرة ونفسية عبد الناصر..

وهكذا أعطى ثقته لجماعة « التأمين » التي شاركته عملية إقصاء عبد الحكيم عامر الذي كان هو والذين كانوا معه يمسكون بتلابيب القوات المسلحة.

فكانت تلك « الجماعة » هي الأكثر نفوذاً، والأكثر اقتراباً من عبد الناصر في أخريات أيامه، وقد تركهم في مواقع متقدمة على محيط القمة ولذلك كانت هي الجماعة الحاسمة في اختيار من يخلف عبد الناصر..

سعت إليهم كل المجموعات الأخرى، وسعى إليهم كل المرشحين، ووضعهم في اعتباره كل من سولت له نفسه أن يترشح، أو يرشح غيره للرئاسة..

وكان عبد الناصر يقول في بعض الأحيان إنه يمكن أن يحكم مصر بسبعة أشخاص هم: على صبري، وشعراوي جمعة، ومحمد فوزي، ومحمد فائق، وسامي شرف، ومحمد حسنين هيكل، والفريق محمد أحمد صادق رئيس الأركان في ذلك الوقت.

وكان أكثر هؤلاء من مجموعة «التأمين»...

ثم كانت هناك جماعة الاتحاد الاشتراكي وعلى رأسها أعضاء اللجنة التنفيذية العليا، توحدهم المكانة الرفيعة التي توفرها لهم عضويتهم في أعلى جهة دستورية في البلاد، باعتبار أن الاتحاد الاشتراكي هو الحزب الوحيد القائم، وبحكم سيطرته على الحياة السياسية، وكونه هو الذي يرشح الرئيس..

وكان من هؤلاء على صبري الذي يعد أقوى المرشحين لخلافة عبد الناصر لو أن الأمور في العالم الثالث تجري على نفس الوتيرة التي تمضي عليها في العالم المتقدم، حيث كان هو الذي حصل على أعلى الأصوات في آخر انتخابات جرت لاختيار أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي..

وكان من بينهم عبد المحسن أبو النور أمين الاتحاد الاشتراكي، الذي حل خلفاً لعلى صبري..

وكان من بينهم لبيب شقير وكان يترأس مجلس الأمة إضافة إلى عضويته باللجنة العليا..

وكان معهم ضياء الدين داود وكمال رمزي استينو..

وكانت هذه الجماعة هي الأقرب إلى جماعة "التأمين"، وكانت نقاط التماس بينهما تجمعهم، أكثر مما تفرقهم....

فقد كان شعراوي جمعة، وهو من جماعة التأمين، هو نفسه أمين التنظيم في الاتحاد الاشتراكي، وأمين التنظيم الطليعي في نفس الوقت..

وكان معه سامي شرف كأحد أهم قيادات هذا التنظيم السري..

وإلى جانب هذه المجموعات الثلاثة كان هناك مجموعة من الأفراد شكل كل

واحد منهم ما يمكن تسميته «كتلة فرد»..

وكان محمد حسنين هيكل هو أول، وأهم هؤلاء..

ثم كان هناك حسين الشافعي أحد نواب عبد الناصر، والوحيد إلى السادات الذي بقي إلى جوار عبد الناصر من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة..

وكان هناك محمود فوزي عضو اللجنة العليا، والوزير الذي ظل فترة طويلة واجهة العمل الدبلوماسي، في أوقات حاسمة من تاريخ الثورة، وكان مستشار عبد الناصر في مجال السياسة الخارجية..

ثم كان هناك أمين هويدي وزير الحربية، ومدير المخابرات، وأحد الذين شاركوا في لجان العمل التي كانت تسير الأمور الداخلية في ظل انشغال عبد الناصر بقضية التحرير..

وكانت هذه المجموعة من الأفراد لا يجمع بينها غير أن لكلٍ منهم طموحاته، ولكلٍ منهم تخوفاته، من القادم المجهول..

-٢-

بدا غياب عبد الناصر كأنه انفجار دوى في قاعة مغلقة، فصدم كل من فيها، وكان أول ما فكروا فيه - جميعاً - هو كيفية الخروج من هنا..

أصابهم دوار الانفجار المباغت..

وجاءتهم المفاجأة على غير انتظار أو توقع..

كانت كل الأمور، وكل المواقع، وكل درجات النفوذ، مرتبة جميعها على وجود الرجل الكبير.

وفجأة اختلطت الأمور..

واهتزت المواقع..

ووضعت درجات النفوذ أمام الامتحان الصعب..

وبفعل الانفجار، ومن جراء الدوار، ووسط اختلاط الأمور، واهتزاز المواقع، وخشية الامتحان المقبل، كانت فكرة الاستقالة هي أول ما تبادر إلى ذهن العديد

من أطراف قمة السلطة، كان حديث «الاستقالات» هو عنوان التفكير - ربما الغريزي - في تلك الساعات الحاسمة في تركيبة السلطة الحاكمة.

وفيما كان جثمان عبد الناصر مسجى داخل ثلاجة بقصر القبة، كان على صبري نائبه ورئيس وزرائه ومدير مكتبه يفكر في الاستقالة والاعتزال..

في الوقت نفسه، وبدون ترتيب مسبق، كان ثلاثة من أهم أطراف القمة يفكرون التفكير نفسه..

كان شعراوي جمعة، ومعه سامي شرف، وأمين هويدي تسيطر عليهم فكرة الاستقالة، وأن يتركوا للقادم الجديد حرية اختيار رجاله..

كل واحد فيهم لم يكن ليرضى لنفسه أن يقال عنه: إنه رجل كل العصور..

كانت مشاعر الفقد تحركهم..

وكان غموض اللحظات المقبلة يثير داخلهم الشكوك..

فكروا معاً وسط مشاعر اليتم، أن يرحلوا عن السلطة.. بعد أن رحل قائدهم وزعيمهم..

ثم فكروا بصوت عالٍ أمام محمد حسنين هيكل في أمر الاستقالة، وبطريقة تثير علامة استفهام وأكثر من علامة تعجب..

محمود فوزي مساعد رئيس الجمهورية وعضو اللجنة التنفيذية العليا قدم استقالة مكتوبة..

وحسين الشافعي الوحيد إلى جوار أنور السادات من المتبقين من أعضاء مجلس قيادة الثورة في قمة السلطة طرح استقالته بدوره..

وكلهم تراجعوا - سريعاً - عن الاستقالة..

إلا واحداً كان مصراً على أن يخرج نفسه نهائياً من موقع الوزير الذي وجد نفسه - مضطراً - وبالأمر من عبد الناصر محبوساً فوق كرسيه..

الوحيد من بين الذين تحدثوا عن «الاستقالة» في تلك الآونة وكان صادقاً فيها، مصراً عليها هو محمد حسنين هيكل..

ولم تكن صدفة، ولا هي كانت مجرد رغبة شخصية أن يكون أول ما يفعله هيكل بعد رحيل عبد الناصر هو «الاستقالة»..

كانت الاستقالة هي قراره الذي لا رجعة فيه..

وكانت خياره الذي لا خيار آخر آمن له..

وكانت تخففاً من أحمال وجد نفسه يحملها اضطراراً، وانصياعاً لأمر من جمال عبد الناصر، والآن، وعبد الناصر غير موجود، فالفرار من الموقع هو القرار الصائب..

-٣-

كانت الساحة قد خلت من اللاعب الكبير، ضابط الإيقاع، مصدر القرار، الزعيم والقائد، وبدأ اللاعبون الصغار يجرب كل منهم حظه، وما تعلمه من «الرجل الكبير».

كانوا أربعة، علاقة اثنين منهم متميزة بحكم العمل اللصيق معاً طوال الفترة الماضية، هما شعراوي جمعة، وسامي شرف، وفيما بعد وأثناء تحقيقات قضية مايو سنة ١٩٧١ سيقول أحمد كامل رئيس المخابرات العامة الذي جاؤوا به إلى هذا الموقع : إن شعراوي اقنع سامي شرف بأنهما معاً يمكنهما أن يحكما البلد».

كان الأول هو وزير الداخلية القوي، وأمين تنظيم الاتحاد الاشتراكي وأمين تنظيم طليعة الاشتراكيين وكان بهذه الصفات، وتلك المواقع، يمسك بين أصابعه بالأمن الداخلي إضافة إلى التنظيم السياسي.

وكان الثاني هو وزير شؤون رئاسة الجمهورية الذي تدخل من مكتبه كل الأوراق إلى رئيس الجمهورية، وتخرج منه إلى الأجهزة، والوزارات، والجهات الحكومية.

وكانت علاقتهما مع الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة سواء بقربه منهما، لعلمه بقربهما من عبد الناصر، أو لقرابة تجمعه مع سامي شرف عاملاً مضافاً وربما خطيراً في رصيد السلطة الذي يدخل في حساب كل منهما ولهما معاً.

وكان رابعهم هو محمد حسنين هيكل..

كانوا هم سيف عبد الناصر..

وكان هو قلمه..

وكان قريباً من القمة، وواحداً من أفرادها القليلين ذوي التأثير البالغ في تلك اللحظة..

وكان الآخرون حولهم، أو معهم، أو ينافقونهم، أو يتجنبونهم ..

والجميع يعمل حسابهم، فقد كان المفهوم لدى الجماعات الأخرى، والأفراد الآخرين المؤثرين أو المتواجدين قرب دائرة صناعة القرار، أن «لجنة العمل» وخاصة شعراوي وسامي هي التي تملك القرار.

وكانت المرة الأولى التي يجدون فيها أنفسهم مسئولين عن اتخاذ القرارات الإستراتيجية من مثل: ما هي طبيعة المرحلة الجديدة، مرحلة ليس فيها عبد الناصر بعد حضور ١٨ عاماً، حضور طاغي بلا نظير؟، وهل يستمرون مع القادم الجديد؟، أم الأفضل لهم أن يدعوه يختار بنفسه رجاله؟، نرشح من؟، ونتفق على من؟، ونستبعد من؟

٤ـ

كان لسان حال الكثيرين يقول كما ذكر لي سامي شرف «هل من المناسب لنا نحن رجال عبد الناصر أن نعمل مع رئيس غيره، كائناً من كان هذا الرئيس؟»

ولذلك كثر المفكرون في الاستقالة، وقصة التفكير في الاستقالة ذكرها هيكل بطريقته ورد عليها أمين هويدي بطريقته أيضاً.

والتفاصيل تبدأ بعد انتهاء اجتماع دعا إليه السادات بصفته الرئيس المؤقت للبلاد لمجلس الدفاع الوطني لمناقشة العمل إزاء حلول موعد وقف إطلاق النار في نوفمبر، الذي كانت مصر قد وافقت عليه بعد قبولها لمبادرة روجرز[1]، وكان الاجتماع مساء يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٧٠.

---

(١) وليام روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة في حكومة الرئيس نيكسون من ٢٢ يناير سنة ١٩٦٩ إلى ٣ سبتمبر سنة ١٩٧٣.

يقول محمد حسنين هيكل:

في أثناء خروجنا من الاجتماع اقترب مني شعراوي جمعة وقال:

ـ أظن أننا يجب أن نذهب إلى مكان نجلس فيه ونتحدث أنت وأنا وسامي وأمين هويدي..

قلت:

ـ لا بأس..

وركبنا نحن الأربعة السيارة الرسمية لوزارة الداخلية المخصصة له، وجلس هو في المقعد الأمامي، بينما جلسنا نحن في المقعد الخلفي، وتبعتني سيارتي.

كان شعراوي وسامي وأمين هويدي اتفقوا على أن يقضوا الليل في مبنى هيئة قناة السويس في جاردن سيتي، ومن هناك يستطيعون بسهولة أن يصلوا إلى مبنى مجلس الثورة في الجزيرة، حيث يبدأ في تشييع الجنازة، أما أنا فكنت سأقضي الليل في منزلي على النيل مباشرة، وهكذا فإننا كلنا كنا متجهين الوجهة نفسها.

لكن عندما وصلنا إلى العباسية على بعد ٤ أميال من وسط المدينة، كان الميدان أصبح مغلقاً تماماً، وطلب شعراوي إلى السائق أن يتجه شمالاً، وأن يحاول السير في الطريق الخلفي الذي يمر بالقلعة، وعندما اقتربنا من أمام

كلية البوليس أوقف السيارة، والتفت ناحيتنا، وقال:

ـ أولئك الثلاثة، أنور السادات، وحسين الشافعي، وعلي صبري، ينزلون في قصر القبة، ويتصرفون كأنهم حكومة ثلاثية، مثلهم في ذلك مثل كويسغين، بودجورني، وبريجنيف[١]، بينما نحن الناصريين الحقيقيين، وأقرب الناس إلى عبد الناصر، لم نفعل شيئاً للتنسيق في ما بيننا، أو الاتفاق على أسلوب مشترك للعمل،

---

(١)استخدم شعراوي جمعة لفظة ترويكا، وهي عربة روسية خفيفة تجرها ثلاثة جياد، وقد استخدم مصطلح الترويكا، بعد خلع الرئيس خورتشوف حيث تولي ادارة البلاد ثلاثي مكون من ليونيد بريجينيف سكرتير عام الحزب الشيوعي السوفيتي، ونيكولاي بودجورني رئيس الدولة، وأليكسي كوسيجن رئيس الوزراء.

وهذا ما يجعلني أرى ضرورة البحث في الموقف بعضنا مع بعض..

فقلت له:

«لنكن واضحين بشأن موقف كلٍ منا، هناك نقطة نظام أضعها ونصيحة صغيرة أقدمها:

أما نقطة النظام فهي أنكم إذا كنتم تريدون التنسيق فيما بينكم بصفتكم وزراء فلا تفعلوا ذلك بحضوري لأني قد استقر رأيي على الخروج وترك الوزارة»..

أثار قولي غضباً شديداً لدى سامي شرف وقال:

ـ لا.. إما أن نخرج كلنا، أو نبقى كلنا..

فقلت: «إني لم أكن أبداً جزءاً من السلطة، كما هو الحال بالنسبة إليكم، كنت دائماً صحفياً، ولم أقبل منصب وزير الإرشاد، إلا تحت ضغط شديد من جانب عبد الناصر، وتعهدت بقبوله لمدة سنة فقط، وقد انقضت الآن ستة أشهر، وانتقل عبد الناصر إلى رحاب الله، وهكذا فقد قررت أن أتحلل من وعدي».. واعترض سامي بأني إذا فعلت ذلك فسأبدو كأني غير مستعد للعمل تحت رئاسة أي شخص آخر غير عبد الناصر، في حين أنهم سيظهرون في مظهر المستعد لخدمة أي شخص..

وقلت لسامي: إنه يبالغ، وأني اتخذت قراري بالخروج من الوزارة، وسأتمسك به، ولذا فإني لا أوافق على أن يتم أي تنسيق بين الوزراء في حضوري.

تلك كانت نقطة النظام، إما نصيحتي الصغيرة فهي أن من الخطأ بالنسبة لهم أن يحاولوا العمل معاً كناصريين، إن فعلتم ذلك، فإنكم، ولا شك، ستثيرون ردود فعل تؤدي في النهاية إلى صراع على السلطة، وإذا حدث تصادم في الآراء، فاني سأؤدي دوري فيه كصحفي، أما إذا نشب صراع على السلطة قائم على الأشخاص، فلن يكون لي شأن به، وستعاني البلاد كلها منه..

وازداد سامي انفعالاً وراح يصيح:

ـ عبد الناصر لم يمت..

فقلت له:

«اسمع لابد أن تواجه حقائق الطبيعة، إن الرجل مات، وسيحكم على كل منكم فقط، من الآن فصاعد بما يمكن أن يقدمه من أجل مصلحة البلد، إنها صفحة جديدة فتحت أمامكم جميعاً».

وبدأ سامي يبكي، ويصرخ بأننا إما أن نبقى كلنا أو نخرج كلنا..

وعندئذ فقدت أعصابي، ونزلت من السيارة، واتجهت إلى سيارتي، وكانت تقف وراء سيارة شعراوي مباشرة، وعدت إلى القاهرة»[1].

هذه رواية «هيكل» عن هذا اللقاء..

ولكن أمين هويدي له تعليق عليها، وهو يؤكد في البداية:

لم يمسني هيكل في حديثه من قريب أو بعيد، ولم يمسني الرجل في أحاديثه التليفزيونية التي أجراها عقب أحداث مايو سنة ١٩٧١، ولا مسني في مقالاته التي نشرها في «الأهرام» وهو رئيس تحرير له..

وكان من الحكمة ـ والحالة هكذا ـ أن أقفز فوق ما قيل وأعبره، كما يفعل الكثيرون، ولكني بذلك أكون كاتماً للشهادة، الأمر الذي نهانا عنه الله تعالى في كتابه العزيز، ثم لا أظنني أضير أحداً ـ حتى هيكل ـ بقولي ما حدث دون تحريف..

ويعود أمين هويدي ليؤكد أنه لم يكن ينتسب إلى «جماعة» أو «شلة» حتى من أيام جمال عبد الناصر..

ثم يبدأ في التعليق، فيسجل أن اللقاء لم يتم ـ كما قال هيكل ـ أمام كلية الشرطة، وبعد انتهاء الاجتماع الذي تم في مكتب وزير الحربية في كوبري القبة، ولكن بداية اللقاءات تمت في قصر القبة، فقد ذهبت أنا وشعراوي وسامي إلى القصر، لنرى سير الأمور في زيارة خاطفة، وتركنا سامي في الشرفة الخارجية لفترة طويلة، عاد بعدها فجأة ومعه هيكل، ولم أكن أعلم بوجوده في القصر، ولم أكن أعلم أن اتفاقاً

---

(١) كتاب «الطريق إلى رمضان» - دار النهار ـ بيروت - ١٩٧٥ - ص ١٠٢ وما بعدها.

تم بين ثلاثتهم على اللقاء.

وبذلك كنت الوحيد الذي يجهل أن اللقاء سوف يتم.

لم يتم الاجتماع بطريقة مفاجئة- كما يقول هيكل- ولكن باتفاق مسبق، فإنه من الجائز أن يكون قد اندفع بغريزته الصحفية لمثل هذا اللقاء، حتى يتحسس الأوضاع بنفسه، ربما لنفسه، وربما لغيره، وربما للغرضين معاً.

وليس في هذا عيب، فمن الحكمة أن يعرف كل فرد أين يضع قدمه، وعلى ما أذكر، فإن الاجتماع تم في مدخل مدينة نصر، وليس أمام كلية الشرطة، بالرغم من أن هذا لا يغير قليلاً أو كثيراً في الموضوع.

لم يلق هيكل أبداً بكل هذه النصيحة عن الناصرية، والسلطة، والصراع، ولم يتحدث شعراوي جمعة أبداً عن السادة: السادات، والشافعي، وعلي صبري، كما لم يتحدث عن «الترويكا» الروسية.

ولم يصرخ سامي، أو يبك، ولا هو أنكر وفاة عبد الناصر.. أبداً، لم يحدث شيء من هذا كما صوره هيكل في أسلوب غلبت عليه الإثارة الصحفية التي تبعث على التشويق.

ولكن كل ما ذكره شعراوي لهيكل هو أننا قررنا التخلي عقب تشييع الجنازة، وبعد انتقال السلطة بالطريقة الدستورية، وسأله عن رأيه في ذلك.

رحب« هيكل» أيما ترحيب بالفكرة، وذكر أيضاً أنه سيترك المنصب الوزاري ليتفرغ لرئاسة تحرير الأهرام، حيث كان الرجل يجمع بين المنصبين، مضيفاً أنه لكل زمن رجاله، وعلى الجميع أن يعيدوا النظر في أفكارهم، وسوف تتعدد اللقاءات في الأيام القادمة، وسلم الرجل واتجه إلى عربته، دون أن يفقد أعصابه، ودون أن يغضب، واتجه إلى منزله، واتجهنا نحن إلى مكتب سامي شرف..

وهناك انفجرت في الرجلين، لتوريطي في اجتماع لم أخطر به، وتساءلت عن سبب أخذ رأي هيكل في موضوع يتعلق برغبة كل واحدٍ منا، وبإرادته، ثم لم يكن الموضوع في حاجة إلى مناقشته في مدينة نصر، وكان الأفضل مناقشته في قصر

القبة، حيث كنا، أو في مكتب أي فردٍ فينا.

كنا قد اجتمعنا مراراً، وهذا أمر عادي، وقررنا أن نتخلى عقب نقل السلطة بالطريقة الدستورية، لنفسح المجال للسيد أنور السادات ليختار معاونيه، ولو أنني كنت مزمعاً على أن أتخلى في أقرب وقت ممكن، ورأى شعراوي أن يستشير هيكل في الأمر، لأن من عادته أنه كان يستشير هيكل وسامي في كل أمرٍ يقدم عليه.

وكما نرى فإن الموضوع الذي تم بسيط للغاية، ولكنه حسم بطريقة تلقي الظلال على النوايا، ولا شك أن هذه الظلال كانت بالضرورة تترك آثاراً في النفوس، تتعمق بمرور الأيام، وحتى لا ننسى كانت جثة عبد الناصر مازالت موجودة في قصر القبة، لم يتم تشييعها بعد إلى مثواها الأخير[1].

ما أراد أمين هويدي أن يقوله هو:

١ - أن هيكل أراد- لسبب ما- أن يلقي على اللقاء المذكور ظلالاً من الشك..

٢ - أن هيكل تعمد أن يضفي على روايته للواقعة بعض الفلفل الحار لزوم التشويق الصحفي..

٣- أن هيكل اختلق وقائع لم تحدث مثل بكاء سامي، وكلام شعراوي عن «الترويكا» المصرية الممثلة في أنور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري، ومثل كلام هيكل عن الصراع على السلطة، والنصائح التي قدمها للمجتمعين خلسة من وراء الآخرين..

٤ - أن هيكل لم يذكر النقطة الأهم التي كانت موضوع اللقاء وهدفه وهي اتفاق شعراوي وسامي شرف وأمين هويدي على الاستقالة عقب الانتهاء من إجراءات الجنازة..

والحق أن أي تقييم موضوعي للروايتين، رواية هيكل، ورواية هويدي، يجعلنا نميل أكثر إلى تصديق رواية هويدي، للأسباب التي ذكرها هويدي، ويمكن العودة

---

(١)مع عبد الناصر - أمين هويدي - دار الوحدة- بيروت - ١٩٨٤ - من ص ١٩٣ إلى ص ٢٠١)

إلى قراءة روايته للوقوف عليها، وهي للحق مقنعة..

إلى أسباب هويدي هناك أسباب أخرى:

- أن هيكل، المنغمس في الصراع الذي دار حول قمة السلطة قبل رحيل جمال عبد الناصر، ومن بعد رحيله، له مصلحة مؤكدة في تأكيد صحة المواقف التي اتخذها خلال مراحل هذا الصراع..

- أن هيكل الذي غض الطرف عن السبب الحقيقي للقاء- أو على الأقل السبب المعلن- أراد أن يثير الشكوك حول نوايا كل من شعراوي جمعة وسامي شرف اللذين أرادا حسب روايته تشكيل تحالف الناصريين الحقيقيين في مواجهة الآخرين الذين يتصورون أنفسهم خلفاء جمال عبد الناصر..

- أن هيكل أراد القول أن نية التخطيط والتحرك كجماعة هي نية مبيته من قبل كل من شعراوي جمعة وسامي شرف منذ اللحظات الأولى لرحيل عبد الناصر، وهو قول لا يراعي حجم مأساة الرحيل الفجائي على الجميع، خاصة وأن جثمان الرجل لم يكن قد غادر قصر الرئاسة بعد.

- والأسوأ أن هيكل نسب لنفسه الكلام الذي ذكره الآخرون، ولم يذكر الكلام الذي قاله فعلاً، حيث أبلغوه اتجاه نيتهم إلى تقديم استقالاتهم إلى القادم الجديد، وأيدهم هو فيما اتجهت إليه نواياهم، وأعلن أنه بدوره سيقدم استقالته من وزارة الإعلام ليتفرغ لرئاسة الأهرام..

ونخلص إلى أن الحديث في اللقاء جرى من جميع أطرافه على وتيرة واحدة، هي وتيرة تقديم الاستقالة إلى الرئيس الجديد الذي سيخلف عبد الناصر..

والغريب الذي يجب أن نلاحظه في الروايتين أن أحداً من الحاضرين لم يذكر ولو كلمة واحدة عن هذا القادم الجديد، وأنه لم يكن موضوعا للنقاش بينهم وهذا سبب آخر يجعلنا نميل أكثر إلى رواية هويدي، وأن نغفل الاحتكام إلى رواية هيكل، إلا إذا كان الغرض هو التعرف على دور هيكل في الأحداث فيما بعد رحيل عبد الناصر..

-٥-

كانت المناورات قد بدأت من الجميع لجس النبض..

ورغم ترحيب هيكل بفكرة أن يستقيل شعرواي وسامي فان أحداً منهما لم يتقدم باستقالته..

ولكن الاستقالات توالت واحدة تلو الأخرى من الآخرين..

وكان محمود فوزي هو أول من تقدم باستقالته أمام الاجتماع الأول للجنة التنفيذية العليا الذي ناقش اختيار السادات لرئاسة الجمهورية، بعد انتهاء المناقشة أخرج الدكتور محمود فوزي ورقة مكتوبة من جيبه وقال: إنها استقالته وعزاها إلى تقدمه في السن حيث كان قد تجاوز السبعين بما يعجزه ـ حسب قوله - عن الاستمرار في حمل المسؤولية، ورغبة منه في الخلود إلى الراحة..

وكانت مفاجأة مست الحرص على كل مظاهر وحدة الصف، وإجماع الرأي، خاصة على مستوى القيادة العليا، وناقشه أعضاء اللجنة العليا جميعاً، وراجعوه في استقالته، وكذلك فعل أنورالسادات، وإزاء ذلك قرر الدكتور فوزي أن يسحب الاستقالة.

وحسب تفسير أمين هويدي أيضاً فيبدو أن محمود فوزي كان متأثراً من عدم دعوته لحضور أول اجتماع مع الوفد السوفيتي الذي كان يزور القاهرة معزياً في وفاة الرئيس عبد الناصر، ومن ثم أراد أن يعرف وضعه في النظام الجديد»

سحبها سريعاً، وكان قد اطمأن إلى الموقف من تواجده..

وفيما بعد استدعاه السادات لكي يرأس أول وزارة في عهده..(!)

الاستقالة الثانية كانت احتجاجية، قدمها حسين الشافعي بعد الاستقرار على ترشيح السادات لرئاسة الجمهورية، وكان يطمع في الموقع، وسعى إلى ذلك ما وسعه السعي..

أمين هويدي يقدم تفسيراً لهذه الاستقالة:

امتنع السيد حسين الشافعي بعد أن أعلن عن استقالته عن حضور اجتماع

للجنة المركزية الذي كان ستتم فيه مناقشة قرار اللجنة التنفيذية بترشيح السادات، وكان ستتم فيه مناقشة تمسكه بمنصب رئاسة الوزراء طالما أن السيد أنور السادات رشح لرئاسة الجمهورية، ويبدو أن أحداً لم يتصل بسيادته بخصوص هذه الاستقالة، وبالرغم من ذلك سحبها في اليوم التالي».

لم يكن السادات يقيم وزناً لحسين الشافعي، حتى أنه عندما علم باستقالته قال:

- اتركوه..لن يستطيع أن يبتعد كثيراً عن السلطة، وسيرجع عن استقالته..

وهو ما حدث فعلاً..

ولكن استقالة هيكل كانت مختلفة ..

مختلفة في أسبابها ودوافعها..

كما كانت استقالة مميزة بكافة المقاييس..

-٦-

بعد أقل من أسبوع على رحيل عبد الناصر، بالتحديد ليلة الرابع من أكتوبر سنة ١٩٧٠، كان هيكل يسهر مع السادات في منزله، وامتدت مناقشتهما ست ساعات حتى الفجر.

في تلك الليلة، كان هيكل يريد أن يفلت من موقع الوزير الذي حبسوه فيه..

كان يعرف أنه لو بقي في منصبه كوزير، فإنه سيدخل في صراعات مع بعض الأعضاء البارزين في الوزارة، وفي الاتحاد الاشتراكي، وفي مجلس الأمة، ولن يكون في هذه الحالة إلا عائقاً في طريق الرئيس الجديد، في حين أنه يستطيع من مكانه في تحرير الأهرام، أن يكون سنداً مفيداً، كما أخبر السادات في ذلك اللقاء..

وحاول السادات أن يثني هيكل عن الاستقالة..

كان يريده إلى جانبه في تلك الأوقات العصيبة..

ولو إلى ما بعد الانتهاء من الاستفتاء الذي يثبته في منصب الرئيس، وكان موعده ١٥ أكتوبر، وقال له:

- «ماذا يقول الناس إذا عرفوا أن أقرب شخص إلى جمال عبد الناصر استقال

بعد ثلاثة أيام من رئاسة أنور السادات»..

واتفقا على واقعية قرار خروج هيكل من الوزارة، ليكون في موقع أكثر تـأثيراً في الأحداث من خلال موقعه في الأهرام، وكان شرط السـادات عليـه أن يبقـى حتـى يدير معركته الانتخابية للاستفتاء..

واشترط عليه هيكل في المقابل شرطاً..

وكان شرط هيكل أن يكتب السادات رداً على كتاب استقالته من الوزارة..

ليس هذا فقط..

وأن ينشر خطاب الاستقالة ورد السادات عليه يوم ظهور نتيجة الاستفتاء..

ووافق السادات، فلم يكن يملك ـ ساعتئذ ـ ترف أن يـرفض ولكنـه ـ بطريقتـه المعهودة - راح يقدم تبريراً غريباً لأول سابقة من نوعها في استقالات الوزراء..

تبريره الغريب قالـه لموسـى صـبري في حـديث تليفـوني وكـان السـادات هـو الطالب:

- سأقول لك خبرا احتفظ به سراً، هيكل قدم استقالته من وزارة الإعلام، وأنـا قبلتها على الفور، ولكنني سأحفظ له (برسـتيجه)، وسـأرد عـلى اسـتقالته بكتـاب شكر»(!)

-٧-

لماذا كل هذا الحرص من هيكل على ترك الوزارة فور رحيل عبد الناصر ؟

لماذا كل هذا الإصرار على مغادرة كرسي الوزير؟

هيكل يجيب أنه لم يكن يريد (أو لعله كان يخشى) الدخول في صراع يراه قادمـاً مع أعضاء بارزين من الحكومة، والتنظيم السياسي، ومجلس الأمة..

ثم أنه وجد منذ اللحظة الأولى أنه سيكون أكثر فائـدة للسـادات مـن موقعـه في «الأهرام» بعيداً عن الصراعات[1].

---

(١) كتاب «الطريق إلى رمضان» ص ١٠٩.

ولكن لماذا كان هيكل متيقناً من أن الأمور صائرة إلى صراع عند قمة السلطة؟
الحقيقة أن جذور الخلاف كانت أبعد من لحظة رحيل عبد الناصر..
بل كان الصراع قد اشتد أواره فعلا في حياة عبد الناصر..

كان المشير عبد الحكيم عامر هو مركز القوة الأول بعد أن ضمن ولاء الجيش له ولاءً شخصياً، وأحكم قبضته على الجيش، وعلى جهاز المخابرات، وصارت القوات المسلحة أقرب ما تكون إلى عزبة خاصة له ولرجاله، وعلى رأسهم شمس بدران، يتصرفون فيها كأمراء إقطاعيين، يتدخلون في السياسة، وفي الحياة المدنية، ويدسون أنوفهم في كل شيء، وكانوا يرون أنهم حكام البلاد، وأن الجيش هو معمل تفريخ القيادات حتى صاروا هم الوزراء والمحافظين ورؤساء مجالس إدارات الشركات ورؤساء مجالس إدارات الأندية الرياضية، وأعضاء السلك الدبلوماسي..

هذا التضخم في الذات، وفي الصلاحيات، والسلطات، جعل بقية المراكز(من خارج جماعة المشير) أقل أهمية، و بالتالي فصراعاتها لم تكن واضحة بشكل كاف، لأنها صارت صراعات السلم الخلفي، فيما كانت جماعة المشير تحتل مقدمة الصورة الأمامية للحكم والنفوذ..

وبعد أن أصبح على صبري أميناً عاماً للاتحاد الاشتراكي في عام ١٩٦٦، ازداد نفوذه تحت جناح عبد الناصر الذي رأى أهمية لإعطاء دفعة قوية للاتحاد الاشتراكي، وإيجاد تنظيم سياسي قوي ليخلق توازناً مع دور القوات المسلحة المتفاقم في الحياة المدنية..

وكانت المجموعة العسكرية تتوجس من تصاعد نشاط الاتحاد الاشتراكي، ونجحوا في إلحاق الهزيمة به، وببعض أجهزته قبيل نكسة يونيو سنة ١٩٦٧.

ولكن اختلف الأمر بعد النكسة، واتخذ عبد الناصر أول قراراته بعد عودته عن قرار التنحي عن السلطة بتصفية نفوذ المشير، وجماعته..

وبعد تصفية المشير عبد الحكيم عامر وشمس بدران وجماعتهما، في أعقاب

النكسة ظهر على السطح بقوة ما كان معروفاً في أروقة الحكم عن وجود صراع مكتوم بين على صبري وجماعة الاتحاد الاشتراكي، وبين محمد حسنين هيكل..

لم يتخذ هذا الصراع أبعاداً واضحة وملموسة، ولم يسمع له ضجيج إلا مع المقال الذي نشر يوم ٨ أغسطس سنة ١٩٦٧ بتوقيع الدكتور محمد أنيس أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة القاهرة، وكان له وقع الصاعقة في الصحافة المصرية..

كان المقال قد جاء ضمن حملة تكاد تكون عامة، شملت الكثيرين من القيادات السياسية، والكتاب والصحافيين من اتجاهات متعددة، وإن كانت في الأغلب يسارية، وتخالف هيكل في توجهاته الرئيسية..

ولم يكن قادة الاتحاد الاشتراكي إلا جزء من الرفض العام للتوجهات التي يمثلها هيكل..

وكانت صورة هيكل لدى اليسار لها أربعة أبعاد [(١)]:

أولها : أنه معادي للاشتراكية..

وثانيها : أنه معادي للعلاقات المصرية السوفيتية..

وثالثها : أن علاقته بعبد الناصر لها مردود سلبي على القوى الوطنية..

ورابعها : أنه موالي للأمريكان..

فقد كانت علاقاته مع الإدارة الأمريكية قوية باستمرار، وكان كثير الحديث عن تعديل العلاقة مع الأمريكان، وكان في صف تقوية هذه العلاقات، حتى أن البعض تساءل عندما تم القبض على مصطفى أمين: ولماذا تركوا هيكل؟

ولعل القضيتين الرئيسيتين اللتين أثارهما هيكل في تلك الفترة وأثارتا الكثير من الردود عليه هما :

- الدعوة إلى تحييد أمريكا..
- المجتمع المفتوح..

---

(١) حسب توصيف الكاتب اليساري حسين عبد الرازق في حوار مع المؤلف.

يقول الكاتب الصحافي محمد سيد أحمد كانت مرارة الهزيمة، قد بلغت الذروة وبمجرد الإفاقة من هول الصدمة، استثارت المعاناة ومضات يقظة تراجع التفكير في كل شيء، وتقيم وتمتحن كل شيء، وتتحدى أنماط وقوالب الفكر التي استقرت، بل تتحدى شخصيات لم ينلها قلم بالنقد من قبل، كانت لحظة تأمل بالغة الثراء..

وكان هيكل على رأس الذين نالهم التحدي البازغ من هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧، وبدأ الحديث عنه باعتباره واحداً ممن دأبوا في مقالتهم الأخيرة إلى إشاعة البلبلة، في دوائر الرأي العام العربي كله، حول مستقبل الثورة والمعركة، كما جاء في مقال الدكتور أنيس الصاعق.

وهو المقال الذي يقرر فيه الدكتور أنيس أن ما يكتبه « رئيس تحرير جريدة ما في الجمهورية العربية المتحدة لا يعبر إلا عن رأي صاحبه، ولا يمثل الرأي الرسمي ».

ولا شك أن نشر مثل هذا الكلام في ذلك الوقت كان مفاجأة بكل المقاييس، إذ كان واضحاً أن رئيس التحرير المقصود هو محمد حسنين هيكل، وكانت علاقته الوطيدة والمستقرة بالرئيس عبد الناصر أمراً لا يكتنفه غموض..

وكال الدكتور أنيس العديد من الاتهامات إلى هيكل..

كان الاتهام الأول أن بعض مقالات الصحافي الكبير تحمل :« شئنا أو لم نشأ، دعوة إلى تصفية الثورة الاجتماعية، وإن اتخذت شكل المتابعة بتقنين الوضع الراهن. لماذا ؟ لأن التقنين يأتي في ظروف عادية، ولا تأتي الدعوة إليه في ظروف معركة ضد الاستعمار، حيث تفرض ظروف المعركة حتماً إجراءات طوارئ تخدم حرية العمل الثوري، ولا تكون قيداً عليه، و بصراحة فالقضية المطروحة الآن على وجه التحديد هي: التمسك بالثورة، أم الانتكاس بها.

ولذلك ففي ظروف المعركة التي تقودها أمتنا العربية، تصبح كل دعوة إلى التقنين قيداً على حرية العمل الثوري. وسيظل الناس يتساءلون لماذا ترتفع بعض الأصوات الآن بالذات مطالبة بتقنين الأوضاع الراهنة ؟ هذا على افتراض أن أبعاد التقنين التي طرحت كرفع الحراسة، واستقلال مدارس الدولة، واستقلال الجامعة هنا يعني

الاستقلال عن المخطط الاشتراكي للدولة، الذي هو العمود الفقري لثورتنا وسيجرنا منطق الاستقلال هذا حتماً عاجلاً أو آجلاً إلى مناقشة استقلال الصناعة، فالتجارة، وفي النهاية تصفية الثورة الاشتراكية وسواء شاء أصحاب هذه الدعوة أو لم يشاءوا، فإن دعوة الاستقلال في مضمونها من ناحية، وفي توقيتها من ناحية أخرى، وهو الأخطر، تجر الثورة جراً إلى مواقع انتكاسية، وستقف جماهير شعبنا العظيم، وتقف القيادة الثورية بكل حسم في مواجهة هذا التيار، إدراكاً منها لخطورة ما يمكن أن ينتهي إليه ».

ولكن الاتهام الأهم الذي وجهه الدكتور محمد أنيس إلى محمد حسنين هيكل، كان حول ما أورده هيكل :« في بعض مقالاته عن موقف أمريكا من الثورة، فقد طرحت قضية تصفية المعركة على النحو التالي : أن المعركة مع إسرائيل هي معركة مع أمريكا، ولكننا لا نستطيع مناطحة أمريكا، لأنها أقوى دولة في العالم. أن طرح القضية على هذا النحو فقط لا يمكن أن يفهم منه إلا أمر واحد، هو إعلان صريح يقول : إننا لا نستطيع الاستمرار في المعركة، ولا سبيل أمامنا إلا الاستسلام».

كان عبد الناصر يتابع من بعيد، وحدث أن التقى الدكتور إبراهيم سعد الدين في هذه الأثناء مع عبد الناصر فقال له الرئيس :

-« تصورت أنك أنت اللي ها ترد على هيكل

وكتب إبراهيم سعد الدين يرد على هيكل.

- ٨ -

كان هيكل يعبر عن آرائه التي ضمن عبد الناصر له حرية طرحها، وإن كانت تخالف رأيه، ولكنه قال له دافع عن نفسك..

أصبح محمد حسنين هيكل معرضاً للنقد العلني بل أن لجان الاتحاد الاشتراكي لم تكن تتورع عن مناقشة مقالات هيكل أسبوعياً، ومعارضة ما فيها من اتجاهات، اعتبرها البعض مؤثرة على صلابة الجبهة الداخلية، ومضعفة للروح المعنوية، وباعثة على ممالأة حكومة الولايات المتحدة تحت شعار «محاولة تحييد أمريكا».

وطفا الخلاف بين الاتحاد الاشتراكي ومسؤوله القوي على صبري، وبين

محمد حسنين هيكل على السطح، وأصبحت المبارزة بينهما مشهداً تتابعه الجماهير المرتبطة بالسياسة، وتعلق عليه.

وقرر هيكل أن يخطو خطوة إلى الأمام في مواجهاته مع الأجهزة التي تصور أنها مدفوعة للهجوم علية من خصوم له من المتواجدين في محيط قمة السلطة، فأثارت الأهرام اعتراضات شتى على سلطة الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء، وعلى أسلوب الاعتقال وزوار الفجر، وعلى عدم وجود حدود مرسومة لجهاز المخابرات، مطالبة بأن يكون الحبس الاحتياطي والاعتقال في أضيق نطاق ومحاطاً بكافة الضمانات.

وكانت هذه أول مقالة تهاجم علناً وصراحة جهاز المخابرات، وهو أمر ما كان يمكن أن يحدث بهذه الصورة قبل الهزيمة.

الظاهرة البارزة في هذا الصراع الحواري أنه يعطي دلالة على أن النقد حتى لأكثر الأجهزة خطراً لم يعد محظوراً..

وبعد أيام من نشر هذا النقد العنيف، نشر محمد حسنين هيكل مقالين بتاريخ ١٨، ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٨ في الأهرام يدعو فيهما إلى «المجتمع المفتوح»، ويرد محمود أمين العالم عليه بمقالات أخرى في «أخبار اليوم» مناقشاً فكرة المجتمع المفتوح في الدول الاشتراكية.

وكذلك كتب عدد من السياسيين مثل ضياء الدين داود والدكتور محمد أنيس وعبد الهادي ناصف في جريدة «الجمهورية» مقالات مضادة للآراء التي ينشرها هيكل في «الأهرام»، واستمرت المعركة، وبدا أنها انحصرت بين هيكل، وقيادات الاتحاد الاشتراكي، رغم اتساع رقعة الرافضين لأراء هيكل في ذلك الوقت، إلا أنه نجح في تصويرها على هذا النحو..

وأخذ هيكل صورة المعارض للاتحاد الاشتراكي الرافض لدوره المتغلغل في الحياة العامة..

وتأكد لقيادات الاتحاد أن هيكل خصم يجب تحجيم تأثيره بسبب قربه الشديد من الرئيس.

الاستقالة
المحتومة



-١-

كان من النتائج المباشرة لتصفية المجموعة العسكرية صعود نجم كل من شعراوي جمعة وسامي شرف..

تسلم شعراوي جمعة بعد إطاحة علي صبري أمانة التنظيم بالاتحاد الاشتراكي، كما أنيطت به لفترة طويلة مهمة حماية النظام في الداخل من أي تحرك قد تقوم به بعض العناصر العسكرية بعد الهزيمة وانتحار المشير، وكانت قوات الأمن المركزي إضافة إلى قوات الحرس الجمهوري هي المعدة للتصدي لأي محاولة انقلابية من بقايا جماعة المشير.

وازداد نفوذ سامي شرف وأصبح مهيمناً على أجهزة الأمن القومي، وتتجمع لديه المعلومات بصفته سكرتير الرئيس للمعلومات..

وكانت علاقة كل من شعراوي جمعة وسامي شرف بالرئيس عبد الناصر مباشرة، وتكرست في أيديهما الكثير من السلطات.

وبينما استمر الصراع بين الخصوم القدامى؛ علي صبري، وهيكل، نشأ على جانب آخر تنافس محموم بين هيكل من ناحية، وبين النجمين الصاعدين بقوة، ما جعل كلاً من سامي شرف وشعراوي جمعة يميلان إلى جانب علي صبري في الصراع، وهكذا وقف الاتحاد الاشتراكي ضد هيكل.

كان الصراع على النفوذ يشتد أواره يوماً بعد يوم تحت جناح الزعيم..

وبدأ هيكل يحتضن مجموعة كبيرة من الشيوعيين في الأهرام ـ وخاصة في مجلة الطليعة ـ ويوفر لهم إمكانيات كبيرة، وراح يحول «الأهرام» إلى مؤسسة ضخمة، استعان فيها بأسماء كبيرة ومؤثرة، وأصبح بإمكانه أن يؤدي مجموعة خدمات عديدة لعبد الناصر، من حيث كمية المعلومات ونوعيتها وتحليلها منافساً بذلك أجهزة الدولة..

كانت علاقة هيكل المباشرة بعبد الناصر، وتمكنه أن ينقل له أي شئ دون المرور بسامي شرف أو شعراوي أو علي صبري، تثير حنق وغيظ هذه المجموعة،

التي لا ترحب أن يحظى إنسان غيرها بمثل هذه الحظوة لدى عبد الناصر..

وحاول كل طرف النيل من الطرف الآخر، فالمخابرات تلقي القبض على الدكتور جمال العطيفي المستشار القانوني لمؤسسة الأهرام، وهيكل يرد بالهجوم على أساليب المخابرات وزوار الفجر..

وتشن قيادات الاتحاد الاشتراكي هجوماً ضارياً على هيكل في اجتماعات رسمية بسبب مقالاته التي كتبها عن ضرورة «تحييد أمريكا» وعدم مناطحة الثور الأمريكي..

وينطلق عدد لا بأس به من الكتاب ينقدون آراء هيكل علناً وفي الصحف..

وبدا الأمر وكأن هناك حملة منظمة، بلغت من القوة بحيث اعتقد الكثيرون أنها بإيعاز من عبد الناصر نفسه كتمهيد للتخلص من هيكل..

كانت شكوى قيادات وقواعد الاتحاد الاشتراكي أن الجماهير تعيش في حالة بلبلة بسبب مقالات هيكل، وفي هذه الأثناء عقد اجتماع للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي في مايو سنة ١٩٦٨،وشن عدد من أعضاء اللجنة هجوماً عنيفاً ضد هيكل الذي كان حاضراً الاجتماع، ولكنه لم يدافع عن نفسه..

ودارت مناقشة اشترك فيها عبد الناصر بخصوص مقالات هيكل، ووافق على كثير من النقد الذي كان موجها للمقالات، وقال عبد الناصر: إنه منذ الآن لن تنفرد «الأهرام» بنشر الأخبار الهامة، وسيكون ذلك من حق الصحف الأخرى، وتم إسناد الإشراف السياسي على دور الصحف إلى أعضاء اللجنة التنفيذية العليا، بحيث أصبحت كل مؤسسة من اختصاص عضو باللجنة واختار عبد الناصر، أن تكون الأهرام تابعة لإشرافه..

وبعدها طلب شعراوي جمعة ـ أمين التنظيم ووزير الداخلية ـ من الاتحاد الاشتراكي التوقف عن مهاجمة هيكل.

وبعدها أيضا ذهب عبد الناصر لافتتاح المبنى الجديد للأهرام، واجتمع بعدد من كتابه اجتماعاً طويلاً، وكانت رسالة إلى الجميع.

-٢-

جاءت الفرصة إلى هيكل تسعى من حيث لا يتوقع أو يتحسب لكي يقوم بتسديد ضربة إلى الاتحاد الاشتراكي ممثلة في علي صبري..

في سبتمبر سنة ١٩٦٩ انفردت جريدة «الأهرام» بنشر خبر يقول: إن علي صبري قام بجلب كميات من البضائع من الاتحاد السوفيتي أثناء وجوده هناك ضمن أحد الوفود الرسمية، وأن هذه البضائع أدخلت دون دفع الرسوم الجمركية عليها.

كانت العناوين الرئيسية بالصفحة الأولى تقول:

- قيام سلطات الجمارك باحتجاز سلع وبضائع استهلاكية واردة باسم علي صبري.

- استخدمت سيارات الاتحاد الاشتراكي لنقلها وبدون دفع رسوم..

وقد أجبر علي صبري على دفع الرسوم..

وقيل: إن هذه الأشياء لا تخصه وإنما تخص السيدة حرمه..

كانت الضربة قاتلة، تستهدف القضاء على المستقبل السياسي لعلي صبري..

وجعلت طريقة نشر الخبر بعض لجان الاتحاد الاشتراكي تدعو إلى مناقشة الموضوع، واستقر الرأي على أن النشر بالطريقة التي حدث بها لم يكن سليماً، وأنه في حالة صحة الخبر وبفرض حدوث خطأ من علي صبري فقد كان من الواجب أن يحاكم في الاتحاد الاشتراكي، ويفصل من التنظيم لا أن يشهر به..

وفي اجتماع لجنة الإعلام بالتنظيم الطليعي برئاسة محمد فائق وزير الإعلام، أثير نفس الموضوع بطريقة استنكارية، وشرح محمد فائق قصة هذه الحقائب، فقال: إنها لم تكن تخص علي صبري، ولكن حدث لبس عندما أرسل سكرتير علي صبري من موسكو قبل السفر إشارة رسمية تقول: «أرسلوا لوري للعفش»، وكان المقصود حقائب الوفد كله.. وأن الحقائب فتحت بعد صدور أوامر من عبد الناصر بذلك، وجرى تفتيشها، ولم يوجد ضمنها أي أشياء ممنوعة..

وأعلن فائق أن علي صبري قرر أن يدفع كل المستحقات الجمركية على كل ما تحمله حقائب بقية أعضاء الوفد.

لم يكن دور هيكل في قضية علي صبري أكثر من المخلب الذي ترك ينقض على فريسة يتمناها، ولكن الذين سمحوا بذلك كانت لهم أهداف في أن يضرجوها في الدماء.

استغل هيكل الواقعة على نطاق واسع، ولم يكن مدبرها، وكان واضحاً أنه لم يكن ممكناً أن تتم إلا بموافقة عبد الناصر شخصياً.

-٣-

وجرى تحجيم علي صبري وتقلص دوره الحقيقي تحت جناح عبد الناصر، ورغم أن الرئيس منحه رتبة فريق أول شرفية وجعله مشرفاً على القوات الجوية، ولكنه خلعه من التأثير المباشر في القوات المسلحة بتحذير محمد فوزي وزير الحربية والقائد العام من أن يترك علي صبري يتصل فعلياً بالقوات.

وبعدها جرى تعيين أنور السادات نائباً للرئيس في ظل إعادة توزيع المقاعد داخل محيط قمة السلطة، وبعدها -أيضا- أجرى عبد الناصر تعديلاً وزارياً في سنة ١٩٧٠ وأدخل هيكل وزيراً للإعلام وسامي شرف وزيراً لرياسة الجمهورية.

يقول السادات:

-هيكل كان في قمة الانهيار، وخاصة أنه لم يفهم عندما فوجئ بالتعديل، هل سيبقى في الأهرام أم لا، والأهرام طبعاً أهم من الوزارة.

ويضيف السادات :

في ذلك اليوم اتصل بي جمال تليفونياً في بيتي بالهرم وسألني رأيي في التعديل الوزاري.

وقلت : كويس

وكان تعليقه :

- خلي يا أخي مراكز القوى تطلع على السطح، وخليهم يشيلوا مسؤولية أمام

البلد، وكان هيكل يخشى إخراجه من الأهرام وإخراجه من الوزارة بعد ذلك؛ لأن هيكل أول من يعلم أنه من عادة عبد الناصر أن يقسم قراراته، ويظهرها قراراً بعد قرار، وكان ضائقاً من أنه وضع في مرتبة واحدة مع سامي شرف.

عبد الناصر باغت هيكل وكان يقصد مباغتته على مرأى ومسمع من الجميع، قال لسامي « يعلن القرار قبل أن يعرف هيكل » واتصل بمحمد فائق وأكد عليه المعنى نفسه.

كان يريد أن يخرج دور هيكل وتأثيره في صنع القرار إلى السطح، ويضعه القرار في متناول التنافس مع رجال الحكم، وفي الوقت نفسه أخرج معه سامي شرف.

كان حريصاً على أن تأتي أقدميته في قرار التعديل الوزاري بعد سامي شرف رغم ـ وكما قال سامي شرف لي - أن هيكل رئيس مؤسسة وبذلك تكون أقدميته أكبر منه ، ولكن عبد الناصر قال له:

ـ أنا الذي أحدد الأقدمية.

ـ٤ـ

كان هيكل كتب مقاله يوم الجمعة ٢٤ أبريل سنة ١٩٧٠ عن « نوايا أمريكا تجاه الأزمة »، ولكنه لم يكن يعلم نوايا رئيسه بتعيينه وزيراً، وفوجئ يوم الأحد ٢٦ أبريل بإذاعة قرار تعيينه وزيراً للإرشاد، فامتنع عن كتابة مقاله الأسبوعي الذي كان مقرراً له يوم ١ مايو، ثم عاد ليكتب ما أسماه «إيضاحاً» حول قرار تعيينه وملابسات القرار، ورأيه فيه، ورأي عبد الناصر، وما قبله منه وما رفضه.

في الوقت الذي امتنع فيه هيكل عن كتابة مقاله "بصراحة"، واعتكف في عزبته بالمنصورية، بدأت الوقائع تتلاحق متصاعدة، هو غاضب من القرار وأعلن ذلك لأنور السادات، ومن حوله كلهم علموا بالخبر وعرفوا ـ وهذا هو الأهم ـ أنه لم يكن يعلم بالخبر، لا من بعيد ولا من قريب، ثم فوجئوا جميعاً ـ العاملون معه ـ بأنهم يمكن أن يتأثروا من جراء هذا القرار وقد كان هيكل يمثل لهم صمام أمان، ونقطة حماية مقربة.

وخوفاً من تداعي الموقف، فكروا مع هيكل، أو فكر هو أمامهم بصوت مسموع، وتمت الموافقة على الكتابة إلى جمال عبد الناصر، كان ذلك عنصر ضغط أدبي على الرجل، عندما فقدت الصلة والقرب بينهما قدرتها على أن تحميه من هذا القرار.

اعترف هيكل أنه لم يكن يعلم بالقرار قبل إعلانه..

وكانت صدمة مزدوجة لهيكل...

تسبقه الأخبار ...

وهي ليست أي أخبار، ولم يستطع الصحافي المطلع على الأسرار أن يعرف خبراً بهذا الحجم، والأنكى أنه هو بطل الخبر..

هيكل نفسه يقول:

ـ «وفوجئت بمن يقول أن إذاعة القاهرة أذاعت قراراً بتعييني وزيراً للإرشاد...

وكان سبب المفاجأة أنني كنت قبل صدور القرار بعدة ساعات أتحدث مع الرئيس جمال عبد الناصر، وطال الحديث، وتعددت موضوعاته، ولم تجئ مسألة الوزارة خلاله تصريحاً أو تلميحاً، ثم استأذنته في يوم أقضيه بعيداً عن القاهرة وأذن لي...

ثم إذا بي أسمع نقلاً عن الإذاعة أن قراراً صدر بتعييني وزيراً...

وعدت إلى القاهرة بأسرع ما أستطيع، ورتبت أفكاري، وكتبت له لأول مرة في علاقتنا الطويلة الوطيدة خطاباً، وكنت دائماً عزوفاً عن الكتابة إليه أوثر أن أقول له كل ما أريد مباشرة...

وأعترف بأن التوتر أصابني يوم أصدر عبد الناصر القرار بتعييني وزيراً للإعلام، يومها كنت في بلدة « برقاش » وعدت إلى الأهرام فبعثت برسالة اعتذار لعبد الناصر عن هذا المنصب، وفي اليوم التالي جاءني السادات وكان يوم شم النسيم سنة ١٩٧٠، في محاولته لإقناعي بقبول المنصب الوزاري، وأبلغني بأن عبد الناصر قال له إنه لا مجال لقبول الاعتذار.

أرسلت له هذاالخطاب إلى بيته... ثم بقيت في مكتبي أنتظر كلمة منه..

ولم يبق بعد ذلك مجال لأي شيء آخر - بالنسبة لي- غير أن أصدع لأمره وأطيع، على وعد منه بأن تكليفي بما كلفني به لن يطول أكثر من ستة أشهر كحد أدني وسنة كاملة كحد أقصي».

مجموعة مايو كلهم يجمعون على أن عبد الناصر أراد أن « يخلص » من وجع الدماغ الذي سببه له هيكل من كثرة انتقاداته لأوضاع الإعلام.

بمنطق إذا كانت لك انتقادات، ولك تصور للكيفية التي يجب أن يكون عليها الإعلام، فتعالى لكي تحقق ما تتحدث عنه « وورينا شطارتك ».

هل أراده إلى جانبه في العلن بعدما طال وجوده إلى جواره في الظل...

هل أراده إلى جانبه في المسائل الداخلية خاصة لكي يطمئن على سيرها كما يجب أن تكون، لأنه كان يعرف كيف يفكر عبد الناصر..

هل كان يرتب الأوضاع داخلياً بطريقة ما في ظل مرضه، وأراد هيكل داخل مجموعة الحكم، بوزن نسبي معقول، وعلى مقعد من المقاعد الرئيسية في الوزارة.

-٥-

كان ضمن ممانعة هيكل لقرار توزيره أنه عندما علم بالقرار أسرع إلى توفيق الحكيم، وطلب منه أن يقابل الرئيس، ويحاول إقناعه بأهمية وجود هيكل في الأهرام...

كان هيكل يعلم أن الرئيس سوف يستجيب للحكيم لأنه يقدره ويحترم رأيه..

وقبل الحكيم أن يكتب رسالة إلى عبد الناصر يضمنها رأيه في أن المصلحة تقتضي بقاء هيكل في رئاسة تحرير الأهرام، وأخرج على حمدي الجمال الذي كان مدير التحرير في ذلك الوقت قلماً ذهبياً وأعطاه لتوفيق الحكيم، وفتح له هيكل باب حجرة صغيرة ملحقة بمكتبه، وتركه وحده ليكتب رسالته إلى عبد الناصر..

وكان نص رسالته إلى عبد الناصر يقول:

« سيادة الرئيس..

سمحت لنفسي أن أكتب إليكم هذا الخطاب الخاص لما لي من صلة قلم بجريدة «الأهرام» باعتبارها المنبر الذي ينطلق منه صوت بلادنا في أرجاء الأرض، ودفعني إلى ذلك ما علمت به من خبر تعيين الأستاذ محمد حسنين هيكل وزيراً للإرشاد، ولثقتي الوطيدة بسداد رأيكم فقد تقبلت الخبر بشيء من التفكير، وجعلت أقلب الأمر على مختلف وجوهه، وتمهلت قليلاً في قبول ما يلوكه الناس من تعليقات، ربما كان أكثرها صادراً ممن يهمهم إضعاف هذا المنبر وإخفات صوت يعتقد أنه منبعث من منبع القلب الوطني والقومي، مهما يكن من أمر فهناك حقيقة لم أستطع لها دفعاً: هي أن جريدة «الأهرام» باستقلالها وبما فيها من أقلام حرة يثق بها الناس قد استطاعت وتستطيع دائماً أن تشيع في النفوس الثقة والأمل بهذا الاتجاه الذي سارت فيه في طرح الحقائق - حتى المؤلم منها - ثم الإيحاء مع ذلك بروح التفاؤل، بعيداً عن أي توجيه رسمي، قد هيأها لهذه المهمة الفريدة في وقتنا الحاضر وجعل منها الأداة الفعالة في تنوير الرأي العام والتأثير فيه دون الالتجاء إلى الشعارات المفتعلة التي مجها الناس من أجهزتنا الرسمية وهذه الأجهزة الرسمية الإذاعية لها عذرها، ولا ينتظر منها أن تفعل أكثر مما تفعل لأن الناس لا تصدق غالباً ما يصدر عن جهاز حكومي، وهنا الأزمة الحقيقية يا سيادة الرئيس، أزمتنا اليوم هي أزمة ثقة، والحالة النفسية التي يمر بها شعبنا اليوم هي الحيرة والقلق وبلبلة الفكر، وكل شعب في مثل وضعنا مر بهذه الحالة، ولكن علاجها دائماً كان في وجود الثقة، لأن أصواتاً ومنابر حرة كان يعرف منها كل شيء حجمه، أما نحن فقد انفردنا بالعلة دون العلاج، لأننا اعتمدنا على أجهزة الدعاية الرسمية وحدها، جهاز واحد كان يرجى منه العلاج.. هو الأهرام الحر وكان الناس في مصر والعالم العربي، بل وخارج هذه البلاد ينتظرون كل جمعة مقال بصرا[illegible] حقائق ما يجري من خلال أسطر لا تنتمي إلى جهة رسمية، لكنها ت[illegible]صدق الذي يريده الناس على قدر الإمكان.

أتصور [illegible] يا سيدي الرئيس إذا فقدت الأهرام هذه الصفة، ما الذي

سيبقى للناس؟ أبواق إذاعة وتليفزيون لا تقبل إلا لأغانيها.. وكل نشاط لهذه الأجهزة في مجال الرأي سيأتي بعكسه، لأن الناس لا تريد الآن أن تصدق إلا ما يصدر بعيداً عن السلطة.

صدقني يا سيادة الرئيس أن جريدة الأهرام بأقلامها المستقلة تستطيع أن تعالج نفسية الرأي العام بأفضل مما تستطيع وزارة من الوزارات، ولا أقولها دفاعاً عن زميل فالموقف أجل وأخطر من أن أنظر إليه من زاوية شخصية، إنما هو الحق الذي أراه، ونحن نجتاز مرحلة حرجة من تاريخنا على كل مواطن فيها أن يكون صريحاً.

فاعذرني يا سيادة الرئيس إذا أقحمت نفسي وكتبت إليكم لأول مرة بما بدا لي في هذا الشأن الهام، وإني لعلى يقين دائماً بحكمتكم وحبكم لبلادكم بما تريدون لها وتعملون من أجل حريتها ونهضتها، وتفضلوا يا سيادة الرئيس بقبول أصدق آيات التقدير والإجلال ».

ويقول الحكيم :

« بعد أن انتهيت من كتابة الرسالة وجدت عند هيكل « حاتم صادق » زوج كريمة الرئيس الراحل، وكان هيكل قد عينه في الأهرام هو وقرينته :

وقال هيكل :

– هذا هو «البوسطجي» الذي سيحمل رسالتك إلى الرئيس، ثم سلم الرسالة لسكرتيرته نوال المحلاوي لكي تضعها في مظروف مناسب فخرجت، وغابت قليلاً قبل أن تعود بالرسالة، وعلمت فيما بعد أنها صورتها..

وفي مساء ذلك اليوم زارت سكرتيرة هيكل وزوجها عطية البنداري الضابط السابق بالقوات المسلحة الصحافي المعروف لطفي الخولي، ودار حديثهم حول رسالة توفيق الحكيم للرئيس، وحصلت المخابرات بوسائلها الخاصة على تسجيل لما دار خلال هذه الزيارة.

يتابع السادات القصة فيقول:

ذهب هيكل إلى منزل لطفي الخولي وعقدوا اجتماعاً، وكانت فيه سكرتيرته وزوجها وكان سامي شرف يراقب منزل لطفي الخولي بأجهزة تنصت، وأخذ الشريط وقدمه إلى عبد الناصر.

وفي هذه الجلسة تحدث لطفي الخولي عن عبد الناصر بما يسىء إليه..

واستمع عبد الناصر إلى التسجيل كله..

واتصل بي على الفور، ولم يقل لي أنه استمع إلى تسجيل، وإنما اكتفى بالقول، وهو في قمة الانفعال :

- بعد ده كله، هيكل رايح يأخذ رأي لطفي الخولي فيَّ أنا..

والحقيقة أنني رأيت هيكل في اليوم التالي وقلت له :

- جرى لك إيه.. أنت أهبل.. الراجل عاوز يشغلك معه.. تقوم تهرب.

-٦-

كان المناوئون لزيادة نفوذ هيكل يدبرون بدأب لاصطياد معاونيه أو عدد من أفراد جماعته لإضعاف موقفه.. فقامت المخابرات العامة بإيعاز من سامي شرف بوضع أجهزة تسجيل في منزل لطفي الخولي، وكان الهدف هو تسجيل كل ما يقوله لطفي الخولي، وتسجيل ما يقوله زواره له، ومن المعروف أن عدداً من الشخصيات العامة والعربية تقوم بزيارته.

ومن الطبيعي أن هناك كثيراً من الأحاديث ستدور، وستنصب حتماً على الأوضاع السياسية للبلاد، وستتناول عدداً من السياسيين والشخصيات البارزة، وعما يدور من أحداث، وتعليقاتهم عليها..

وبطبيعة الحال، فسيحدث أن يدلي البعض بآراء قد تكون مغايرة لآراء النظام، أو لآراء عبد الناصر في عدد من القضايا، وقد يوجهون النقد إلى عبد الناصر مثلاً، أو يهاجمونه بألفاظ حادة نوعاً ما على سبيل المثال، ذلك أن الأصدقاء حينما يجتمعون، وخاصة إذا كانوا من أهل الفكر والمهتمين بالسياسة، ومن الصحافيين يتكلمون بحرية، خاصة إذا كانوا يأمنون أن كلامهم لن ينقل.

وحملت أجهزة التسجيل التي وضعت في منزل لطفي الخولي فيها سعيدة لسامي شرف وشعراوي جمعة، بعد إعلان تعيين هيكل وزيراً بهذه الملابسات وقدمت هذه التسجيلات إلى عبد الناصر ليسمعها.

وذكر لي كامل زهيري أن شعراوي جمعة أبلغه أن لطفي الخولي كان من المفروض أنه سوف يمثل الجمهورية في زيارة إلى تشيكوسلوفاكيا باسم مصر ورئيسها، ثم يتبين قبل سفره بيوم واحد أنه «يشتم» الرئيس بطريقة غير لائقة.

وتم إلقاء القبض على لطفي الخولي ونوال المحلاوي، ولطفي من أقرب المقربين إلى قلب هيكل، كما أن نوال سكرتيرته التي كان يعتمد عليها كثيراً، والتي كان يتردد أن عبد الناصر معجب بذكائها، وحيويتها، حتى كانت تلقب بأشهر وأفضل سكرتيرة في مصر، وقوة الضربة تتبدى من خلال معرفة أن قرار تحديد إقامة لطفي الخولي قبل القبض عليه والتحقيق معه اتخذ دون إعلام هيكل به بشكل مسبق، وقد بوغت به مباغتة شديدة فيما يبدو، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، إلا بعد وفاة عبد الناصر، إذ أصدر السادات قراراً بالإفراج عن لطفي الخولي قبل مايو سنة ١٩٧١..

-٧-

وهكذا كان تعيين هيكل وزيرا أزمة عامة، ومحنة خاصة وجد نفسه في خضمها، مأموراً ليكون مسؤولاً عن الإعلام، ثم معاقباً في أصدقائه المقربين وقد أغلقت عليهم أبواب السجن..

ولم يمض وقت طويل...

من أبريل سنة ١٩٧٠.

إلى سبتمبر سنة ١٩٧٠ .

أقل من ستة أشهر، ورحل عبد الناصر..

ولما كانت هذه هي الخلفيات...

فقد كان محتما أن يستقيل...

كانت استقالة هيكل مختلفة في أسبابها، ودوافعها، عن موجة الاستقالات التـي حفلت بها الأيام الأولى بعد رحيل عبد الناصر..

وكانت استقالة مميزة بكافة المقاييس..

عن أسبابه ودوافعه يقول هيكل:

كنت أعرف لو بقيت في منصبي كوزير، فإني سـأدخل في صـراعات مـع بعـض الأعضاء البارزين في الاتحاد الاشتراكي، وفي مجلس الأمـة، ولـن أكـون في هـذه الحالة إلا عائقاً في طريق الرئيس الجديد، في حين أني أستطيع من مكاني في تحريـر الأهرام أن أكون «سنداً مفيداً»..

كان هذا ما قاله هيكل للسادات وكان انحيازاً مبكراً جداً، مع السـادات، وضـد الآخرين، ورغم أن السادات كان يعرف وجهة نظر هيكل في توليه الوزارة في عهـد عبد الناصر، وكانت قد فرضت عليه إلى الدرجة التي فكـر فيهـا بالاعتكـاف ببيتـه الريفي رفضاً لمنصب لم يسع إليه، بل لعله سعى إلى دفعه طويلاً إلا أنه قال له:

ـ ماذا يقول الناس إذا عرفوا أن أقرب شـخص إلى جمـال عبـد الناصـر اسـتقال بعد ثلاثة أيام من رئاسة أنـور السـادات، وحـاول السـادات أن يثنـي هيكـل عـن الاستقالة، وبعد أن لمس إصراره اشترط عليه أن يبقى حتى يدير معركته الانتخابية للاستفتاء.

واشترط عليه هيكل في المقابل شرطا..

وكان شرط هيكل أن يكتب السادات رداً على كتاب استقالته من الوزارة..

ليس هذا فقط..

وأن ينشر خطاب الاستقالة، ورد السادات عليه، يوم ظهور نتيجة الاستفتاء..

ووافق السادات، فلم يكن يملك ـ ساعتئذ- ترف أن يرفض، ولكنـه ـ بطريقتـه - يقدم تبريراً غريباً لأول سابقة من نوعها في استقالات الوزراء..

تبريره الغريب قاله لموسى صبري أثناء حديث تليفـوني، وكـان السـادات هـو الطالب:

- «سأقول لك خبراً احتفظ به سراً، هيكل قدم استقالته من وزارة الإعلام، وأنا قبلتها على الفور، ولكنني سأحفظ له (برستيجه)، وسأرد على استقالته بكتاب شكر»(!).

وظهر «الأهرام» يحمل في صدر صفحته الأولى إلى جانب نتيجة الاستفتاء على الرئاسة استقالة هيكل من وزارة الإعلام، ورد رئيس الجمهورية عليها..

وكانت هذه هي أول استقالة لوزير تذاع وقائعها على الهواء مباشرة..

الأهم من ذلك أن «الأهرام» نشر استقالة الوزير أولاً، وأسفلها رسالة الرئيس في الرد على الاستقالة، وهي أيضا سابقة لم ولن تحدث..

وأثارت الواقعة أكثر من علامة استنكار...

ضياء الدين داود يقول:

- «كانت عبارات الاستقالة تجري على غير مألوف التخاطب مع رئيس الجمهورية، إذ بدأها بعبارة الأخ والصديق، وكان هذا المسلك استفزازياً ومقصوداً به التأكيد على دوره وعمق علاقاته المؤثرة، حتى أن موقعه من رئيس الجمهورية، هو موقع الأخ والصديق بلا كلفة أو تقيد بأصول».

لم تكن استقالة « هيكل » من موقعه كوزير للإرشاد هي ما لفت الانتباه، لكن الأكثر دهشة وإثارة هو سيناريو الاستقالة نفسه، فقد كانت المرة الأولى - وربما الأخيرة - التي تنشر فيها استقالة «وزير» مع رد رئيس الجمهورية على خطاب الاستقالة ..

وحسب ما نشره « الأهرام » فقد جاء رد السادات كالتالي :

«عزيزي » الأستاذ محمد حسنين هيكل.

وزير الإرشاد القومي.

تحية الإسلام المباركة وبعد ..

فلقد تلقيت كتابك وقرأته بكل عناية وتقدير، فليس أحب إليَّ في هذه الحياة من معنى مثل معنى الوفاء في كل صوره وألوانه، من أجل ذلك، فإنه لا يسعني إلا أن

أجيبك إلى طلبك أيها الصديق، واثقاً أن جهدك وقلمك سوف يظلان كما عودت زعيمنا الراحل أن يكونا في مكانهما من معركتنا المقدسة، شاكراً لك ما بذلته من جهد خلال توليك الوزارة، داعياً لك المولى عز وجل أن يوفقك في مكانك الذي اخترته بإرادتك، وأن يمنحك الصحة وموفور السعادة، والله أسأل أن يسددنا جميعاً بتوفيقه والسلام عليكم ورحمة الله.

أنور السادات

١٨ أكتوبر ١٩٧٠

***

بلغ عدد كلمات استقالة هيكل ٥٨٧ كلمة، وجاء رد السادات في ٩٩ كلمة..

كان هدف السادات واضحاً، أن يجلس على عرش مصر أولاً وبعدها يكون لكل حادث حديث..

وكان هدف هيكل واضحاً، أن يتجنب الدخول بنفسه في صراعات السلطة التي لمحها من بعيد..

أعلن انحيازه للسادات، وأقنعه أنه سيكون أكثر فائدة له من موقعه في الأهرام ...هناك سيكون بعيداً عن تلك الصراعات..

ومن هناك يستطيع أن يشارك في حوار الحوادث والتطورات طليق اليد ومتحرراً، ما يجعله أكثر تأثيراً في مجرياتها.

-٨-

لماذا استقال هيكل؟

نحن مع هيكل في أن أي تصرف سياسي يمر في الغالب بثلاث مناطق ؛ منطقة ما هو «خاص»، ومنطقة ما هو «خاص وعام»، ومنطقة ما هو «عام»، فنحن لا يمكننا أن نعزل أي تصرف عن مشاعر ومزاج صاحبه وهذه منطقة ما هو «خاص».

ولأن الحدود الفاصلة بين ما هو خاص، وما هو عام ليست قاطعة، فتنشأ هناك منطقة ما هو خاص وعام حيث تختلط النزعات الشخصية بالاعتبارات الأوسع

من شخص صاحبها، ولا شك أن وراء كل تصرف سياسي كالاستقالة، قضية عامة.

في منطقة ما هو « خاص » فإن فكرة تكليف هيكل بمهام وزارة الإعلام (الإرشاد القومي) قد طرحت للبحث أكثر من مرة خلال سنوات طويلة، وكان هيكل دائم التهرب من الوقوع في هذا القفص، وكانت حجته المكرورة أن استمراره في أداء دوره في الخدمة العامة داخل مجال الصحافة قد يكون هو الأوفق بالنسبة لاستعداده الشخصي، وكان دائم الحديث عن أن الصحافة هي مهنته، التي لم يعرف لنفسه في حياته عملاً غيرها، بل كان يذهب إلى القول بأن هذه المهنة هي حياته نفسها، حتى أنه لا يستطيع أن يكف عن الكتابة، لأنها حركة التنفس بالنسبة إلى الكاتب.

في منطقة ما هو « خاص » أيضاً، أن هيكل كان نزاعاً إلى الخروج من منطقة المقارنة بينه وبين مرؤوسين آخرين يعملون مع عبد الناصر، فقد كان ينظر إلى نفسه كشخص أكبر من أي مؤسسة، وكان يعتبر دوره كصحافي أكبر من أي سياسي، وأكثر تأثيراً من أي حزبي، وأسرع حصولاً على المعلومات مما تحصل عليه أجهزة أخرى.

وكان حريصاً على أن يظل في منطقة الظل أو منطقة "الأهمية الرمادية" التي تجعل إمكانية استمراره إلى جوار صانع القرار أطول مدة ممكنة، وبأكثر مما يتيحه الوجود المعلن في منطقة الضوء الباهر.

وكان أهم أهداف هيكل أن يخرج بنفسه بعيداً عن منطقة الصراع المكشوف إلى منطقة الصراع المحكوم والمنضبط، حيث يكون تأثيره في الأحداث أكثر قوة من وراء ستار، وهو ما حدث فعلا فيما بعد.

ثم أن إحساس هيكل اليقيني بأن أبواب الصراع الداخلي سوف تفتح على مصراعيها عقب رحيل قائد النظام ومؤسسه، جعله يصمم على أن ينأى بنفسه ـ بعيدا ـ عن مخاطره المباشرة، بالابتعاد عن حلبته الرئيسية.

كانت مخاوف هيكل في تلك الفترة كثيرة بعضها يخصه، وقد كان طرفاً في

علاقات تناحرية مع كثير من أقطاب نظام ما بعد عبد الناصر حيث غاب الرجل الذي كان يفرض عليه حماية خاصة تقيه شر التنافس التناحري مع الآخرين.

وبعض مخاوف هيكل كانت عامة تثير لديه شكوكاً حول المستقبل.

كانت استقالة هيكل فراراً من مواقع مكشوفة في حرب مكتومة، إلى مواقع أكثر أمناً وتوقياً وراء ساتر بعيداً عن حلبة الصراع.

كانت استقالة محتومة..أصر عليها.. ورحب بها الآخرون..أو على الأقل لم يعترضوا..



الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة
بين الكاتب والسلطان

كيسنجر وهيكل والسادات
مجموعة أوراق

◆◆◆

-١-

عندما اختير السادات لرئاسة الجمهورية كان هناك إجماع على أنه يفتقد رصيد عبد الناصر، ولم يحظ بالتقدير الذي كان يحظى به سلفه الراحل، لم يكن أحد مع السادات، وكانت السلطة الفعلية موزعة على الآخرين من خصومه، فكانت المهمة الأولي الملقاة على عاتقه هي كيف يصنع لنفسه رصيداً يسانده.

ومنذ اللحظة الأولى راح السادات وبذكاء شديد يكون لنفسه حلفاء، في البداية بدأ بالنغمة الدينية، فاستمال الإخوان المسلمين أعداء عبد الناصر، وألغي الحراسات فكسب ضحايا الحراسات في عهد سلفه، وأعطي إشارة ذات دلالة واضحة عن مستقبل توجهاته الاجتماعية.

وكانت الصحافة من المواقع التي أدرك السادات مبكراً أهمية أن يكسبها إلى صفه، وقد كانت له علاقات بالوسط الصحافي قديمة، ويحب أن ينسب نفسه إليها، ويقول عن نفسه : إنه صحافي وكاتب، وبحكم هذه العلاقات القديمة كان السادات على دراية لا بأس بها بالتركيبة الصحافية للشارع المصري، وكان يدرك أن من يصادم الصحافة لن ينجح..

في ذلك الوقت كانت الصحافة كلها في مصر تكره الموقع المميز الذي يحتله محمد حسنين هيكل الذي كان منافسوه يسمونه الصحافي «الأوحد»، حيث تحجب الأخبار والمعلومات عن الصحافيين إلى أن تعطي لهيكل، كان هذا ما يقال، وسواء كان صحيحاً أم خطأ، فقد كان ذلك ما يحس به كل الصحافيين، وكانت «الأهرام» تبدو كأحد الامتيازات الأجنبية في مصر، محرروها يقلدون هيكل في كل شيء من ارتداء الملابس حتى طريقة الحديث، أما باقي الصحافيين فلا وزن لهم، ولا قيمة على الإطلاق، والقوانين في مصر تسري على الجميع إلا «الأهرام» ومن يعمل فيه، وكان مدير الإعلانات في «الأهرام» هو الشخص الوحيد في مصر الذي صدر له قرار جمهوري بأن يتجاوز الحد الأقصى من الدخل.

كانت هذه صورة الأوضاع كما يقدمها لنا كاتب كبير هو صلاح حافظ والذي

اقترب فيما بعد من أنور السادات حين ترأس تحرير مجلة روزاليوسف، ويؤكد إدراك السادات المبكر في بدايات حكمه أنه سوف يضيف إلى رصيده كل الصحافيين إذا لم يستمر في سياسة إيثار هيكل.

ومع أن هيكل لعب دوراً في تولي السادات للحكم، ورغم ذلك، كان السادات ـ وهذا ما يعتقده صلاح حافظ شخصياً ـ مبيتاً منذ البداية في حملته لكسب الأنصار أن يفتح بابه لكل الصحافيين، ويقول لهم: تعالوا إليّ، وكل منكم يستطيع أن يكون هيكل.

سياسة كسب ود الصحافيين كانت تعني عدم الاستمرار في سياسة إيثار هيكل، وهي السياسة التي حاول السادات أن يتجنبها بدون خسائر في الفترة الأولي من حكمه حتى ينتهي من صراعه مع الممسكين بزمام الأمور في البلد.

ومنذ اللحظات الأولي من انقلاب ١٥ مايو سنة ١٩٧١، ورغم بروز دور هيكل إلى جانب السادات، نشطت تحركات من بعض رؤساء التحرير أرادوا أن يرثوا عند السادات مكانة تناظر مكانة هيكل عند عبد الناصر، وبدت تلك التحركات منطقية في مجملها، إذ طالبت بأن يعامل هيكل مثل سائر رؤساء التحرير، أو يعامل رؤساء التحرير بمثل معاملة هيكل، وجرت المطالبة بأن يخصص في الإذاعة وقت أسبوعي لإذاعة مقالات كل رؤساء التحرير إذا استمرت إذاعة مقالات هيكل، وطالبوا بألا تنفرد «الأهرام» بأخبار الرئاسة وأسرار الدولة، ولتكن الرئاسة والدولة للجميع لا لصحافي واحد، مهما كان أثيراً.. وإلا كان معنى هذا أن الرئاسة تصطنع لنفسها حزباً في حين أن موقعها الطبيعي يجب أن يكون فوق الأحزاب.. وعلى أية حال ـ هكذا مضت وجهة نظر تلك التحركات ـ فإن من الخير أن يكون للرئاسة مستشار صحافي يتعامل مع جميع الصحف على قدم المساواة.

سعت هذه الآراء إلى مسامع السادات – وسعى هو إليها منذ اللحظة الأولى – على استحياء وبحذر، ثم أسفرت عن نفسها شيئاً فشيئاً وأخذت طابع الحملة

المنسقة، وطعمت بطريقة ملفوفة جداً، ومغلفة بالحذر بتحذيرات ضد هيكل كرجل لا يمكن أن يكون ولاؤه لغير عبد الناصر، وبتخريجات بعضها معقول وبعضها متعسف للفرق بين الأسلوب الذي كان يتعامل به هيكل مع الزعيم الراحل، والأسلوب الذي يتعامل به مع الرئيس السادات، وأشار أصحاب هذه الآراء إلى أن هيكل يكتب عن عبد الناصر وكأنه كائن مقدس لا ترقي إليه الأبصار، فلما جاء السادات استهل هيكل تعامله معه في استقالته من وزارة الإعلام بأن كتب إليه يخاطبه قائلاً: الأخ والصديق أنور السادات وهو نهج غير مألوف في تخاطب وزير مستقيل مع رئيس جمهورية يبدأ عهده الجديد!...

وراح أصحاب الحملة يسردون أمثلة أخري كثيرة ...

وكان السادات في تلك الأثناء يريد هيكل إلى جانبه، وكانت الظروف تحتم عليه أن يحتفظ له بمكانته الخاصة الرفيعة، ولكنه راح من ناحية أخري يعمل على أن يظهر في الصورة آخرين؛ كان منهم الكاتب والروائي إحسان عبد القدوس كصحافي مقرب إلى الرئيس بحكم الصداقة الحميمة القديمة التي تربطهما، ورشحت بعض التكهنات موسى صبري ليكون هو هيكل السادات..

-٢-

يستطيع الباحث في سيرة العلاقة بين أنور السادات ومحمد حسنين هيكل أن يتأكد دون عناء يذكر أن مسيرة العلاقة التي بدأت بالتحالف حد توحد المقاصد لم تلبث أن راحت تسوء بوتيرة متصاعدة وبشكل دائم وخاصة بعد إسقاط من اصطلح على تسميتهم بمراكز القوي وقد كانوا هم الأعداء المشتركين لكل من طرفي العلاقة.

سقط التناقض الرئيسي من ساحة المواجهة عند القمة، فبدأت التناقضات التي كانت متوارية لحساب المواجهة الرئيسية تظهر على مسار العلاقة بين هيكل والسادات، وكانت علامات سوء العلاقة تتضح عندما تنشأ الاختلافات بين الرجلين ولا يتمكنان من الوصول إلى تفاهم حولها.

كل ما كانا يفعلاه طوال الفترة من خريف ١٩٧١ حتى ربيع ١٩٧٤أن يؤجلا انفجار العلاقة، من دون أن تحل الخلافات، التي تنشب بين جدرانها حتى استفحلت، وتحولت من خلافات حول الأساليب إلى خلافات حول الأهداف، فانفجرت وانهد بنيانها، وخرج هيكل من «الأهرام» بقرار من السادات، الذي كان قد خيره بين أن «يلتزم» أو أن «يخرج»..

فخرج، لأنه لم يكن يستطيع أن يلتزم، خاصة ذلك الالتزام الذي يريده منه السادات..

ولأن رواية هيكل لا تتحدث عن الفترة الأولي في علاقته مع السادات رئيساً إلا تحت عنوان عام هو أنه كان أقرب الناس إليه في تلك الفترة، إلا أن الوقائع تشير إلى أنها شهدت نقصاً في مستوي العلاقة بين الرجلين إلى حدودها الدنيا في بعض الأحيان..

ونحن أقرب إلى تصديق رواية السادات عن تلك الفترة، وتصديقنا للسادات هو في الحقيقة تصديق لأرشيف هيكل الذي يحوي مقالاته عن تلك الفترة، وكلها تحاول أن تشير من طرف خفي، لكنه لا يخفي على اللبيب الذي هو بالإشارة يفهم، أن الأوضاع تمضي إلى الأسوأ، وأن قيادة السفينة تكاد لا تعرف لها براً تستقر إليه..

لم يدم طويلاً شهر العسل الذي بدأ بالتحالف وتوحد المقاصد، ورغم أن هيكل دأب ـ وهي عادة يشهد عليها كثيرون ممن اقتربوا من دوائر صنع القرار ـ على بروز دوره إلى جانب الرئيس، وخاصة السادات، إلا أنه لم يستطع أن يخفي أن توترات نشأت في العلاقة مبكرة جداً، وقبل نهاية العام ١٩٧١، أي بعد أقل من شهور عدة على تحالفهما المعلن..

ولم يكن صحيحاً ما ذكره هيكل في خريف الغضب من أنه في السنوات الأربع الأولي من رئاسة أنور السادات كان كما اعترف الرئيس السادات بحديث صحافي أدلي به إلى مجلة الأسبوع العربي اللبنانية أقرب إليه من أي شخص آخر، فلا

العلاقة بينهما كانت خلال هذه السنوات الأربع سمناً على عسل كما يقال، ولا كما يحاول هيكل أن يصور، أنه كان الأقرب إلى السادات طوال تلك السنين.

وبالرجوع إلى نص كلام السادات في الأسبوع العربي المنشور يوم ٩ أكتوبر سنة ١٩٧٤ سنجد أن حساب المدة في كلام السادات كان أدق حيث قال بالحرف:

واستمر خلال ثلاث سنوات تقريباً من أقرب الناس، ولكن..

ولكن السادات لم يقل هذا وسكت، كما يوحي الاقتباس الذي أورده هيكل في خريف الغضب، بل إنه ساق الأسباب الواحد تلو الآخر التي دفعت به - رغم ما كان من اقتراب هيكل منه وقربه إليه - إلى أن يقصيه من موقعه في الأهرام.

وكان السؤال يقول:

هناك تأكيد من جانبكم على حرية الرأي، فهل ننتظر مقابل الحرية الصحافية التي أعطيت للبعض السماح لهيكل للعودة إلى ممارسة كتاباته الصحافية، وما هي أسباب إبعاد هيكل ؟

وأجاب السادات بطريقة مسرحية:

- آه.. هيكل.. محمد حسنين هيكل، الواقع أن لي كلاماً كثيراً جداً في موضوع هيكل بالذات، بعد وفاة الرئيس عبد الناصر طلب مني هيكل أن يخرج من الوزارة، ويعود إلى عمله في الأهرام، فوافقته على رأيه، واستمر خلال ثلاث سنوات تقريباً من أقرب الناس إليَّ، ولكن كانت لهيكل مواقف خلال هذه المدة كنت أنصحه فيها المرة تلو المرة، كان له موقف أيام حوادث الطلبة، وكان له موقف أيام الفتنة الطائفية، وكان أسوأ موقف من تلك جميعاً موقفه بعد وقف إطلاق النار، ومن محادثات فض الاشتباك، والمقالتان الأخيرتان اللتان كتبهما.

وأنهى السادات إجابته بالقول: بخلاف هذا كان لهيكل مواقف أخرى لا داعي أن أسردها.

وكان أقسى هذه المواقف التي لا يريد السادات أن يسردها ما جاء في مقال مدوٍ

نشره هيكل قبل نهاية العام ١٩٧٢ بثلاثة أيام، وكان عنوان المقال كيسنجر وأنا مجموعة أوراق ..

وللمقال قصة..لابد أن تروى..

وقبله خلفيات.. لابد أن تعرف..

وفيه مفاجآت لم يكن السادات يتخيل في أكثر كوابيسه رعباً أنها سوف تحدث..

ونبدأ بالخلفيات..

-٣-

خلفية أولى:

كيسنجر أول مرة...

كان شهر العسل بين السادات وهيكل ما يزال سارياً رغم بعض المنغصات الطبيعية، أو خلافات البيت الواحد التي تجعل للحياة طعماً، ولكنها لا تهدد مسيرة الزواج.

وكان السادات يستمع بقلبه إلى كل الحاقدين على هيكل، ولكنه كان يحتفظ بكل أوراقه قريبة إلى صدره كما يقولون، ولم يكن أحد يعرف ما لديه، وحتى إذا أتيح لأحد أن يعرف فقد كان صعباً عليه أن يتصور كيف يستطيع أنور السادات أن يستوعب بطبيعته الخاصة ما لديه ثم يحوله إلى مواقف أو إلى إجراءات عملية وهذا هو تشخيص هيكل نفسه لكيفية مقابلة أنور السادات مع القضايا التي تهمه.

ترك السادات هيكل في موقعه المميز منه، وراح يقرب بعض الآخرين إليه..

كان يريد أن تتم عملية الإحلال والتجديد بطريقة سلسة وساعدته غريزة المتآمر فيه على حفظ أسراره.

كان هيكل ما يزال ضروريا للسادات..

وكانت حاجة السادات إليه ما تزال قائمة..

وكانت بعض الظروف تؤكد تلك الضرورة، وتزيد من أهمية تلك الحاجة.

بعض هذه الظروف تبدت مع قصة الطلب الأمريكي للقاء موسع ومعمق مع

هيكل لدراسة ما يمكن عمله تجاه قضية الشرق الأوسط من وجهة النظر العربية..

وحدد الطلب الأمريكي اسم هيكل ليكون هو ممثل وجهة النظر العربية، وهو الصحافي اللامع والكاتب قريب الصلة بالسلطة في مصر في عهدي عبد الناصر والسادات، ثم أنه ـ إضافة ذلك ـ ومن وجهة نظر الدعوة، قريب الشبه بالرجل الذي سوف يتحادث معه من الطرف الأمريكي، وهو هنري كيسنجر، الاسم اللامع في سماء السياسة الدولية، والمستشار المقرب من الرئيس ريتشارد نيكسون، وساحر الحل الأمريكي في فيتنام، ومنظر الوفاق الدولي، ومحقق التقارب الصيني الأمريكي.

وجاءت الدعوة الأمريكية كطوق نجاة إلى السادات الغارق في أحلام يقظة تصور له إمكانية التوصل إلى حل ما لا يدفع به إلى أتون حرب لا يعرف عواقبها وقد تودي وبنظامه..

وكانت بداية القصة ـ كما يرويها هيكل ـ بعد أن تحقق كيسنجر من فشل روجرز في زيارته للمنطقة في أوائل شهر مايو سنة ١٩٧١، قرر لأسباب رآها أن الفرصة قد تكون مناسبة له الآن لعملية استكشاف من بعيد لأزمة الشرق الأوسط.

وجري ذلك بطريقة بالغة الغرابة.

فلم يكد شهر مايو ينقضي حتى اتصل الدكتور زكي هاشم بـ« محمد حسنين هيكل» وقال له: أنت تعرف طبعاً دونالد كاندال رئيس مجلس إدارة شركة بيبسي كولا، وأنا محاميهم في مصر، وأنت تعرف أن كندال صديق مقرب من الرئيس ريتشارد نيكسون، لأن نيكسون نفسه كان لسنوات طويلة محامياً لشركة بيبسي كولا بأمريكا، ودونالد كندال موجود الآن في القاهرة لزيارة سريعة، وقد طلب أن يقابلك لأنه يريد أن يسمع منك عن أزمة الشرق الأوسط.

واستطرد زكي هاشم يقول لهيكل:

- إن دونالد كاندال موجود الآن في القاهرة لزيارة سريعة، وقد قال لي إنه يريد أن يسمع عن أزمة الشرق الأوسط ويتفهم موقفنا فيها، وخطر لي أن أجيء به إليك

ليسمع منك.

وأضاف زكي هاشم ضاحكاً :

- يهمني أن يسمع منك باعتباره صديقاً مقرباً من نيكسون وليس باعتباره رئيساً لمجلس إدارة بيبسي كولا؛ فأنا أعلم حساسيتك الزائدة من رجال الأعمال عموماً، ولكني تصورت أن الوقت الذي تقضيه معه قد لا يكون وقتاً ضائعاً.

وقال هيكل لزكي هاشم:

- إنني واحد من الذين يعتقدون أنه لا يحق لنا أن نكف عن شرح وجهة نظرنا لكل من يريد أن يسمعها، وأظن أننا نكسب بذلك دائماً ولا نخسر أبداً.

ودعا هيكل دونالد كاندال إلى فنجان قهوة في مكتبه، ومعه زكي هاشم وقضي أكثر من ساعتين يشرح له وجهة النظر العربية في أزمة الشرق الأوسط كما تصورها وقتها...

وعاد كاندال إلى نيويورك..

وفي يوم ٨ يونيو سنة ١٩٧١ تلقي محمد حسنين هيكل من دونالد كاندال بعد عودته إلى واشنطن خطاباً- أرسل في نفس الوقت صورة منه إلى الدكتور زكي هاشم- وكان نصه كما يلي:

سعدت أشد السعادة للقائك مع صديقنا المشترك زكي هاشم، وللفرصة التي أتيحت لي معك بمناقشة آرائك حول الموقف السياسي الراهن في العالم بصفة عامة وبالنسبة لأزمة الشرق الأوسط بصفة خاصة. لقد أثرت في كثيراً معرفتك العميقة المباشرة بمشاكل الشرق الأوسط، من مبتداها حتى الوقت الراهن، واستعراضك للعوامل التي تداخلت فيها، بما في ذلك الدور الذي لعبته الولايات المتحدة الأمريكية، والنصيب الذي ينبغي أن تسهم به في حل المشكلة.

وكما أوضحت لك، فإني أشعر بأنه مما يساعد بصورة قاطعة على الدعوة للقضية العربية ضرورة أن يأتي شخص مثلك على مثل هذا القدر من المعرفة بالمشكلة وأبعادها، إلى الولايات المتحدة، وأن يشرح وجهة النظر العربية لبعض

ذوي النفوذ من الناس الذين يرجى تعميق فهمهم لهذه المسألة لخدمة المصلحة العربية العامة.

وإني إذ أضع هذا في اعتباري، ولأنه يسعدني أن أعتبر نفسي صديقاً للأمة العربية وشعبها، أشعر بغبطة شديدة إذ أوجه إليكم دعوة لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية، حيث سأنظم لكم إمكانية اللقاء مع بعض الناس الذين ينبغي أن تزداد معرفتهم بالوضع العربي في الموقف الراهن في الشرق الأوسط.

وإنني على يقين من أن مثل هذه الزيارة سوف تدعم التأييد لوجهة النظر العربية، وتعود بالنفع المتبادل على العلاقات بين بلدينا.

ومنذ عودتي إلى الولايات المتحدة، أتيحت لي الفرصة لزيارة طيبة قضيتها مع الرئيس نيكسون، دار الحديث فيها حول رحلتي إلى الشرق الأوسط، كما أتيحت لي الفرصة بالطبع لأذكر بتفصيل مسهب ذلك النقاش الذي جري معك، ولقد أبلغت الرئيس عن عزمي على دعوتك لزيارة الولايات المتحدة، وأعرب هو أيضاً عن أمله في أن تقبل دعوتي.

مع أخلص تحياتي الشخصية

المخلص دونالد

وأجاب محمد حسنين هيكل على هذا الخطاب برد ودي شكر فيه دونالد كاندال على حسن انطباعه ورقة مشاعره قابلاً الدعوة من حيث المبدأ، مؤجلاً تنفيذها إلى فرصة أخري في ظروف ملائمة.

-٤-

ومرت ثلاثة شهور تلقي بعدها هيكل من السفير أشرف غربال القائم بأعمال المصالح المصرية في واشنطن وقتها رسالة شفوية مع صديق بأن هناك أحاديث في الدوائر المحيطة بالبيت الأبيض الأمريكي عن فكرة اجتماع بين هنري كيسنجر وبينه.

وبعث هيكل إلى السفير أشرف غربال رسالة شخصية شفوية أيضاً قال له فيها

إنني مع استعدادي لأي مناقشة في أي وقت مع كيسنجر فإنني لا أظـن أن شـواغلي في القاهرة تسمح لي بالسفر الآن إلى واشنطن.

ولم تمض غير أيام قليلة بالتحديد في ١٥ سبتمبر تلقـي محمـد حسـنين هيكـل خطاباً من السفير أشرف غربال بخط يده نصه كما يلي:

أخي العزيز محمد..

قبلاتي وأحر أشواقي...

أسعدتني اللحظات التي جمعتنا في القاهرة أخيراً، وأسميها لحظـات لطمعـي في المزيد، وإن شاء الله يكون ذلك في القريب.

اتصل بي المستر دونالد كاندال عدة مرات يلـح إلحاحـاً شـديداً في حضـورك ضيفاً عليه في ضـيعته في كونيكتكـت للتقابـل مـع هنـري كيسـنجر في عطلـة آخـر الأسـبوع الأول أي ٢ و٣ أكتـوبر- وقـد قبـل كيسـنجر حجـز هـذين اليـومين لمقابلتك.

وقد أبلغت كاندال أنك وُجدت من الصعب في الظروف الحاضرة التغيب عـن القاهرة، وأنك شاكر له كريم جهوده، إلا إنـه تسـاءل عمـا إذا كنـت لا تـري أن في ذلك فائدة، وعاودت الشرح بأن الأمر لا يعدو أكثـر مـن انشـغالك في القـاهرة في الآونة الحاضرة لدرجة يتعذر معها خروجك إلى خارجها.

ذكـر كانـدال إنـه يعتقـد أنـك وكيسـنجر متشـابهان في الـروح والأسـلوب، وستنسجمان من أول وهلة مع بعضكما- وهو ما صدقت عليه- وبالفعـل أعتقـد تماماً إنه حقيقي- واتفقنا على أن أحاول معك من جديد على أن ترد على برقياً فـور تلقيك هذا بالنتيجة حتى يمكن الرد على كيسنجر.

ذكرت في الحديث أن المصيبة أن الجو ليس فيه أي تحرك بل جمود كامل، وأنه لو حصل انقشاع لأمكن استغلاله، بل ولساعد ذلك على حضورك أيضاً.

وافقني إنما أكد أنه لهذا السبب بالذات فإنه مـن الأفيـد حضـورك، فهـو - أي كاندال - يرى جموداً كاملاً في موقف إسرائيل، وكيسنجر يذكر له أنه يسمع كل يوم

من الجانب الإسرائيلي إنما ليس هناك من يمكن أن يحدثه بحرية، ودون رسميات في الجانب العربي؛ ولذا يشعر كاندال أن لقاءك مع كيسنجر لازم ومفيد.

أشرت إلى حضور الوزير محمود رياض إلى نيويورك، ومن المحتمل مجيئه لواشنجتون وستكون فرصة لأن يلتقي رياض وكيسنجر، وهو ما أتوقع حصوله لو تمت الزيارة لهنا، إنما بالطبع سيكون لقاء من نوع آخر تحكمه- على الأقل في البداية- طبيعة رسميات العمل والمناصب.

وكما ذكرت أننا انتهينا على أن نضع الأمر من جديد تحت نظرك، مع رجاء الإبراق بإذا كان ممكناً أم لا.

أخوك

أشرف

وكان رأي محمد حسنين هيكل ـ لا يزال ـ أن الوقت ليس ملائماً بعد لاجتماع من هذا النوع، وكتب بذلك إلى السفير أشرف غربال.

ولم يجد هيكل ضرورة للحديث في هذا الأمر مع الرئيس أنور السادات.

وهو أمر يجب التوقف أمامه طويلاً..

اتصال يجري مع كاتب كبير معروف صلته بالحاكم، ومشهور قربه من السلطة، بشأن له قيمة فتح قناة اتصال مع إحدى القوتين الأعظم، التي تؤثر ـ من دون شك ـ على مسار ومسيرة القضية العربية، وخاصة أنها القوة التي ظل هذا الكاتب يكتب طويلاً من أجل تسيير أو تمرير فكرة تحييدها، ثم لا يدفع ذلك كله إلى أن يذكر الكاتب لرئيس الدولة الذي يحادثه بصفة تكاد تكون يومية أي شيء عن الموضوع ولو من باب العلم بالشيء..

هل هذا طبيعي؟

وهل هذا منطقي؟

وهل يمك[illegible] بره؟

أكثر مز [illegible] ريكا، وبع[illegible]

من السفير نفسه، والرسالتان الشفوية والتحريرية تحملان الدعوة الأمريكية لإقامة اتصال وتواصل حول قضايا المنطقة، ورغبة الطرف الأمريكي في الاستماع إلى وجهة النظر العربية..

ويكون الرد من هيكل برقية تقول الوقت غير مناسب..

من صاحب القرار في أن يكون الوقت مناسباً أم غير مناسب..

وإذا كان صحيحاً أن يكون لهيكل رأي فمن يكون له القرار..

وإذا كان رأي هيكل يمكن أن يكون قراراً فيما يخصه، وهو قبوله شخصياً للدعوة، أو حتى عدم قبولها، فمن يقول إن الرأي الخاص في شأن خاص يمكن أن ينسحب على قضية عامة تخص الوطن، وعلاقاته الدولية المؤثرة بشدة في أهم قضاياه..

وسواء اتفق أو اختلف مع الرئيس، يبقي أن القرار يجب دائماً أن يكون قراره، لأنه وحده المنتخب من الشعب، وهو دستورياً رأس سلطة اتخاذ القرار في الدولة..

ولكن هيكل في تلك الواقعة اغتصب لنفسه سلطة القرار، وطبقاً لروايته، فإنه لم يجد ضرورة للحديث في هذا الأمر مع الرئيس أنور السادات..

صحيح أن رأي هيكل بهذا الخصوص وأسبابه حول رفض الدعوة تدخل كلها في باب صحيح الاجتهاد..

وصحيح أن رأي السادات بهذا الخصوص كان خاطئاً وأن سياسته القائمة على التلهف غير المحمود على إجراء اتصال له نتائج متوقعة لمصلحة القضية العربية..

كل هذا صحيح، ولكن أن يرى هيكل في أمر يخص الدولة رأياً هذا شيء، وأن يتخذ بنفسه القرار نيابة عن صاحب القرار فهذا شيء آخر، مختلف، ولا يمكن تبريره، أو قبوله.

لهيكل الحق في ألاَّ يرى أهمية لمثل هذا الاتصال وقد كان محقاً.

وعلى هيكل واجب أن يبلغ الرئيس، وعليه أيضاً واجب أن يذكر له رأيه في

الموضوع، ثم يترك له حرية اتخاذ ما يراه مناسباً ،مع بقية المسئولين، ومع المؤسسات الدستورية الأخرى في البلد..

لا يمكن تفسير ألا يجد هيكل ضرورة للحديث في أمر هذا شأنه، مع رئيس الدولة الذي يحتفظ معه بعلاقات ود وتحالف في ذلك الوقت، إلا من زاوية النظر التي يرى فيها هيكل ذلك الرئيس.

هل يمكن أن يتصور عاقل، أو حتى مجنون، أن هيكل كان يمكنه أن يخفي مثل هذا الأمر عن علم جمال عبد الناصر؟

قد يجوز تصور ذلك لو أن القائم بالأعمال المصري لم يتصل علمه بالواقعة، أما وقد علم فقد كان الأمر الطبيعي ـ فضلاً عن أنه الأمر الرسمي ـ أن يجري إبلاغ السلطة الرسمية بتفاصيل الدعوة عبر وزارة الخارجية أو إلى الرئيس مباشرة.

هنا الفارق بين العلاقتين..

الفارق بين علاقة هيكل مع عبد الناصر..

وبين علاقته مع أنور السادات..

وهنا الفارق بين نظرة هيكل وطريقة تعامله مع الرجلين..

وهنا الفارق بين رؤية هيكل لما يجوز في العلاقة بينه وبين كلاً من الرئيسين..

والفرق في كل الأحوال كبير.. كبير جداً..

-٥-

ونعود إلى القصة برواية هيكل:

ومضي شهر، وفي يوم ٢ نوفمبر سنة١٩٧٢ اتصل الرئيس أنور السادات بـ«محمد حسنين هيكل» وكانت الحماسة ظاهرة من أول كلمة نطق بها، قال :

- محمد.. أخيراً كيسنجر أدرك أنه من الضروري عليه أن يتصل بنا.

ثم استطرد الرئيس السادات قائلاً:

- هو يريد أن يقابلك.. إن أحد أصدقاء نيكسون اتصل بالزيات، وتحدث معه في ذلك، والزيات رأي أن يكتب خطاباً بالتفصيل لفوزي (يقصد الدكتور محمود

فوزي) وقد طلبت من فوزي أن يطلعك على خطاب الزيات وأن يبحث معك كل ترتيبات سفرك إلى أمريكا.

وأبدى محمد حسنين هيكل ملاحظة قال فيها للرئيس السادات أن لديه فكرة عن أن كيسنجر يريد مقابلته، وكتب إليه أشرف غربال بتفاصيل اقتراح اللقاء والموعد والمكان المحددين له، وكذلك كتب إليه صديق نيكسون (كاندال) ولكنه أرسل برقية اعتذار.

ثم استطرد الرئيس السادات يقول:

- إيه ده ؟ اعتذار إيه ؟ كيسنجر يا محمد.. كيسنجر ...

وفي اليوم التالي ذهب محمد حسنين هيكل إلى لقاء مع الدكتور محمود فوزي، وكان اللقاء في القاعة التي كان يفضل الدكتور فوزي أن يجري فيها مقابلاته بالمبني القديم لوزارة الخارجية.

وهناك روي الدكتور فوزي لضيفه تفاصيل خطاب الزيات، وقد أرسله زيادة في ضرورات الأمن مع السيد عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية[1].

وكان نص الخطاب كما يلي:

السيد الدكتور محمود فوزي رئيس الوزراء..

سيادة الرئيس..

طلب إلى أحد أصدقاء الرئيس نيكسون المقربين، وهذه حقيقة أعرفها، أن أنقل رسالة إلى السيد رئيس الجمهورية مباشرة وله خاصة، وقد انتهزت فرصة سفر الأمين العام حسونة باشا إلى القاهرة الآن، فرجوته أن يضع هذه الرسالة في يديك لتتفضل مشكوراً بالنظر في عرضها على السيد الرئيس.

وصديق المستر نيكسون هو المستر دونالد كاندال- رئيس مجلس إدارة شركة

---

(١) يقصد الدكتور محمد حسن الزيات المندوب المصري الدائم وقتها في الأمم المتحدة، والذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية.

بيبسي كولا- وقد دعاني لتناول الغداء معه يوم الثلاثاء ٢٦ أكتوبر الماضي، وبعد حديث عام قال إنه يعتقد إنه لابد من تأثير على البيت الأبيض عن غير طريق الاتصالات الرسمية والعلنية، ولما كان من المطلوب من أمريكا الآن هو أن تضغط على إسرائيل، فإنه يحسن أن يسمع كيسنجر وجهة النظر العربية بطريقة عميقة وشاملة.

وقال كاندال أن كيسنجر حسن الثقة في نفسه وفي معرفته بشئون العالم وإنه- أي كاندال- عندما زار مصر، قابل فيها رجلاً له صفات كيسنجر، ومزاياه، وهو الأستاذ محمد حسنين هيكل.

ولذلك يعتقد كاندال أن هناك فائدة كبيرة من أن تتم مقابلة بينهما، بشكل سري تماماً، ولذلك يقترح أن تتم هذه المقابلة في عطلة نهاية الأسبوع يقضيانه في منزله (أي منزل كاندال) في ضواحي نيويورك (قرية بيرشويز) القريبة من جرينتش (كونيكتكت)، بل لقد قال لي كاندال إنه من الممكن إرسال طائرة خاصة إلى القاهرة لنقل الأستاذ هيكل تهبط في مطار جرينتش نفسها (أي ليس في نيويورك)، وتعود به إلى القاهرة بعد نهاية الأسبوع (المقصود السبت والأحد).

وكذلك قال لي كاندال إنه سبق أن أبدي هذه الرغبة للدكتور أشرف غربال، وطلب نقلها إلى الأستاذ هيكل، وبناء على ذلك كان كيسنجر قد حدد فعلاً مواعيده ولكن شيئاً لم يتحقق، وقال كاندال : إنه كان في واشنطن أمس (أي يوم الاثنين ٢٥ أكتوبر)، وشهد مع الرئيس نيكسون في البيت الأبيض نتائج التصويت الخاصة بموضوع دخول الصين في الأمم المتحدة على التليفزيون... وبعد حديث عن هذا الموضوع ليس هنا مكانه... قال أن كيسنجر سأله ألم يتم شيء في موضوع مقابلته لهيكل فأجابه بالنفي.

وقد كان طلب كاندال أن أوصل هذه الرسالة إلى القاهرة.

وذكرت للمستر كاندال إنني أستطيع الاستجابة إلى طلبه في حالة أن يكون موجهاً إلى السيد رئيس جمهوريتي - وقد قبل ذلك فوراً - وذكرت أن السيد الرئيس يمكن له عندئذ أن يتخذ ما يراه، وأن يبلغني برأيه، بالطريقة التي يراها، وذكرت أنه لن تعوز القاهرة الطرق التي يمكن أن تبلغ بها كاندال الجواب على دعوته.

واستكمالاً لهذا الحديث سألت كاندال هل يتعين أن تكون مناقشة كيسنجر مع الأستاذ هيكل، فكانت إجابته أن هذا أفضل لتشابه شخصيتهما، ولأن هيكل ليست له صفة رسمية، ثم أن ذلك كان اقتراحه بعد أن استمع إلى هيكل في حديث طويل عن أزمة الشرق الأوسط في القاهرة.

وسألته هل يعتقد أن ذلك سيوصلنا إلى طريق الحل، فقال إنه يرجو أن تكون هذه المقابلة التي يتحمس لها الرئيس نيكسون مثمرة في التعرف على وجهات النظر، وهذا هو أهم شيء في هذه المرحلة.

سيادة الرئيس :

هذا هو ملخص ما تم في هذه المقابلة، أضعه بين يديك دون تعليق أو إضافة، وهذا الخطاب أودعه يد الأمين العام ليكون في يدك بعد وصوله إلى القاهرة، ولا أضيف إليه إلا أصدق الاحترام وأخلص التمنيات، ودعواتي الخالصة لكم بالتوفيق ولبلادنا ورئيسها باستمرار السداد.

المخلص :

محمد حسن الزيات.

-٦-

وفي يوم ٧ نوفمبر كان محمد حسنين هيكل ضيف عشاء على الرئيس السادات في بيته، وقد جلسا إلى مائدة العشاء وليس معهما غير السيدة جيهان السادات، وبعد العشاء جلس الثلاثة في شرفة الدور الثاني المطلة على النيل، وهي شرفة أغلقت بالزجاج وتحولت إلى ما يشبه صالوناً عائلياً خاصاً، وكان الرئيس السادات يريد أن يعرف رأي محمد حسنين هيكل في موضوع لقائه مع كيسنجر.

وكان هيكل لا يزال على رأيه في أن الموقف لا يزال غير مناسب لمثل هذا اللقاء، وراح يعد أسبابه لذلك :

- أن الموقف العسكري على الجبهة لا يزال على حاله لم يتغير منذ أن كان أيام ويليام روجرز هنا في مايو الماضي.

- والموقف السياسي الدولي لا يزال هو الآخر كما كان، ولم يطرأ عليه جديد، بل بالعكس فإن موقف الاتحاد السوفيتي يتأرجح.

- وفي ظل الموازين الراهنة فإن إسرائيل - والولايات المتحدة وراءها - وكيسنجر بالطبع - سوف يطلبون تنازلات لا تستطيع مصر تقديمها.

وفي كل الأحوال فإن ما هو جاهز للعرض تحت المائدة في محادثات سرية مع كيسنجر لن يزيد على ما كان معروضاً فوق المائدة في المحادثات العلنية مع ويليام روجرز.

- أن تحليل الموقف يشير إلى أن كيسنجر لا يستطيع في اللحظة الراهنة أن يعطي شيئاً له قيمة، لأنه فيما يظهر الآن يريد أن يأخذ الأزمة معه إلى موسكو لمفاوضات الوفاق.

- وهو الأرجح يريد اتصالات سرية مع مصر، وسوف يقوم بتسريبها إلى الاتحاد السوفيتي ليزيد من شكوكه في مصر بما يساعد على تليين موقفه في أزمة الشرق الأوسط، وهذا أمر لا ينبغي أن نساعده عليه.

- وحتى إذا كان يريد أن يتحدث بطريقة جدية، فهو يريد أن يستعمل ما قد يتوصل إليه في مصر كورقة مع الاتحاد السوفيتي، ومعني ذلك أن السوفييت قد يزداد شكهم في الموقف المصري، ومن ثم يؤثر ذلك على شحنات السلاح، وهذه نقطة محورية لأننا قد نضطر في النهاية إلى استخدامه في مرحلة من مراحل الاتصالات، وحينما تتعثر، وهي لا شك متعثرة.

- أن الأوضاع في مصر لا تبدو مستقرة، فهناك شعور عام بالإحباط، كما أن هناك تغييراً وزارياً إلى الأبواب، ثم أن الجامعات المصرية تبدو فيها ظواهر قلاقل، وتلك كلها عوامل لا تساعد أي متحدث مصري مع هنري كيسنجر.

- أن العلاقات العربية - العربية خصوصاً على الجبهة الشرقية، وبالذات في علاقات سوريا بالأردن، والمقاومة الفلسطينية والأردن في حالة صدام. وهذا وضع من شأنه أن يضعف موقف أي متحدث مع كيسنجر.

- وفي الغالب فإن كيسنجر يسعي إلى اتصالات سرية مع مصر في إطار عداوته المريرة مع ويليام روجرز.

وهذا وضع غير ملائم موضوعياً.

وأخيراً، فإن هنري كيسنجر بحكم كونه يهودياً، لا يستطيع أن يكون موضوعياً في أمر يتعلق بإسرائيل، ولقد كان دائماً يعلن أنه يريد أن يبتعد عن أزمة الشرق الأوسط، فما الذي جد الآن وجعله يغير رأيه ويقرر أن يقترب؟، إلا أن يكون في ذهنه شيء غير واضح لنا حتى الآن، وعلينا أن نبحث عنه قبل أن نذهب إليه.

وكانت الخلاصة أنه لابد من صنع حقائق جديدة على الأرض يكون من شأنها تغيير الموازين أكثر لصالحنا حتى يمكن أن تكون هناك فائدة من أي لقاء.

ولم يكن الرئيس السادات على استعداد للاقتناع، ودارت مناقشة طويلة استمرت حتى منتصف الليل، وتدخلت فيها السيدة جيهان السادات في محاولة منها لتقريب وجهات النظر.

وكانت الحقائق أقوى من المشاعر لسوء الحظ، ووصلت الأمور مرة أخري - كما يقول هيكل - إلي حائط مسدود.

وكان الرئيس السادات عاتباً ـ وربما أكثر من ذلك ـ متضايقاً.

وأسرها السادات في نفسه، وكظم غيظه..

عرض كينسجر لقاء سرياً مع هيكل، ولكنه رفض، رغم ترحيب السادات، الذي كان يتشوق إلى خلق «تفاهم ما» مع كينسجر، يغنيه عن دخول غمار حرب لا يعرف كيف تنتهي، ولا كيف تؤثر على بقاء نظامه وأمنه.

أحس هيكل الذي كان يكتب ناقداً مواقف الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت أن السادات يريد الاتجاه إلى واشنطن عبر أقنية سرية، ورفض أن يكون هو واحد من هذه القنوات.

كان رفض هيكل قاطعاً..

وكان خيبة أمل السادات فيه كبيرة..

الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة
بين الكاتب والسلطان

أول خلاف بالواسطة

◆◆◆

-١-

خلفية ثانية :

كيسنجر ثاني مرة:

وبعد مرور عام تقريبا نكأ «الأستاذ» الجراح التي لم تكن قد طابت بعد، وفي سلسلة مقالات تحت عنوان «مسافر وسط العاصفة» (بصراحة رقم: ٦٩٥) نشر الحلقة الأولى منها يوم ١٥ سبتمبر١٩٧٢ كتب هيكل يقول:

ما كدت أصل إلى ميونيخ حتى امتلأت صحف العالم وإذاعاته بحكايات تقول: أن مقصدي من السفر إلى عاصمة بافاريا هو ترتيب للقاء بيني وبين هنري كيسنجر مستشار الرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي، وإنها محاولة جديدة في الدبلوماسية السرية التي مارسها كيسنجر بنجاح مشهور في بكين وموسكو وباريس.... وجاء الدور فيها الآن على أزمة الشرق الأوسط !

وسمعت لأول مرة بحكاية كيسنجر من صاحبة فندق هادئ حللت به أياماً على ضفاف بحيرة في شمال النمسا قبل أن تبدأ الدورة الأوليمبية.

ذهبت إلى مدخل الفندق ذات صباح مبكر لآخذ مجموعة من صحف لندن وباريس حتى لا أنقطع عن الدنيا فإذا صاحبة الفندق وكانت في شبابها ممثلة لامعة من نجوم المسرح والسينما واقفة في انتظاري واقتربت همساً تسألني:

- هل ستقابل كيسنجر هنا في هذا الفندق أو أن اللقاء سيتم خارجه؟».

ونظرت إليها بدهشة وسألتها :

- من الذي قال بأنني سأقابل كيسنجر؟».

ونظرت إلى السيدة الرقيقة نظرة ممثل محترف إلى ممثل هاو !

وقالت لي:

- أوه..... هر هيكل...... أن القصة كلها منشورة في الصفحات الأولى من جرائد سالزبورج هذا الصباح!».

ثم أضافت وصوتها يتهدج بالرجاء :

- من أجل خاطري دع هذا اللقاء يتم هنا.... إنه سوف يجعل من هـذا الفنـدق مكاناً مشهوراً!»

وتناولت منها صحف سالزبورج التي كانت تحملها، ورحت أحـاول اسـتقراء السطور،ثم قلت لها ضاحكاً :

- «هل تصدقين الصحف؟»

وسألتني باستغراب :

- «ألست أنت صحافياً؟».

وقلت لها على الفور :

إذا كانت تجربتي مع الصحافة أكثر من ثلاثين سنة قد علمتني شيئاً، فهـو أن لا أصدق كل ما أقراه في الصحف».

وحملت معي مجموعة صحف لندن وباريس التي جئت من أجلها، وذهبـت إلى شرفة هادئة على البحيرة... وكانت السيدة الرقيقة غارقة في الدهشة والاستغراب ، ولا أعرف ماذا كان يجول في خواطرها تلك اللحظات..

لكن الحكاية بدأت تأخذُ شكلاً آخر على ضفاف بحيرة أخري بعد أيام قليلة.

ويسرد لنا هيكل المشهد:

كان «ويلي براندت» مستشار ألمانيا الغربية قـد دعـاني إلى فنجـان قهـوة معـه في صباح أحد الأيام في فيلا أنيقة ينزل فيها في منطقة «فيلدا فنج» الغربية من «ميونيخ» والمطلة على بحيرة «ستارنبرج».

وفوجئت بويلي براندت يسألني:

- هل صحيح أنك ستقابل كيسنجر في ميونيخ؟.

وقلت له وأنا أعيد فنجان القهوة إلى المائدة التي كان عليها قبل أن آخذ منه أول رشفة:

- أنت أيضاً تسألني هذا السؤال..... إنـك حـاكم ألمانيـا الاتحاديـة، وتعـرف

بحكم منصبك كل ما يجري فيها، لا يخفي عنك من أمره شيء، فهل في علمك أنني سأقابل كيسنجر؟

وقال ويلي براندت:

- في علمي لا، بل إنني أعرف أنك لن تكون موجوداً في ميونيخ حينما يصل كيسنجر إليها، إنه سوف يجيء في آخر يوم من أيام الدورة، وطبقاً لما فهمت، فإنك في ذلك الوقت سوف تكون في روما - لكن المسألة أن إلحاح الصحف والإذاعات في العالم جعلني أتساءل.

ومضي حديثي مع براندت في مجراه إلى أمور شتي.

وحين وصلت إلى فندقي في ميونيخ - بعد لقائي مع مستشار ألمانيا الغربية - كانت بطاريات التليفزيون الألماني في انتظاري على بابه.

وتصورت أن السؤال الأول المنتظر سوف يكون عن الاجتماع الذي انتهيت منه لتوي مع براندت لكن «أبعد الأشياء عن الظن، هو أقربها إلى الوقوع دائماً، كما يقول أندريه مورو...

كان السؤال الأول لدي مذيع التلفزيون الألماني هو نفس الحكاية، وأكثر تطوراً، ذلك أن مذيع التلفزيون الألماني اعتبر أن اللقاء بيني وبين كيسنجر مسألة مفروغ منها، ومن ثم صاغ سؤاله على النحو التالي:

- إن ذلك اللقاء المنتظر بينك وبين كيسنجر، باعتباركما مستشارين لرئيسين سوف يكون لقاء مثيراً، فماذا تتوقع أن يتحقق فيه؟».

ووجدتها فرصة لكي أقول ما عندي...

قلت لسائلي وأجهزة التسجيل تدور وعدسات التصوير تئز:

- دعني أولاً أصحح لك مسألة شكلية:

إنك أشرت في سؤالك إلى مستشارين لرئيسين، وذلك فيما يتعلق بي ليس صحيحاً..

إن هنري كيسنجر مستشار للرئيس ريتشارد نيكسون، ولكنني لست مستشاراً

للرئيس أنور السادات. ..

إن مستشار الرئيس وظيفة رسمية في مصر لها من يشغلها، وهو بالتأكيد ليس أنا. ..

الوظيفة ليست لي رسمياً..

والصفة ليست لي واقعياً...

أنت تعرف أنني صحافي أولاً وأخيراً، وأي دور لي هو بإبداء الرأي كتابة وعلى الورق، على ورق الصحف لكي لا يكون لبس، وفيما عدا ذلك لا شيء.

هذه ملاحظة شكل.

ننتقل إلى الموضوع، دعني أقل لك إنه ليس في علمي، ولا في نيتي أن يكون هناك لقاء بيني وبين هنري كيسنجر.

وإذا أردت حتى أن أفعل ذلك كصحافي فإني لن أفعله هنا في ألمانيا، ولا الآن في هذه الظروف..

ثم قلت بالحرف الواحد لسائلي تحت سمع آلات التسجيل وتحت بصر عدسات التصوير:

- إذا أردتني أن أضيف شيئاً آخر، فدعني أقل لك: إنني لا أعتقد أنه في مقدور الولايات المتحدة الأمريكية في الوقت الراهن أن تسهم بأي جهد إيجابي في أزمة الشرق الأوسط.

ومنذ شهر نوفمبر الماضي - أي منذ سنة تقريباً - فإنني أعارض أي اتصال بيننا وبين الولايات المتحدة، ورأيي الآن بالنسبة لنا أن هناك أولويات لابد لها أن تسبق أي شيء آخر، بل إنه بدونها يصبح أي شيء آخر مجازفة في الفضاء.

هناك أولاً قضية إعادة ترتيب وتوثيق العلاقات بيننا وبين الاتحاد السوفيتي على أساس صحيح وصحي، ولا يجب أن يخامركم شك في أن الاتحاد السوفيتي أهم وأقرب الأصدقاء بالنسبة لنا.

وهناك ثانياً قضية إعادة ترتيب وتدعيم الموقف العربي العام لمواجهة واسعة

ومتعددة الأساليب مع الولايات المتحدة الأمريكية قبل غيرها من القوي.

وهناك ثالثاً قضية إعادة ترتيب وتعبئة طاقتنا للمواجهة المباشرة مع إسرائيل سواء كان ذلك على نطاق مصر، أو على نطاق دولة الوحدة المصرية الليبية أو على نطاق دولة الاتحاد المصري الليبي السوري.

بعد ذلك كله نعم..... قد يكون مفيداً أن نفتح الباب..

قبل ذلك كله لا..... لأن فتح الباب يصبح كما قلت مجازفة في الفضاء...

كان هذا هو المشهد الأول:

وفيه يعلن هيكل من قلب عاصمة غربية هامة أقوالاً لا يوافق عليها السادات، ويبدي آراء ليست محل اتفاق بينهما، ويكاد يذيع أسراراً تفضح ما يجري خلف الأبواب المغلقة لقصور الرئاسة في مصر.

فقد تطوع بالقول أنه لا يعتقد أن في مقدور الولايات المتحدة الأمريكية في الوقت الراهن أن تسهم بأي جهد إيجابي في أزمة الشرق الأوسط.

وهو أمر يريد السادات أن يملك حرية الحركة فيه، ولا يريد أن يحده كلام مثل أنها لا تملك المقدرة على المساهمة الإيجابية في قضية الشرق الأوسط..

ثم انه راح يؤكد، وكأنه المتحدث باسم مصر، أن الاتحاد السوفيتي أهم وأقرب الأصدقاء بالنسبة لنا، رغم أن السادات كان قد انتهى لتوه من طرد الخبراء السوفييت من مصر، وهو القرار الذي يعتبره من قراراته التاريخية..

ثم أن هيكل صرح أنه يعارض منذ سنة تقريباً أي اتصال بيننا وبين الولايات المتحدة، وهو تلميح إلى وجود مثل هذه الاتصالات التي يعارضها..

وهو ما أثار ـ لا شك ـ ضيق السادات..وربما حنقه..

ومرة أخرى لم يجد السادات أمامه ما يفعله غير أنه أسرها من جديد في نفسه.

***

-٢-

خلفية ثالثة:

الأسئلة المستفزة

في نفس سلسلة المقالات التي أخذت عنوان «مسافر وسط العاصفة» وفي الحلقة(٣) منها المنشورة بتاريخ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٢ كتب هيكل يؤكد أنه:

«لا حل هناك في أي مكان، ولكن الحل هنا على هذه الأرض، وليس على أي أرض غيرها، هنا على هذه الأرض يوجد القفل، ويوجد المفتاح ».

ثم أشار إلى قضية هامة جداً، وهي أنه «منذ بدأت أزمة الشرق الأوسط ونحن في أمل مرتبط بأجل، أقصد أن أملنا كان دائماً يرتبط بشكل معين من التطورات، أو أنه كان يرتبط بموعد محدد مع الزمن، نحن الآن في موقف مختلف، الأمل لا يرتبط بأجل، لا بتطورات تجري أمامنا.. ولا بموعد مع الزمان حددناه نحن أو حدده غيرنا..

وهذا مبعث الإرهاق، لأنه حين لا يصبح الأمل مرتبطاً بأجل، فإنه يبدو كما لو كان معلقاً في الهواء..

وراح هيكل يفند أقاويل تحاول أن تجد في ظروف الواقع طريقا للهروب من مسؤولية تغييره، فقال:

- أحياناً نصور لأنفسنا أننا غارقون في الديون مثلاً - للاتحاد السوفيتي أو لبعض الدول العربية التي تقدم لنا دعماً - وذلك ليس ما تقول به كشوف الحساب السليم.

- أحياناً نصور لأنفسنا أننا غارقون في الضعف بعد الغرق في الديون، وذلك أيضاً أبعد ما يكون عن الصواب..

ومن المبالغة في تصوير أنفسنا بالضعف فإننا نبالغ في تصوير عدونا بالقوة، وهذا هو الجانب الآخر من العملة كما يقولون..

وبعض ما نسمعه الآن غريب، أو على الأقل فإنه غير مقنع، ونموذج له السياق التالي :

- الولايات المتحدة الأمريكية :

« لا فائدة منها لأن موقفها انحياز بالكامل إلى جانب إسرائيل

- الاتحاد السوفيتي :

وهو القوة العظمى الثانية « وعد وأخلف، أو على الأقل تعهد ولم يف بما تعهد به كاملاً » واعتقادي الشخصي أننا يجب أن نقيس موقف الاتحاد السوفيتي على نحو آخر.

إن الاتحاد السوفيتي لم يقدم لنا كل ما طلبنا، ولكن الاتحاد السوفيتي قدم لنا الكثير مما طلبنا.

وظني أن الاتحاد السوفيتي أخطأ معنا، ولكن ظني في نفس الوقت أننا قدمنا لسوء التفاهم نصيبنا من الأخطاء.

والأمة العربية،

يقال لنا اليوم - ضمن ما يقال ـ إنه لا فائدة من تعبئة قواها، ولا دعوة دولها إلى مؤتمر على مستوي القمة؛ - يكون الإعداد له سليماً ووافياً - بحيث يستطيع مثل هذا المؤتمر أن يواجه جبهة عريضة أمامنا تتعدد عليها القوي وتتنوع الأسلحة.

إذا قبلنا هذا المنطق وهو غريب أو على الأقل غير مقنع فماذا نجد أمامنا ؟

سوف نجد الصورة التالية :

- أمريكا ضدنا :

الاتحاد السوفيتي ليس معنا.

أوروبا الغربية مشغولة عنا.

الرأي العام العالمي معبأ ضدنا.

والأمة العربية عاجزة، والتقاؤها كتفرقها سواء بسواء.

كل هذا ونحن نواجه صداماً هو أكبر بالتأكيد من قوتنا وحدها لسبب بسيط هو أننا نسلم مقدماً بأن أمامنا فيه إسرائيل ثم الولايات المتحدة وراء إسرائيل.

والسؤال الذي سوف يواجهنا بعد ذلك كله:

- هل نعرف ماذا يمكن أن يكون تأثير هذا كله على قوتنا الذاتية ونحن ذاهبون إلى الحرب.... أو حتى إلى الحل؟ ».

ولو جاز لي أن أجيب لقلت ببساطة:

- معناه أننا ذاهبون إلى الحرب أو حتى إلى الحل نصف عراة...».

ولا أعتقد - وربما كنت على خطأ - أن هذا هو الوضع الأمثل لصدام لاشك فيه مع الخطر...

-٣-

ويعود هيكل مرة أخرى ليلح عل نفس الأفكار بطريقة جديدة، وكان ما يزال «مسافراً وسط العاصفة»[(١)] ، ولينقل أسئلة الخارج التي تواجه الموقف المصري لتصبح هي نفسها الأسئلة المطلوب أن يمتلك صانع القرار أجوبة واضحة عنها وقال:

إننا الآن سوف نجد لدي العالم أسئلة مطروحة علينا أكثر مما سوف نجد أجوبة جاهزة لنا.

سوف يكون السؤال من كل الناس وفي كل مكان:

- هل تعرفون حقيقة ما يجري أمامكم... وحولكم... وفي العالم كله؟ وهل حددتم لأنفسكم هدفاً وطريقاً حسبتم تكاليف ومخاطر العبور منه؟».

ثم يقول:

ولقد عدت من سفر وسط العاصفة وفي ظني أننا هنا نحتاج إلى إجابات نعطيها لأنفسنا قبل أن نلقيها للآخرين.

وفي سلسلة مقالات جديدة تحت عنوان «رحلة إلى عصر جديد»[(٢)] يقول:

---

(١)بصراحة رقم١٠٧، المنشورة بتاريخ٦ أكتوبر سنة١٩٧٢.

(٢)بصراحة رقم ٧٠٨ـ الحلقة الثالثة ـ منشورة بتاريخ ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٧٢.

«إن المناخ الصالح الوحيد الذي نستطيع أن نمارس فيه كفاحنا هو مناخ الحرية بغير صد أو تخويف... أو حتى تشكيك، والحرية التي أعنيها هي الحرية الملتزمة... والحرية المسئولة بالتزامها...

وأسوأ مناخ يمكن أن يمارس فيه كفاح هو مناخ يصبح فيه النقد خصومة، وتصبح فيه الخصومة عداء، ويصبح فيه العداء خيانة».

وأريد أن أقول :

«إن الاشتراك في الحوار يجب أن يكون حقاً مقدساً لكل واحد فينا، إن «الإنسان» يموت في كل هؤلاء الذين يستسلمون للصمت و«الإنسان » يقتل - ولو بغير دم - في كل هؤلاء الذين يفرض عليهم الصمت!».

وفي هذا المقال أجرى عملية تلخيص نهائي لكل ما قاله على الوجه التالي:

١ - إسرائيل تريد أن تتوسع.

٢- لا أحد سوف يرغم إسرائيل على الانسحاب من أرضنا.

٣- لا أحد يريد حلاً حاسماً لهذا الصراع.

٤ - التحدي الذي يواجهنا عسكرياً أكبر من قوة أي بلد عربي بمفرده.

وإذا وضعنا هذه الحقائق المؤكدة أمامنا، فإننا سوف نخرج من ذلك بأحد قولين لا ثالث لهما :

إما أن نقول لأنفسنا : نحن أمام ما لا طاقة لنا به، وإذن؛ نكون حكمنا على أنفسنا، ليس فقط بالهوان، وإنما بالزوال أيضاً، لأن الحلم الإسرائيلي لن يضرب الحلم العربي فحسب، وإنما سوف يسحق الوجود العربي ذاته.

وإما أن نقول لأنفسنا : ليكن، هذا هو حجم التحدي، وليس أمامنا من سبيل غير الوقوف أمامه، وصده، وضربه.

واعتقادي الشخصي، بمنتهى الوضوح، أن ذلك ممكن، بل لعلى أقول: إن ذلك هو الممكن الوحيد، لأن غيره ليس مطروحاً من الأصل.

لكن هناك شرطاً واحداً ووحيداً، لابد من توفيره عندما نقول بذلك...
شرط مؤداه:
- إذا كنا نعني ما نقول... إذن، فلابد من طاقات الأمة العربية كلها... أو أكبر جزء من طاقاتها متاح أو يمكن أن يكون متاحاً على ساحة الصراع.

كانت مثل هذه الأسئلة تغيظ السادات، وتضعه أمام موقف لا يحسد عليه، ولا يقدر على شيء غير السكوت، حتى تحين الفرصة، أو حتى ينفجر به الغيظ المكتوم.

-٤-

خلفية رابعة:

أهداف السادات، وأحقاد موسى

كان السادات قد كظم غيظه طويلاً، وصبر يتحين الفرصة للنيل من هيكل، وقرر أن يستخدم المدفعية الثقيلة التي يمتلكها؛ قلم صديقه المقرب موسى صبري، وهو الذي يعلم ما كان يعانيه من أحقاد على هيكل، فأطلق يده..

ولم يكن أحد يعرف المخفي من كل هذه الخلفيات التي ذكرناها، وهكذا وبدون مقدمات، فوجئت الأوساط الصحافية والسياسية في الربع الأخير من عام ١٩٧٢ بحملة ضد محمد حسنين هيكل، حملة هي الأولى من نوعها، ولن تكون الأخيرة، حملة دشنت استباحة الصحافي الكبير، شنها موسى صبري الصحافي وثيق الصلة بأنور السادات، وخرجت من التلميح إلى التصريح، ومن الغمز إلى العبارات المدوية.

وكان موسى قد حصل على الموافقة على ما ينوي عليه، أو لنقل أنه أخذ إشارة البدء من رئيسه المحبوب، ولكن إحسان عبد القدوس رئيس مجلس إدارة الجريدة لم يكن يعرف، وعندما علم من مصادره داخل الجريدة بما كتبه موسى صبري وينوي نشره اتصل به - كالعادة - يسأله عن الأخبار، يروي لنا موسى صبري تفاصيل القصة[1] فيقول:

---

(١) في كتابه «السادات الحقيقة والأسطورة» - من ص٥٩٢ إلى ص٥٩٤.

سألني إحسان عبد القدوس عن الأخبار فأجبته:

ـ لا جديد

وسألني: هل لك مقال غداً؟

قلت : نعم (وفهمت أن أحداً أبلغه بما في المقال)

وسألني : وما موضوعه؟

قلت : إنني سأهاجم في المقال موقف محمد حسنين هيكل من الحرب، وهو المقال الأول، وسأنشر الثاني في اليوم التالي. . .

فقال لي: ليس من رأيي مهاجمة هيكل. .

قلت: وأنا من رأيي مهاجمة هيكل..

قال: على أية حال سأحضر إليك..

كان في منزله، وحضر إلى المؤسسة، والتقينا في مكتبه، وقال لي أنه يعتقد أن هيكل شخص تافه وأنه لا يستحق أن تهاجمه .

قلت: هيكل ليس تافهاً، هيكل كاتب له قلمه المؤثر، وقد كان يحكم مصر.

وقال: ولكني لا أري داعياً للهجوم عليه .

قلت: هذا رأيك، ولكنني رئيس التحرير المسؤول في «الأخبار» وهذا رأيي .

قال: حقي كرئيس لمجلس الإدارة يبيح لي أن أقرر عدم نشر المقال.

قلت: إذا لم ينشر هذا المقال فإنني مستقيل.

قال: هل تقبل أن تحتكم إلى الرئيس السادات؟

قلت: لا دخل للرئيس السادات في هذا الموقف..

قال: مادمت ترفض الاحتكام إلى الرئيس السادات، فإنني أقرر عدم نشر المقال .

وهنا فقدت أعصابي، وكتبت استقالتي في سطرين، ورميت الورقة على المكتب، وانصرفت إلى مكتبي.

تصلب موسى صبري في وجه إحسان عبد القدوس مرتكناً إلى موقف

السادات.

هو نفسه يعترف بذلك فيقول:

كنت رفضت الاحتكام إلى الرئيس السادات، لأنني سبق أن اتصلت بالرئيس، وقلت له مع احترامي لعلاقتك مع هيكل، فإن له مقالاً لا يمكن إلا أن أرد عليه.

وأجاب السادات: أنا لا أتدخل فيما تكتب.. أنت حر..

وكانت تلك هي إشارة المرور لأول هجوم علني وبضراوة، على هيكل في عهد السادات بعد الإطاحة بمراكز القوي.

حتى أن إحسان عندما اتصل بالرئيس السادات، وعرض عليه الموقف، وقال له إن موسى صبري قدم استقالته، لم يؤيد السادات وجهة نظره في عدم النشر.

ولهذا جاء إحسان ـ حسب رواية موسى صبري ـ إلى مكتبه، بعد أقل من عشر دقائق، وقال له بأسلوب مودة:

- لا يليق أن نختلف ونحن أصدقاء، وعلى كلٍ ما دمت مصراً على النشر فلا اعتراض لي ...

ودهشت من هذا التحول المفاجئ، ثم قال:

- ولكن أرجو أن تقبل وجهة نظري، لا داعي لاسم محمد حسنين هيكل وسوف يفهم القارئ من تعنيه.

وقبل موسى صبري، فكل كلمة في المقال تفصح عمن المقصود، بل إنه كان يستخدم مقاطع مما نشره هيكل لكي يرد عليها..

ونشر المقال الأول، ثم الثاني..

***

ـ٥ـ

اختار موسى صبري أن يبدأ الهجوم في يوم الجمعة، نفس يوم نشر هيكل لمقالته الشهيرة «بصراحة»..

وعندما تقرأ ما كتبه موسى صبري لن تستطيع أن تفهم لماذا أصبح حديث هيكل عن أهمية التحرك، وعن ضرورة حشد إمكانيات الأمة العربية، وعن خطر الدخول إلى ساحة المواجهة المسلحة بمعزل عن قدرات الأمة العربية، وعن خطأ خطة الخروج من الصف العربي بحثاً عن حل جزئي كما كان مطروحاً في مبادرة السادات، لماذا أصبح هذا الحديث تبشير بالهزيمة، ولماذا صار هيكل من المبشرين بها...

قراءة موسى صبري (الملتوية) لمقالات هيكل، جعلته يسوق الاتهامات جزافاً ضده، وبدون أن يقيم عليها أي دليل، مجرد إلقاء الاتهام تلو الاتهام بدون تمحيص، ومن غير توقف ولا تبيين، كأنه يريد أن يذهب به إلى قفص الإعدام، في محاكمة عاجلة بدون محامين، ولا قضاة..

الاتهام الأول ساقه على لسان البسطاء الذين لهم العذر يقولون :

هذه أساليب سياسية أصبحت مكشوفة حيث تعلن الدولة أنها تعد للمعركة لتحتوي حماس الجماهير للقتال، وتلهفها إلى قهر العدو، واسترداد الأرض، وهي في الوقت نفسه راضية بما يسجل بالأدلة والبراهين، أن مواجهة قوات مصر لقوات إسرائيل هي مواجهة خاسرة تماماً، وبذلك يمكن أن يتكون رأي عام ضد القتال، وبذلك يمكن للدولة أن تمهد لحل سياسي على عكس ما تعد به ...

هؤلاء البسطاء لهم العذر عند موسى صبري خاصة إذا كانت مثل هذه الأقوال توحي أن صاحبها يتحدث من موقع العلم ببواطن الأمور، بل إن الكلمات تجد سبيلها إلى إذاعة القاهرة، وليست إذاعة القاهرة إلا جهازاً رسمياً، لا يسمح إلا بما ترضاه الدولة معبراً عن سياستها..

ثم راح موسى صبري يؤكد على عدة أمور من خلال الكلمات:

- أن الرئيس السادات دعا رؤساء تحرير الصحف وكبار الكتاب إلى اجتماعات ضيقة ليشرح فيها تطورات الأوضاع حتى يكون الجميع في الصورة..

(والمعنى المقصود واضح وجلي: أن الرئيس لم يعد ينتهج سياسة « إيثار

هيكل» بأن يكون وحده في صورة ما يحدث)...

- أنه تقرر منذ أمد طويل أن تذاع كل مقـالات الكتـاب في إذاعـة القـاهرة يـوم نشرها.

(أي لم يعد مقال هيكل وحده، هو الذي يذاع في الإذاعة)

- أن الرأي اجتهاد لصاحبه، وليس صوتاً رسمياً يتحدث باسم أحد.

(أي أنه سقطت الدولة التي كانت تعتبر هيكل هو المعبر الرسمي عنها)

ولأن موسى صبري منع من ذكر اسم هيكل بصراحة، فقد راح يشيز إليـه بكـل وضوح، ويؤكد بأساليب مختلفة أنه هو المقصود فمرة يقول :

نقرأ مرة أن ويلي براندت يتساءل في عجب: ماذا تريدون بوضوح؟

وكأننا بعد خمس سنوات من الهزيمة، وبعد إعداد حقيقي للقتال، يكلفنا بلايين الجنيهات ما نزال لا نعرف ماذا نريد؟

ولم يسأل موسى صبري نفسه: ماذا يمنع إذن مـن خـوض القتـال الـذي جـري الإعداد له وكلف بلايين الجنيهات؟

هل هيكل هو «صاحب القرار» في تأخير قرار المعركة، بفرض أنه من أصحاب الرأي القائل بالتريث في خوض غمار القتال؟

ألم تكن تكفي خمس سنوات من الإعداد الحقيقي للقتال لخوض غماره؟

والحق أن هيكل كان يناقش في تلك الأيام التقاعس عن الإعداد الجيد لخوض معركة للتحرير، وهي معركة تشمل عند هيكل كـل الوسـائل والأدوات، وتشـمل الضغط من أجل حل سياسي، كما لا تستبعد القتال، بل إنه لا يمكن التملص منـه إذا أردنا تحرير الأرض...

وفيما كان هيكل يناقش شروط النصر وضروراته، راح موسى صبري يسأله:

- لماذا يردد أن الانتصار مستحيل؟

ويقول :

- لنفرض حسن النوايا، ولنقل: إنها شجاعة تعلن عن اقتناعها بجسارة وليكن ما يكون، وإنني أقول هنا: إنها شجاعة مفتعلة مستغلة لحرية الكلمة، لها ما وراءها..

ثم تزداد نبرة الهجوم ويصبح « لاذعاً » أكثر، فيقول موسى صبري :

- ليس من المسؤولية في شيء على الإطلاق أن نهون من قدرة العدو ..

وهذا هو ما قاله هيكل بالضبط ..

ويعود موسى ليقول:

- وليس من المسؤولية في شيء أن تتحول الصحف إلى أبواق دعاية صاخبة، صاحبة الصوت العالي التي أقنعت الجماهير أننا سنصل إلى تل أبيب في ساعات ثم كانت الفاجعة .

وهذا ما لم يفعله هيكل على الإطلاق.

ولكن موسى صبري يقول :

- كان هذا هو الإعلان المفروض على الصحافة المصرية يوم كانت الصحافة المصرية قلم واحد، ويوم كان هذا القلم الواحد هو الصحافة المصرية..

وعودة إلى سيل الاتهامات، فيتهم موسى صبري هيكل بتهم لو صحت لأوجبت محاكمته عسكرياً :

- تمزيق نفوس الجماهير..

- إشاعة البلبلة والتشتيت والتشكيك..

- إعلان بتقبل كل دعاوات الأعداء ..

- كل هذا يجري في وقت الحرب..

ويصرخ موسى صبري :

- «إنه العار !!

بل هو الكفر بمعجزة الخالق في خلقه» !!

ولا يترك موسى صبري أي فرصة أمام هيكل للهروب من اتهاماته التي كالها له فيقول:

« إن من يقولون قد تحفظوا لكي يؤكدون حسن النوايا، وبراءة القصد بحجة أن المناخ الصالح الوحيد الذي يجب أن نمارس فيه كفاحنا، هو مناخ الحرية، بغير صد، أو تخويف، أو حتى تشكيك ..

وهو تحفظ قاله هيكل .

- « أو بمنطق أن الإنسان يموت في كل هؤلاء الذين يستسلمون للصمت، والإنسان يقتل - ولو بغير دم - في كل هؤلاء الذين يفرض عليهم الصمت »

(وهو كلام قاله هيكل).

ولكن موسى صبري الذي لا يريد للغضب أن يدفعه إلى غلواء الاتهام بسوء النوايا، راح يهاجم هيكل رغم ذلك، ويهاجم عصره الذي ولي .. ويعيره بالحرية المكفولة له :

- نحن نقبل هذا التحفظ، نقبله الآن في مناخ الحرية الذي حققته ثورة ١٥ مايو ١٩٧١ التي وصفوا يوماً القائلين بأنها ثورة بأنهم أصحاب جهالة وغباء!

- نقبله الآن في المناخ الذي لا يفرض صمتاً، بل لعله فرض علينا هذا الذي نقرأه ..

- نقبله الآن في أجواء الديمقراطية التي لا تحكم بتخويف، ولا تقضي بأوهام شكوك، وتحترم إنسانية الإنسان..

- وكم كنا نتمنى لو كان هذا التحفظ هو الستار أيام كان نفوذ «قلم واحد» يفرض الصمت على الآخرين، كانت أيام طويلة ، طويلة..

الغريب أن موسى صبري الذي لم يزد دوره في مايو سنة ١٩٧١ عن دور أي صحافي قرر أن ينحاز علناً إلى جانب أنور السادات وهو رئيس للجمهورية، وفي مواجهة خصوم كانوا قد فقدوا قدراتهم، ونفوذهم السابق، الغريب أن صاحب هذا الدور المتواضع في مايو سنة ١٩٧١، هو الذي يزايد على واحد لولا وقوفه إلى

جانب السادات هو وآخرون معه، لكان السادات وموسى صبري قد ذهبوا في مهب ريح عاتية كانت تنذر بالهبوب..

والأغرب أن يزايد بشعار الديمقراطية ، على من وضع الشعار على لسان السادات يوم ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، وهو يتحدث إلى الأمة حديث من القلب إلى القلب ، وكان هيكل هو الذي أشار عليه أن يتحدث عن "الديمقراطية" التي يشتاق إليها الناس، وأن يركز عليها في مواجهة خصوم تم تصويرهم على أنهم كانوا مشتاقين إلى أن يحكموا البلد بالحديد والنار ..

كانت مقالتا موسى صبري هما فاتحة هذا النوع من هذا العيار الثقيل في مهاجمة هيكل، والذي يطلع على الصفحة الأولي من جريدة «الأخبار» المنشور فيها المقال على ثلاثة أعمدة أعلى يسار الصفحة الأولى سيجد أجواء المعارك مسيطرة على كل العناوين..

كان المانشيت الرئيسي « معركة رهيبة في هانوي »، وكانت العناوين تحته أن الطائرات الأمريكية ألقت فوق فيتنام خلال أربعة أيام أكثر من القوة التدميرية للقنبلة الذرية، وكان الخبر الرئيسي هو سقوط قنبلة أمريكية فوق السفارة المصرية في هانوي ما أدى إلى تدميرها وهدم سقفها، واحتجاج مصري على أمريكا بعد تدمير سفارتنا في هانوي..

ولن يكون من قبيل المبالغة إذا قلنا :

إن معركة أخرى رهيبة كانت قد نشبت في نفس اليوم ، معركة هدفها تصفية نفوذ هيكل، وكانت قوة مقال موسى صبري التدميرية تريد أن تدمر بقية العلاقة بين الكاتب الذي أدمن الوجود عند القمة، وبين الرئيس الذي ما زال يحاول الحفاظ عليه فوق قمة أحد التلال بجانبه..

وفي المقال الثاني أعاد موسى صبري الكلام حول نفس التهم، وأضاف تهماً جديدة خلاصتها أن هيكل يدعي ما لا حق له فيه، ومن ذلك أنه يصور نفسه سياسياً على هيئة صحافي، ويفوت خبراً على «جريدة يمينية في بيروت، هي من أبواق الدعاية

له، يقول إنه طائر إلى ميونيخ لعقد اجتماع سري مع كيسنجر مستشار البيت الأبـيض، وتنقل وكالات الأنباء الخبر الكبير، ويصدر كيسنجر تكذيباً رسمياً له، ولكن الضجة تثور، وأعود منتفخ الأوداج أسجل أنباء الضجيج والعجيج»..

وبشكل ملتو راح موسى صبري يلعب على وتر أن هيكل يبحث عن دور في وقـت لم يعد له فيه دور، وإن كـل مـا يسـعى إليـه في النهايـة هـو أن تجـري مصـر في فلـك أمريكا...(!)

-٦-

ولأن السادات كان هو الذي أوحي بالهجوم، فلم يكـن أحـد عـلى الاسـتعداد بالمجازفة بالاحتجاج على عنف الهجوم الذي وجد فيه موسى صبري متنفسه بعد أيام كانت طويلة، طويلة تلوي فيها من الغيظ المكتوم ..

كانت للسادات أهداف من الإيحاء بالهجوم أو لنقل بالموافقة عليه..

وكانت لموسى صبري أهدافه أيضاً...

كانت أهداف موسى صبري بسيطة، غير مركبة، وكلها ذاتية ...

كان موسى صبري يريد أن ينتقم لنفسه من كل "لحظة تجاهل" عاشها من قبل في ظل وجود هيكل في بؤرة الاهتمام..

وكان موسى صبري يريد أن يقدم نفسـه بـديلاً جـاهزاً، وقـادراً عـلى التصـدي للتعبير ليس عن آراء السادات فحسب، ولكن عن ثاراته..

ولكن السادات كانت له أهداف أخرى، أكثر تعقيداً، وأبعد أثراً:

كان وسط أجـواء خـلاف بـدت نـذره في أحـداث الفتنـة الطائفيـة قبـل عـام، وتصاعدت وتيرته مع احتضان «الأهرام» لفكرة الحـوار مـع الطـلاب الغاضـبين الذين خرجوا في مظاهرات تطالب بتحرير الأرض، ثم خرجت إلى العلن مع قـرار السادات ـ قبل شهور ـ بطرد الخبراء السوفييت من مصر بالطريقة المسرحية التي أخرجها بها قراره ذاك، وتحولت نذر الخلاف إلى بذور شكٍ في درجة الـولاء التـي يطالب بها السادات هيكل حتى ولو في داخله بصفته الرئيس، وبنظرته إليه ككاتب،

دوره أن يعمل في خدمة الرئيس.

وكان ضمن بذور الشك الطالعة في العلاقة بين السادات وهيكل في نفس الوقت الموقف الذي اتخذه هيكل من الدعوة الأمريكية له لمقابلة ـ غير علنية ـ مع هنري كيسنجر، ليسمع منه عن القضية في منطقة الشرق الأوسط، على الأقل أن يسمع منه وجهة النظر الأخرى، من الجانب العربي ..

كانت الدعوة الأمريكية قد انتهت إلى رفض هيكل لها قبل عام في نوفمبر سنة ١٩٧١.

ثم كانت ضمن أسباب السادات للإطاحة بالفريق أول محمد أحمد صادق أنه كان ـ في نظره ـ يمثل محوراً مع هيكل ، يجعل منه مركز قوة في مواجهته، لا يطيق أن ينتظر عليه، حتى لا تنقلب الأمور إلى ما لا تحمد عقباه .

وكان قرار عزل صادق في أكتوبر سنة ١٩٧٢ قبل ثلاثة أشهر..

وفي هذا يقول السادات :

- « عندما أخرجت الفريق صادق، لم يجد هيكل أحداً ليركبه ويؤثر عليه من المعاونين لي، وهو كان قد حاول أن يصنع مركز قوة مع صادق في الجيش، هو في "الأهرام" مركز قوة، ثم أراد أن يعزز نفسه بالقوات المسلحة، وصادق وزير حربية وقائد عام، واكتشفت ذلك من الخطب التي كان يلقيها صادق في وحدات الجيش.

ويضيف السادات :«ووجهت لوماً إلى هيكل عما يفعله مع صادق، ثم انتهيت إلى قرار بإخراج صادق، لأنه لا ينوي المعركة على الإطلاق.

كان السادات ـ لا شك ـ مطلعاً على ما لا يعرفه موسى صبري، وكان يريد ـ أول ما يهدف إليه ـ أن يلصق بهيكل تهمة « الانهزامية »، حتى يفقده أي مصداقية، ويثير زوابع الشك في حديثه الذي تكرر، وتتبدى منه إن صراحة أو ضمناً عدم جدية النظام في الإعداد والاستعداد لتحرير الأرض المحتلة.

ثم كان السادات يحاول أن يعلن إسقاط سياسة « إيثار هيكل » على الملأ، إذ

سيعرف الجميع أن موسى صبري ما كان له أن يتجرأ على المساس بهيكل بهذا الشكل بدون إذن مسبق منه شخصياً..

وكأنه أراد أن يقول إن هيكل مثله مثل الآخرين لم يعد تحت الحماية الخاصة التي تمنع الهجوم عليه، أو النيل منه، وهو هدف في جانب منه عقاب لهيكل، على إصراره على دور المستقل في مواجهة السادات، وفي جانبه الآخر دعوة إلى الآخرين أن يتقدموا وليظهر كل منكم مواهبه لعله يكون في موقع هيكل الذي بدأ يفقده كما رأيتم على رؤوس الأشهاد ..

وكان السادات يتصور أنه يضغط على هيكل لعله يرجع إلى حظيرة الطاعة التي يتصور أنه كان فيها زمن عبد الناصر، فلماذا يمانع معه، يناقش ويختلف وأحياناً يعلن اختلافه بلا مراعاة لكونه يختلف مع الرئيس بكل ما له من سلطات وسلطان..

بدا السادات كأنه يريد أن يظهر « العين الحمراء » لهيكل لعله يتعظ ويلتزم..

والالتزام عند السادات لا يعني غير «التبعية»..

وفرض «التبعية» عند هيكل، خاصة من السادات، لا يعني غير الانسحاب كلياً من ساحة التعامل مع السلطة، رغم إدمانه على القرب منها، وهو العامل الذي ظل السادات يراهن على أنه سيغلب هيكل لحظة « الاختيار » المريرة ..

لم يتصور أنور السادات، بحكم تصوره الشخصي عن السلطة والمسؤولية، وهو الذي أدرك ـ ربما أكثر من غيره ـ معني « الرئاسة الأولي » في بلد مثل مصر، فلم يقامر ـ ولا لمرة واحدة ـ بأية معارضة ولو شكلية، لرئيسه الراحل، وعلى هذه الخلفية لم يكن يدرك كيف يتأتى للآخرين أن يتصوروا أنه لن يطبق معهم فكرته تلك عن السلطة وصاحبها ..

وكان قد فعلها من قبل وأطاح بكل من أرادوا مشاركته في السلطة، أو حاولوا منع انفراده بكل السلطات ..

وكان السادات ـ بسماحه لهجوم موسى صبري على هيكل ومن خلال ذلك

بالهجوم على زمن عبد الناصر - يريد أن يعتلي الأسوار التي كان يضعها هيكل على لسانه، والتي تحد من محاولاته الهروب إلى مواقع أخري غير التي اختارها جمال عبد الناصر كسياسة ثابتة لمصر..

وكان سبق الهجوم العلني والصريح على هيكل حلقات من الهجوم المتواري أحياناً، والصريح أحياناً، على بعض السياسات الناصرية..

ولا شك أن أنور السادات الذي أكد أكثر من مرة في خطب كتبها له محمد حسنين هيكل أنه مسؤول عن كل ما حدث في ثورة يوليو، وردد - مرات - مشاركته، وتضامنه مع كل ما اتخذه جمال عبد الناصر من قرارات، أو إجراءات..وهو كلام وضعه هيكل على لسانه في أكثر من خطاب، ولكنه لم يكن يعبر عن مكنون قلبه..

***

كان السادات يريد أن يقول أن له كلاماً آخر غير ما يقوله في الخطابات الرسمية.





هيكل يتحدى السادات





-١-

تلك كانت هي مقدمات الصورة الخلفيـة التـي ظهـر فيهـا أخطـر مقـال كتبـه هيكل..

وكانت تلك هي أول مرة يشتم هيكل علنـاً، عـلى صـفحات الجرائـد في عصـر السادات... وطبعا لن تكون الأخيرة ..

والاحتمال الأكبر أن «الأستاذ» وهو يجري تقديراً للموقف في ذلك الوقت قـد سأل نفسه:

- هل ما كتبه موسى صبري من وحي محرض دفعه إلى ذلـك ، أو مـن كـوامن عداوته المتأصلة لهيكل؟

ولا شك أن هيكل سأل نفسه السؤال بطريقة مختلفة:

- هل كتب موسى صبري هذا المقال بدون الرجوع إلى السادات؟

ولا شك أن إجابته:

- لا بالطبع.. بل المؤكد أنه سأله، والمؤكـد أن السـادات وافقـه، أو هـو عـلى الأقل لم يمنعه..

ولم يحدث من قبل أن رد هيكل على كلام نشر ضده..

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها..

وكان قد قرر أن يرد الصاع صاعين..

وأن يكون رده على المحرض، حتى لا يتورط في الرد على الأداة ..

وكتب المقال الأخطر في حياته..

«الأخطر» لأنه كان في مواجهة الحاكم ولو بالواسطة..

و«الأخطر» لأنه كان الأكثر صراحة..

و«الأكثر» تحدياً لسلطة الرئيس، الذي استقر في يقين هيكل أنه المحرض عـلى الهجوم عليه..

و«الأخطر» لأنه يمثل في الحقيقة «وثيقة تاريخية» تلقي الأضواء على حقائق كثيرة متصلة بالدور الذي لعبه هيكل في كواليس السياسة المصرية المعاصرة، وحقائق كثيرة متصلة بأسلوب السلطة في التعامل مع عناصر الصراع حولها..

و«الأخطر» لأنه وإن بدا كرد على ما كتبه موسى صبري رئيس تحرير جريدة «الأخبار» إلا أنه ذهب مباشرة في الرد على المحرض..

وكان الرد صاعقاً..

كان المقال الخطير عقب نشر مقالي موسى صبري مباشرة..

وفي عدد ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٧٢ من الأهرام...

وكان العنوان «بصراحة» مستفزاً:

«كيسنجر.. وأنا... مجموعة أوراق»...

***

-٢-

كانت مقدمة المقال كالقذيفة دخل منها هيكل مباشرة ودون تلكؤ عند المقدمات التي كان يجيدها دائماً، مباشرة دخل إلى صلب الموضوع فقال:

لقد تعرضت أخيراً إلى حملة مازالت طبولها تدق.

ولم أتعود في حياتي أن أرد على أية حملات؛ لأنني روضت نفسي منذ زمن طويل على الحكمة المأثورة: قل كلمتك وامشِ».

ولأن هناك من يعرفون ذلك عني فإنهم يتمادون، وما أخشاه هو أن يتصور أحد أن السكوت عن عجز، وليس عن عفة، ومن هنا فقط خطر لي أن أضع نقطة واحدة على حرف، وهدفي بالدرجة الأولي أن يكون من ذلك نموذج عملي يحكي بالوقائع قصته، ويلقي أضواءه إلى أبعد من حدوده...

ثم يتجاوز الطبول التي تدق إلى ما وراءها..

(يتجاوز الأداة إلى المحرض هذا ما يقصده)

ولقد اخترت نقطة واحدة تبدو وكأنها الإيقاع الرئيسي في دقات الطبول...

ملخص هذه النقطة هي القول بأنني أدعي ما لا حق لي فيه، ومن ذلك أنني أصور نفسي سياسياً على هيئة صحافي، وأفوت خبراً على «جريدة يمينية في بيروت، هي من أبواق الدعاية لي، يقول إنني طائر إلى ميونيخ لعقد اجتماع سري مع كيسنجر مستشار البيت الأبيض، وتنقل وكالات الأنباء الخبر الكبير، ويصدر كيسنجر تكذيباً رسمياً له، ولكن الضجة تثور، وأعود منتفخ الأوداج أسجل أنباء الضجيج والعجيج»..هكذا ..

ثم يمضي القول أكثر من ذلك إلى أنني رجل يبحث عن دور في وقت لم يعد له فيه دور، ثم أن كل ما أسعي إليه في النهاية هو أن تجري مصر في فلك أمريكا- هكذا أيضاً..

من هنا أخذت نقطة واحدة أضعها على حرف، أو كما قلت: نموذج عملي يحكي بالوقائع قصته..

واخترت عنوان القصة من قبل كتابتها «كيسنجر... وأنا».

وعدت إلى أوراقي أقلب فيها لكي يكون ما أرويه أكثر من حكاية، ليكون قبل أي شيء آخر: وقائع وتفاصيل، تتحدث عن نفسها بنفسها..

وبدأ هيكل بتفاصيل قصة اتصال الدكتور زكي هاشم الذي أصبح وزير السياحة وقت نشر المقال ولقاءه مع دونالد كاندال الصديق المقرب من الرئيس الأمريكي ريشارد نيكسون ورئيس مجلس إدارة بيبسي كولا، وذكر وقائع اللقاء، ومن بعد رسالة كاندال إليه، ورده عليها.

وأضاف هيكل يقول :

ثم عرفت فيما بعد أن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون قال لدونالد كاندال عندما التقي به في البيت الأبيض إنه يذكر أحاديث طويلة معي في سنة ١٩٥٢ ، حينما كنت أتابع معركة انتخابات الرئاسة الأمريكية، وكان يخوضها نائباً للرئيس

مع الجنرال أيزنهاور، كما إنه يذكر لقاءنا في سنة ١٩٦٣ في القاهرة عندما قضي فيها أربعة أيام مع زوجته «بات» ومع ابنتيه «جولي وتريشيا».

وكنت في ذلك اللقاء مع نيكسون سنة ١٩٦٣ قد قضيت أمسية بأكملها أحاول أن أشرح له دور إسرائيل، والطريق المسدود الذي تسير إليه تاريخياً في المنطقة.

كذلك عرفت فيما بعد أن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون قد رحب بزيارتي لواشنطن على أساس أن يدور حوار بالعمق - على حد تعبيره - بين مستشاره لشؤون الأمن القومي هنري كيسنجر وبيني، وكان كيسنجر الذي حضر جزءاً من الاجتماع بين نيكسون وكندال في البيت الأبيض قد ذكر أنه يتابع بعض ما أكتب، وأنه على استعداد لمناقشة معي، فلقد بدأ يدرس أزمة الشرق الأوسط، وهو يريد أن يناقشها مع طرف يمثل وجهة النظر العربية، ولا يريد أن يناقش مع «موظف» أو «مسؤول رسمي»، وإنما يؤثر أن يبدأ تعرفه عليها من خلال نظرة إستراتيجية أوسع، هكذا كان قوله.

ومضت عدة أسابيع..

وراح هيكل يحكي قصة رسالة السفير أشرف غربال القائم بأعمال المصالح المصرية في واشنطن وقتها، والذي أصبح مساعداً للسيد حافظ إسماعيل مستشار رئيس الجمهورية للأمن القومي وقت نشر المقالة، ونشر هيكل نص رسالة أشرف غربال، التي كانت بحوزته..

ثم قال:

في اليوم التالي اتصل بي الرئيس أنور السادات يقول لي بالحرف:

- يبدو أن كيسنجر يريد أن يقابلك؟.

وتساءلت في دهشة:

- لقد تلقيت خطاباً بذلك من أشرف غربال أمس فقط، وقد تأذن لي أن أسألك: كيف عرفت؟.

واستطرد الرئيس أنور السادات يقول بالحرف :

- سوف أبعث لك الآن بخطاب شخصي أرسله الدكتور محمد حسن الزيات - رئيس الوفد المصري لدي الأمم المتحدة- إلى الدكتور محمود فوزي رئيس الوزراء أن واحداً من أقرب المقربين إلى نيكسون تقابل مع الدكتور الزيات وتحدث إليه في الأمر، ورأي الدكتور الزيات أن الموضوع مهم، ولم يشأ أن يبعث به في تقرير عن طريق وزارة الخارجية؛ ومن ثم فإنه كتب بمضمونه خطاباً شخصياً إلى الدكتور فوزي، وأعطاه للسيد عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية لكي يسلمه بنفسه للدكتور فوزي.

إن حسونة عاد أمس من نيويورك ، حيث كان يحضر دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة، وزار الدكتور فوزي اليوم وسلمه الخطاب.

وقد أعطاني الدكتور فوزي هذا الخطاب وقرأته، وطلبت إرساله إليك لكي تقرأه بدورك ثم نتحدث فيه عندما نلتقي».

ووصلني الخطاب الذي أمر رئيس الجمهورية بإرساله إلي، وكان بخط يد الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية الآن.

ونشر هيكل نص الخطاب الموجه إلى السادات عبر الدكتور محمود فوزي رئيس الوزراء، الذي يحتفظ بنسخة منه لديه، وهو الخطاب الذي لم يكن مر على إرساله إلى السادات أقل من شهرين..

ثم استطرد هيكل يقول:

وقرأت خطاب الدكتور الزيات إلى الدكتور فوزي وأعدت قراءته، وفكرت في الأمر طويلاً.

وشردت عن المشكلة المباشرة التي تواجهني أستعيد تجارب مماثلة وأسأل نفسي:

«لماذا يكون من نصيبي دائماً أن أتكلم، وأن أشرح، ولا أكف عن الكلام والشرح، وهما في بعض الأحيان مسئولية وعذاب».

لقد مررت بتجربة مماثلة تماماً مع الزعيم السوفيتي نيكيتا خروشوف قبل أن يصل إلى مصر في زيارته المشهورة لحضور احتفالات إتمام بناء المرحلة الأولى من السد العالي في مايو سنة ١٩٦٤.

في أوائل مايو من تلك السنة كنت في صنعاء عاصمة اليمن أشهد على الطبيعة بعض المعارك مع قواتنا هناك...

واتصل بي في صنعاء- الصديق «إليكسي أدجوبي» رئيس تحرير صحيفة «أزفستيا» السوفيتية، وكان في نفس الوقت صهراً لنيكيتا خروشوف بزواجه من «رادا» ابنته.

وقال لي أدجوبي على التليفون في موسكو:

- إن الرجل الكبير- يقصد خروشوف- قادم إلى مصر، ولديه أسئلة كثيرة يريد أن يسمع عنها، ولا يعتقد أن التقارير تستطيع أن تقدم له ما يريد من إجابات، ولقد اتفقت معه على أن ندعوك إلى موسكو، وأن تقضي معنا فيها أياماً، ثم تعود على نفس الباخرة معنا إلى الإسكندرية، وتكون من ذلك كله فرصة أسبوع كامل تضع فيه نفسك تحت تصرف «الرجل الكبير» يسألك فيما يشاء».

وقلت لإليكسي: إنني سأعود من صنعاء إلى القاهرة، وسوف أرد عليه من هناك- ذلك إنني وجدت الاقتراح مما يقتضي أن أتحدث فيه مع الرئيس جمال عبد الناصر.

وركبت طائرة في الفجر من صنعاء.

وكنت في القاهرة عند الضحى، ونزلت في المطار فإذا من ينتظرني ليقول لي : إن الرئيس جمال عبد الناصر سوف يراني الآن في بيته، وفهمت أنه عرف شيئاً عن اقتراح إلكيسي أدجوبي، وظهر أن ما توقعته كان صحيحاً بالفعل.

ولم يترك لي جمال عبد الناصر فرصة...

عندما دخلت عليه كان أول ما قاله لي:

- الآن تذهب لتحزم حقيبتك، واليوم تذهب إلى موسكو...هناك طائرة بعد

الظهر..

وهكذا كان.

أفطرت يومها مبكراً في صنعاء، وتغديت مع عبد الناصر في القاهرة، وكان عشائي في موسكو مع إلكيسي أدجوبي رئيس تحرير «أزفستيا».

وفي الصباح التالي ذهبنا إلى ميناء «يالتا» حيث كان خروشوف يقضي إجازة قصيرة قبل بدء رحلته إلى مصر، وكانت الباخرة «أرمينيا» التي سيستقلها إلى مصر جاهزة في الميناء.

وبعد يوم واحد في «يالتا»- ضيفاً في بيت خروشوف- وجدتني معه على ظهر الباخرة «أرمينيا» لمدة أربعة أيام على الماء من «يالتا» في البحر الأسود، وعبر البسفور إلى البحر الأبيض في اتجاه الإسكندرية.

وكان معنا طول الوقت المارشال أندريه جريتشكو وزير الدفاع السوفيتي حتى اليوم وأندريه جروميكو وزير الخارجية السوفيتية حتى اليوم- ولم تنقطع الأحاديث على الإفطار وعلى الغداء وعلى العشاء وعلى ظهر الباخرة نتمشى، وفي داخل الصالون الملحق بغرفة نومه إلى ساعات متأخرة من الليل؛ لأن خروشوف كان يريد أن يعرف كل شيء:

الشعب المصري وتاريخه... حركة القومية العربية وجذورها... التحول الاشتراكي في مصر ومداه... إلى آخره..

ووجدتني لأيام متصلة في حوار واحد ممتد مع خروشوف تشعبت فيه الموضوعات وتفرعت: من الإسلام كثورة اجتماعية عظمي، إلى التأثيرات الطارئة على الفن المصري الحديث ..

وكانت التجربة بالنسبة لي ممتعة... وأعترف أنني لم أشعر بمشقتها لأن خروشوف كان شخصية متعددة الجوانب..متميزة وفريدة.

***

-٣-

وبعد ذلك بدا هيكل وكأنه يفكر بصوت مرتفع على مرأى ومسمع من الجمهور وكتب يقول:

ومع ذلك فها أنا ذا الآن أمام تجربة أخري، وعلى أن أستقر فيها على قرار: «هل ألبي هذه الدعوة إلى واشنطن أو أعتذر عنها؟»،.

وأحسست أن اتجاهي الداخلي يميل إلى الاعتذار، وكانت أسبابي كما يلي:

١ - أن قبول هذه الدعوة يحمل، ولو في الظاهر، مظنة القيام بدور سياسي، وأنا لا أريد أن أقوم بأية أدوار سياسية، وإذا خطر لي أن أقابل هنري كيسنجر، وهو شخصية مثيرة، فإن الأفضل أن أقابله في ضوء النهار وفي مكتبه بالبيت الأبيض وبوصفي صحافياً..

٢- إنني لا أري الجو ملائماً الآن في الولايات المتحدة، ولا أعتقد أن الجو سيكون ملائماً قبل أن يتحرك الموقف في الشرق الأوسط بطريقة تستطيع دفع الحوادث... والأفعال في هذا الوقت يجب أن تسبق الكلمات... ومادام الفعل نائماً عندنا فإن الكلمة سوف تكون مخنوقة عندهم..

٣- إنني أدرك أهمية شرح موقفنا لرجل في مثل مكانة ومكان هنري كيسنجر، ولكنني لا أريد أن يساء فهم ما أقوم به، ولقد تعرضت لكثير لم تكن بي حاجة إليه لا لشيء إلا لأنني حاولت أن أتحدث إلى العالم ومع العالم عن قضايا أمتنا وكفاحها بوسيلة أخري غير وسيلة الخطب الطنانة الرنانة..

ثم ولأول مرة يعلن هيكل أحاديث تجري في الخفاء تتناقض مع المعلن من السياسات، وتجيء هذه الأحاديث على لسان رئيس الجمهورية الذي لم يكن يتوقف عن إدانة أمريكا وسياستها المنحازة إلى جانب العدو، في سابقة لم تحدث من قبل :

«ودعيت في اليوم التالي إلى موعد مع الرئيس السادات، وكان الموعد في استراحة القناطر التي يذهب إليها الرئيس حينما يحس بالحنين إلى الأرض الطيبة،

وسألني الرئيس:

- هل قرأت خطاب الزيات؟».

قلت:

- نعم... وهو معي الآن... ومعي أيضاً خطاب أشرف غربال.

وقال الرئيس السادات بلهجته الودودة:

- محمد... هذه فرصة تساوي أن نستغلها.

رأيي أن تذهب... وأن تتكلم وأن تسمع..

إن كيسنجر هو الرجل الذي يحل ويربط في البيت الأبيض، الذي هو مصدر السلطة، ومصدر القرار، وأنت تعرف كل شيء عن تطورات الموقف، وقد عشت الأزمة من الداخل».

واستطرد الرئيس السادات:

- كما فهمت من خطاب الزيات، فإن كل ما يريدونه هو أن يتعرفوا على وجهات نظرنا، وهذه مسألة حيوية، خصوصاً وأن عام الحسم يقترب من نهايته... ولو فهموا فإننا نكون حققنا شيئاً كبيراً».

وسكت الرئيس السادات، وجاء الدور عليَّ لأتكلم، وشرحت له وجهة نظري كما جرت بها أفكاري..

ودار بيننا نقاش طويل، كان فيه الرئيس كريماً وحليماً كعادته، ثم كان قوله في النهاية:

- إنني لا أريد أن أضغط عليك... ولك أن تفكر في الأمر».

-٤-

هكذا وعلناً يطلب الرئيس.. ويرفض هيكل، ويعلن ذلك بلا مواربة..

«وفكرت بعدها، وأطلت التفكير، ثم استقر قراري وبعثت إلى دونالد كندال ببرقية أقول له فيها بالنص:

«شكراً جزيلاً على دعوتك الرقيقة، وصادق تقديري لكل الترتيبات التي أعددتها لمناقشة جادة ومثيرة، وإن كنت مع الأسف سوف أرجوك في تأجيلها- ومع خالص الود».

كان هذا رأيي وموقفي..

ولعلي أستدرك لكي أقول: إنني لم أُرد بكل ما رويت عن كيسنجر وأنا ومجموعة الأوراق أن أقول: إنني تعاليت على كيسنجر.

ذلك ليس صحيحاً، ولا يمكن أن يفعله عاقل أو وطني.

لقد قضي شواين لاي رئيس وزراء الصين إحدى عشرة ساعة في اجتماعات متصلة وسرية مع هنري كيسنجر.

وقضي بريجنيف الزعيم السوفيتي سبع عشرة ساعة في اجتماعات متصلة وسرية مع هنري كيسنجر.

وليس من شك في أن هذا الأستاذ البارز من أساتذة العلوم السياسية والتطبيق العملي السياسي يعتبر واحداً ممن الذين سوف يتركون بصمات أصابعهم على هذا العصر وهذا العالم، مهما كان خلافنا في الاتجاهات معه.

كانت لدي للاعتذار أسباب أخري... وقد شرحتها فيما سبق.

تظل هناك إضافة أخري.

ذلك أن الظروف حملتني بعد ذلك إلى لندن، وهناك سمعت في لقاء مع وزير الخارجية البريطانية السير إليك دوجلاس هيوم أن هناك همساً في بعض الأوساط الدولية مفاده أن مصر على وشك أن تقبل فكرة المحادثات عن قرب أو محادثات الفندق تحت إشراف الولايات المتحدة.

أي: وفد مصري ووفد إسرائيلي في دورين من فندق واحد.

ووكيل وزارة الخارجية الأمريكية جوزيف سيسكو يسعى ما بين الدورين وينقل الآراء ويقارب ما بينها.

بل وفهمت أن الهمس زاد إلى حد القول بأن مصر رشحت بالفعل ممثلها في محادثات الفندق، وإنه بالذات الدكتور مراد غالب.

وأتذكر أنني عدت إلى القاهرة، وكان أول ما كتبته مقالاً بعنوان «دعوة إلى بيت مسكون بالعفاريت»، وكان هذا المقال تحذيراً قاطعاً ضد اقتراح المحادثات عن قرب تحت إشراف الولايات المتحدة، وما ينطوي عليه من مخاطر..

بل أتذكر أنني ذهبت إلى مكتب الدكتور مراد غالب وزير الخارجية وقتها، وتوسلت إليه تقريباً برفض اقتراح المحادثات عن قرب تحت إشراف الولايات المتحدة، إذا كان ما سمعته عن احتمال قبوله صحيحاً.

ومهما يكن فإن الاقتراح كان طائراً غير قابل للتحليق كما يقولون ..

ولقد رويت قصة، ورويتها بالوقائع والتفاصيل.

ولقد حاولت أن ألزم قلمي بما أحرص على أن يلتزم به.

وأراد هيكل قبل أن يختتم المقال أن يعلن أنه:

ليست لدي أحقاد قديمة أو جديدة أتلوي بتقلصاتها...

وليست هناك سلطة أضع نفسي تحت مظلتها، أو أرضي بذلك لنفسي أو لها..

لم أشتم أحداً..

ولم أسق الكلام غامضاً وجزافاً..

ولم أدع على الناس غير ما قالوه، ثم أروح أناقشهم فيما ادعيته عليهم بصرف النظر عما قالوه..

ولم أنسب للغائبين ما لم يجر على لسانهم، وإنما رويت عن أحياء أقوياء ونسبت إليهم- بخط أيديهم وبألسنتهم - وفي استطاعة أي واحد منهم أن يناقض ما رويت..

وفي النهاية فلقد وضعت نقطة واحدة على حرف...

والحروف كثيرة والنقط أكثر.

وليس عن عجز وإنما عن عفة... أقولها بغيرِ تواضع وبغير ادعاء..

ويقال لنا أن بعض ما نقرأ اليوم من صيحات المعركة وضروراتها..

وأتذكر كلمة الأديبة الفرنسية الشهيرة مدام دي ستايل، عندما كان حكم الثورة الفرنسية يتراجع إلى الخلط بين الحرية والإرهاب مادياً أو معنوياً، وكانت كلمة مدام دي ستايل بالأسى كله:

- أيتها الحرية كم من الجرائم يرتكب باسمك..

ولعلى أطورها بالمناسبة لكي تصبح:

- أيتها المعركة كم من الجرائم ترتكب باسمك ..

-٥-

لم تكن مقالات محمد حسنين هيكل تمر على الرقيب ، فنشر المقال..

ونزل كالصاعقة على أنور السادات حتى أنه لم يستطع أن يكمل قراءته ورمي«الجورنال »على طول يده ..

ولا شك أنه كان أتعس شخص قرأ المقال، لأنه فهم ما يريد هيكل أن يقوله..

لم يكن المقال صاعقاً فيما أورده من أسرار تجري على مستوي القمة في الدولة، وفقط، ولكنه كان صاعقاً وربما أكثر فيما يريد أن يقوله من وراء كل سطر وكل حكاية، بل وكل كلمة جاءت فيه:

أراد هيكل أن يقول : إن أحداً لا يمكنه أن يهدده بشيء، بل إنه هو الذي يمكنه أن يهدد، بل ويهز مواقع ومقاعد استقر أصحابها فوقها..

وفهم السادات «الرسالة»، وكانت من أكثر الأشياء ألماً له..

وأراد هيكل أن يقول علناً إنه لن يسكت على محاولات ضرب مصداقيته، حتى ولو كان الثمن أن يسقط مصداقية الآخرين، خاصة هؤلاء الذين لم تكن بيوتهم إلا من زجاج قابل للكسر من أول نفخة وليس من أول حجر..

وأراد هيكل أن يقول : إن هناك فرقًا بين أن يطلب جمال عبد الناصر وبين أن

يرجو أنور السادات، فطلب عبد الناصر أمر، « الآن تذهب لتحزم حقيبتك، واليوم تذهب إلى موسكو.»..وينفذ الأمر.. ورجاء السادات شيء قابل للتفكير فيه ثم لرفض تنفيذه..

وأراد هيكل أن يقول وأن يعيد القول بأنه ليس هناك أحد ـ بعد رحيل عبد الناصر ـ يملك عليه حق الأمر، وواجب الطاعة ، ذلك أنه كان القائد الذي لا يرد له أمر..

وأراد أن يؤكد ـ على الملأ ـ أن العلاقة بينه وبين أنور السادات فيها أن الرئيس يتمنى ، وأن هيكل يمكنه أن يرفض ما تمناه الرئيس ، وأنه يمكن ـ فوق ذلك ـ أن يعلن ذلك، برغم ما يحيط بهذا الإعلان من محاذير قد تجعل غيره يفكر ألف مرة قبل أن يقبل عليه..

وأراد هيكل أن يقول بوضوح : إنه لن ينزل إلى مستوي الرد على من يجري تحريضهم عليه ، وأنه سيتناول بالرد المحرض نفسه ، وهو «إعلان شجاعة» من هيكل ، شجاعة محسوبة بدقة، دقة الحاسوب الذي يقبع في عقله،ذلك أن خطأ الحساب في مثل هذا الأمر نتائجه أكثر من وخيمة.

ولا شك أن ذلك أغاظ السادات.. وزاده حنقاً على هيكل، الثعلب الرابض قبالة منزله..

كان ما كتبه «الأستاذ» يضارع في الشكل والمضمون بياناً يُلقيه من الإذاعة رجل احتلها، هي ومحطة الإرسال بكتيبة مدرعة، وسيطر عليها، وراح يذيع منها ما يشاء..

ذلك لأن الأسرار التي أذاعها هيكل في بيان «كسينجر وأنا» تظهر خطورتها ودقتها إذا وضعنا في الحسبان الإطار الذي كان معلنا لسياسة مصر في أواخر سنة ١٩٧٢ وقت نشر بيان هيكل..

في ذلك الوقت كانت السياط تنهال في مصر رسمياً وصحافياً وشعبياً وبلسان الرئيس السادات في الطليعة ينقم على السياسة الأمريكية والرئيس نيكسون

ومستشاره كسينجر، وهو الوقت الذي كانت تدان فيه علناً أي محاولة لأي اتصال مصري أمريكي على أي مستوي، ولو على مستوي جس النبض، وهو الوقت الـذي كان الملك حسين العاهل الأردني يتهم علناً من أنور السادات بالخيانة لاتصـالاته التحتية مع أمريكا، في هذا الوقت بالذات يجيء محمد حسنين هيكـل لـيعلن أن الرئيس السادات كان متحمساً، بلهجته الودودة ، لهذا الاتصـال السـري المقتـرح مع ذروة صنع القرار الأمريكي..

جاء مقال هيكل ليكشف بالوثـائق أن السـادات يريـد السباحة سـراً في جـنح الظلام ضد الاتجاه الجارف المعلن على الناس، وأن اللهفة تأكلـه مـن أجـل فـتح أبواب الوصال الخلفية مع واشنطن..

وجاء مقال هيكل ليظهر أنه قادر على أن يرمـي بالقفـاز.. لا في وجـه الصـحافي الذي اندفع - بدوافع حقد دفـين- إلى شـن الحملـة عليـه دون أن يحـيط بأسـرار القصة كلها.. ولكنه يرميه في وجه من هو أعلى منه بكثير..

في وجه المحرض شخصياً..

في وجه السادات ..

ذلك أن هيكل، وهو الذي عاشر دقائق ما يجري عند القمة في مصر عـلى مـدار كل هذه السنين، يصعب عليه أن يصدق، أن حملة موسى صبري ضده، هي مجـرد تصرف فردي أملته أحقاد قديمة أو جديدة يتلوى موسى صبري بتقلصاتها..

وكعادة هيكل غادر منطقة الرد على صحافي زميله، إلى منطقة فضح المحرض، وتحدي الفاعل الأصلي، وروي عن أحيـاء أقويـاء ونسـب إلـيهم- بخـط أيـديهم وبألسنتهم ـ وتحدى أي واحد منهم أن يناقض ما روي..

وأدرك السادات أنه أخطأ الحساب، إذ سـمح لموسـى صـبري بـالتهجم عـلى هيكل، خاصة وهو ما يزال يملك من « الأوراق » الكثير القادر عـلى « فضـح » مـا يجري وراء الأبواب المغلقة.

***

-٦-

أراد هيكل أن يوضح للمتهافتين على الموقع الأثير عند صاحب السلطة أنه لم يصل إلى موقعه الممتاز بالقرب من القمة السياسية عبثاً، وإنما وصل عن طريق منهج متكامل ومتصاعد في بناء علاقاته الصحافية والإنسانية بشكل جعل من السهل عليه أن يجمع بين يديه خيوطاً كثيرة من المعلومات، والاتجاهات، والاتصالات، وبحيث جعل نفسه ضرورياً، لصاحب السلطة، ليس فقط كصاحب قلم مؤثر وجذاب، وإنما - أيضاً - كصاحب طاقة فعالة ونفاذة ورصيد مرموق في الشؤون السياسية المصيرية..

كان هيكل يعرف تماماً أن نشره لمقال « كسينجر وأنا » بالأسرار التي يذيعها فيه، ومن بينها كيف يجري العمل في مطبخ القمة - كان يعرف أنه سيحرج السادات إن سمح بتداول الجريدة، وسيحرجه أكثر إن صادرها، لأن المصادرة لن تمنع من تداول مقاله في المنطقة العربية كلها بما فيها مصر، فالمقالة تطير إلى بيروت قبل صدور «الأهرام» بيوم..

وفي الحساب الختامي سنجد أن حسابات هيكل جعلته يمضي في قرار مواجهة محرض موسى صبري، وهي حسابات جد دقيقة، والخطأ فيها غير مسموح به إلا مرة واحدة، لأن المخطئ لن يكون هناك بعدها..

لم يتراجع هيكل.. ولا ارتعش القلم في يده.. وكان يدافع عن نفسه، وعن مصداقيته.. وهي أغلى ما يملك الكاتب ..بل هي شرفه الذي لا يجوز أن يُمس..

وأحسب أن منطقه في ذلك كان بسيطاً وحاسماً..

كان المنطق يقول إن من سمح بنشر الهجوم عليه، عليه أن يتحمل دفاعه عن نفسه ...

-٧-

وأسرها أنور السادات في نفسه ..

وسكت..

ولم تكن البدائل التي أمامه تسمح له بالمجازفة بالمضي في المعركة التي بدت قابلة للاشتعال، أكثر مما حدث، ولم يكن أمامه وهو الرئيس أن يفعل أكثر من أنه أبلغ هيكل أن مقالاته ستعرض من اليوم على الرقيب ..

حسب رواية السادات:

يوم أن نشر مقال بعنوان « كسينجر وأنا » ندهت له ، وقلت له:

- « أنا أول ما قرأت العنوان رحت رامي الجرنال، بشرفي، وقيل لي بعد ذلك مضمون المقال، أصدرت قراراً بأن جميع مقالات هيكل تعرض على الرقيب.. فجاء لي هيكل وقال : إن عبد الناصر لم يفعل معه هذا.. فقلت له.. لا.. عبد الناصر عمل معك أكثر من هذا بكثير.. لقد أغلق عليك الصحافة المصرية كلها ، وألغى بجرة قلم كل كاتب وصحافي في مصر.. ولم يشق إلا فيك أنت.. وقراري.. أن تعرض مقالاتك على الرقيب.. أو لا تنشر مقالاتك مطلقاً. قال لي : تسمح لي أسافر في رحلة إلى الشرق الأقصى.

قلت له : روح زي ما أنت عاوز ..

وسافر فعلاً في رحلة في أوائل سنة ١٩٧٣ ، ووصل فيها إلى اليابان ورجع يكتب عن اتفاق المهزوم والقائد المنتصر في حرب الهند وباكستان.. ثم كتب تفاهات ، لأن هيكل ليس له أية قيمة فيما يكتبه إذا لم يكن متصلاً بالحاكم».

كان هيكل قد سدد ضربته الموجعة في الصميم.. وقرر من ناحيته أن يتجنب أي تطور جديد في المواجهة بينه وبين أنور السادات، وبدلاً من أن يكون الأمر محصوراً بين خيارين أحلاهما مر؛ إما أن يعرض مقالاته على الرقيب، أو أن يمتنع عن نشر مقاله الأسبوعي، فقرر الهروب إلى الأمام، أو السفر خارج البلاد لمدة طويلة، ربما تهدأ خلالها ردود الأفعال الغاضبة، وأبلغ السادات برغبته بالابتعاد بالسفر بعيداً، عن أرض المعركة، وعن أجوائها، بل وعن موضوعاتها، ويبدو أن السادات وجد السفر حلاً أفضل من أمور قد تفرض عليه بدون ضرورة مواجهة كانت محتومة مع هيكل..

فقال له:

روح زي ما انت عاوز..

وكان ذلك أقصي ما يمكنه عمله..

لأن الرصاصة كانت قد أطلقت، وانطلقت إلى هدفها لتصيبه، دون أية إمكانية لإرجاعها إلى ماسورة الانطلاق ..

وكتب هيكل اعتذراً عن عدم الكتابة..

وكأنهما اتفقا على فترة هدنة ، تعود فيها القوات إلى الخطوط السابقة على « معركة لي الأذرع » التي لم يكسر فيها إلا لسان موسى صبري الذي منع من الاقتراب من هيكل حتى خرج من الأهرام في فبراير سنة ١٩٧٤ .

ـ٨ـ

في حياة هيكل المهنية إيضاحان واعتذاران..

الإيضاح الأول، والاعتذار الأول، كانا في عهد عبد الناصر..

والإيضاح الثاني والاعتذار الثاني كانا في عهد السادات..

في يوم ٨ مايو سنة ١٩٧٠ أوضح لقرائه ملابسات مفاجأته بتعينه وزيراً للإرشاد القومي ..

والإيضاح الثاني نشر في يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٧٠، وأوضح فيه أمام الجميع، لماذا ترك الوزارة، وقدم استقالته منها، واحتفظ لنفسه بالأسباب التي لم يكن ممكناً أن يقولها في ملابسات، ووقائع تلك الأيام.

أما الاعتذار الأول فقد كان مبكراً جداً، ونشره تحت عنوان «اعتذار (١)» [١]، وكأنه كان يتحسب ليوم سيكتب فيه الاعتذار رقم (٢) وفيه قال :

«كان المفروض أن أستأنف اليوم كتابة البقية من «تقرير عن اليمن» لكن الثورة في سوريا سبقت، وشدت إليها كل الأنظار خلال هذه الساعات التاريخية الرائعة.

---

(١)الأهرام بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٩٦٣.

ومع اعتقادي الراسخ، بأن أحداث اليمن كانت نقطة التحول العظمي في المعركة ضد الرجعية العربية المتعاونة مع الاستعمار، وأنها كانت بداية طريق العودة في تدافع الموج الثوري، فلقد كنت -كغيري- مأخوذاً بروعة ما حدث في الشمال، ملتفتاً بأعصابي كلها خلال الساعات الأخيرة - إلى دمشق، على أني سوف أعود بالحديث إلى اليمن.»

وكان الاعتذار رقم (٢) ولكن بعد ١٠ سنوات[1]، وفيه قال:

«قد يأذن لي قارئ «الأهرام» أن أتغيب عن الكتابة لفترة سفر أقصد فيها إلى الشرق الأقصى بادئاً بالصين، هناك في تلك المنطقة من العالم أحداث كبرى تجري الآن، وهناك صراعات تدور وحقائق جديدة تطرح نفسها على العصر وعلى العالم، وفيها جميعاً ما يستحق الرؤية بالعين والسماع بالأذن والمتابعة عن قرب.

ولقد كنت أعد منذ شهور لهذه الرحلة التي أسعد فيها برفقة عدد من خبراء مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية «بالأهرام»، وكنا جميعاً نتطلع إلى تجربة فكرية مثيرة...

نتمنى لها في نفس الوقت أن تكون مفيدة بالنسبة لنا، وربما بالنسبة لقارئ «الأهرام» الذي نتشرف كلنا بخدمته.»



(١) الأهرام بتاريخ ٥ يناير سنة ١٩٧٣.

الابتعاد عن قرب

◆◆◆



- ١ -

كان محمد حسنين هيكل هو الذي اقترح اسم أنور السادات ليتولى الرئاسة بالنيابة، أو الرئيس المؤقت، حتى تجري عملية اختيار مرشح الرئاسة والإجراءات المتعلقة بذلك ..

وكانت تلك خطوة كبيرة في الطريق إلى تثبيت أسم أنور السادات ليخلف جمال عبد الناصر ..

وكان هيكل هو الذي وضع منهج الحركة في تلك الساعة التي ملأها الحزن على غياب عبد الناصر وحدده في « خطوة واحدة في الوقت الواحد »، أي أنه أراد أن يعزل تحديد اسم الرئيس القادم عما عداه من أسماء تشغل المواقع الأخرى، حتى لا يقيد الرئيس، قبل أن ينتخب بأية اتفاقات تفرضها موازين القوى التي رأى أنها في أيدي خصومه، بدرجة قد تمنحهم أن يفرضوا شروطهم في لحظة اختيار الرئيس .

ثم كان هيكل هو الذي رشح للرئيس الجديد صبيحة الاستفتاء اسم الدكتور محمود فوزي لرئاسة الوزراء، أي للموقع التنفيذي الثاني في النظام.

ثم كان هو واحد من أهم الذين وقفوا مع السادات على طول الخط منذ بدأت بوادر الصراع بينه وبين من أطلق هيكل عليهم « مراكز القوى » ، إن لم يكن أهم هؤلاء جميعاً، بما كان يتوفر له من أوراق، ليست في حوزة الآخرين ممن ساندوا السادات في تلك الفترة .

وكان هيكل هو الذي بدأ الحديث ـ علناً ـ عن أن «عبد الناصر ليس أسطورة» .

وكان هيكل حلقة الوصل بين السادات (الذي يمثل الشرعية) وبين الفريق محمد أحمد صادق رئيس الأركان (المختلف مع وزير الحربية الفريق أول محمد فوزي) لحظة حسم المواقف قبيل انقلاب مايو سنة ١٩٧١ ..

وكان هيكل هو الذي أشار على السادات أن يصور صراعه مع المستقيلين في ذروة الأزمة على أنه خلاف حول الديمقراطية بدلاً من الحديث عن محاولتهم

منعه التفاوض مع وليام روجرز وزير الخارجية الأمريكية في ذلك الوقت ..

وكان هيكل هو الذي برر الانقلاب الساداتي في مايو سنة ١٩٧١، وألبسه ثوب الديمقراطية، على غير الحقيقة، وأفرغ الصراع بين أطراف النظام من مضمونه الاجتماعي والسياسي والوطني..

ثم كان هو الذي راح يصور الطرف المهزوم، وقد غيبوا وراء أسوار السجون، بأنهم مجرد مشعوذين، يكل همهم هو الحرص على تحضير روح جمال عبد الناصر ليأخذوا منه الأوامر حتى بعد رحيله ..

وكان هيكل هو أول من أعلن في اجتماعات لأعلى مستوى في البلاد ـ مجلس الأمن القومي ـ ضرورة التعامل مع أمريكا بطريقة جديدة غير تلك التي فرضها وجود جمال عبد الناصر على رأس النظام ، ولك يكن قد مر على رحيل الرجل غير أيام معدودات، ورأى أن وجود رئيس جديد قد يعطيه الفرصة لكي يبدأ مع الأمريكان سياسة جديدة ، واقترح أن يسافر السادات إلى واشنطن للقاء الرئيس الأمريكي .

وفيما بعد انقلاب العام ١٩٧١ كان محمد حسنين هيكل، وحسين الشافعي وحدهما مع السادات، وهو يعد لخطابه الشهير في ١٤ مايو سنة ١٩٧١ .

كان الشافعي نائباً للرئيس، ولم يكن لهيكل أي صفة لحضور مثل هذه الاجتماعات السياسية ..

وبغير صفة ـ أيضاً ـ حضر اجتماعاً في الأيام الأولى بعد ١٥ مايو سنة ١٩٧١، لمناقشة قلق الاتحاد السوفيتي من الأحداث الأخيرة في مصر ..

الاجتماع ضم كلاً من :

الرئيس : أنور السادات

نائب الرئيس : حسين الشافعي

رئيس الوزراء: محمود فوزي

نائب رئيس الوزراء: عزيز صدقي

وزير شؤون مجلس الأمة : محمد عبد السلام الزيات

وكان الاجتماع في مكتب الرئيس في قصر القبة .

وطرح هيكل فكرة ضم كلاً من فؤاد مرسي وإسماعيل صبري عبد الله إلى دائرة الحكم في محاولة لطمأنة قلق الاتحاد السوفيتي.

ولا شيء يبرر حضور هيكل في هكذا اجتماع يضم أعلى سلطة سياسية في البلد، إلا كونه منظر المرحلة الجديدة، وصاحب الكلمة العليا فيها..

يقترح، ويؤخذ باقتراحه..

وبمنتهى السهولة التي تبدو من روايته للقصة .

والسؤال الآن بعد كل هذا...

هل كان هيكل مجرد صحفي مشارك ولو بالمشاهدة في أجواء صناعة القرار؟

كما كان الحال معه في ظل عبد الناصر؟

أم كان هيكل، صانع سياسة، وصاحب قرارات، تنفذ؟

الإجابة التي تقول بها كلمات هيكل نفسه واضحة للعيان..

ـ٢ـ

اختلف دور محمد حسنين هيكل ـ نوعياً ـ بعد مايو سنة ١٩٧١ ، فقد ظل دوره بعد رحيل عبد الناصر باقياً كما كان ، وإن زاد عليه توحد المقاصد بينه وبين السادات في صراعه الداخلي مع مجموعات النظام التي أتت به رئيساً للبلاد، ما جعله أكثر التصاقاً بأنور السادات، وأقدر على التأثير في حركته ، إضافة إلى اختلاف الطبيعة الشخصية بين عبد الناصر والسادات..

ولا شك في أن شخصية السادات هي التي جعلت هيكل قادراً على التأثير فيه، ورسم خطواته، وتحديد خطاه .

والذي يتتبع الخط البياني لتصاعد وهبوط أسهم محمد حسنين هيكل في بورصة العلاقة المباشرة مع صناعة القرار في مصر، وعلاقة هيكل المباشرة بالقرار

السياسي، سيكتشف بسهولة أنها تحت حكم أنور السادات كانت ـ بالوقائع ـ أقوى صلة، وأكثر تأثيراً من مثيلتها في ظل جمال عبد الناصر ..

بعد مايو سنة ١٩٧١ تصاعد دور هيكل بدرجة كبيرة ليحتل مركز الرجل الثاني بدون مسمى، وكان في أحيان كثيرة يقود خطا السادات، خاصة في السنة الأولى من حكم خليفة عبد الناصر..

قراءة وقائع الفترة منذ استطاع أنور السادات بمعاونة هيكل التخلص من الخصوم المشتركين في مايو سنة ١٩٧١ ، وحتى أكتوبر سنة ١٩٧٣، وباستثناء فترة «الهجر» الأولى عند نهاية العام ١٩٧٢ وبدايات العام ١٩٧٣ ، تجعلنا نخرج باستنتاج قوي ، تؤيده هذه الوقائع نفسها بأن هيكل كان بمثابة الرجل الثاني في دولة أنور السادات، بدون مسمى وظيفي ، وإن قام بالدور بصورة واضحة ..

والذي يثبت لدينا هذا الاستنتاج، ويقويه، أن «الأستاذ» اضطر في مقدمة كتابه «أكتوبر .. السياسة والسلاح » أن يعتذر، ويطلب من القارئ ـ في محاولة للتواضع ـ أن يغفر له وجود اسمه في متن صفحات الكتاب، وليس على الهامش، وهو ما يجده هيكل «محظوراً حاولت بكل جهدي تجنبه في كتب سابقة كنت فيها شاهداً»..

ويؤكد أن إدارة الأمور التي دارت في كتبه السابقة كانت مختلفة ، (وهو يقصد هنا الكتب التي تناولت فترة حكم الرئيس جمال عبد الناصر)، ولذلك يقول :

- « فإن دوري كان يمكن تجاوزه..

وهو اعتراف من هيكل باختلاف موقعه، في حال السادات عن موقعه في ظل عبد الناصر..

كان هناك مشاركاً بالمشاهدة، والمتابعة عن قرب..

وهو هنا مشارك بالانغماس في صناعة القرار..

كانت مشاركته هناك هامشية..

وهي هنا داخل المتن بامتياز..

وهو يشير إلى أن دوره ـ فيما سبق ـ كان يأتي في ذيل هامش، أو على طرف حاشية ، وهو تعبير نراه صادقاً وحقيقياً ، حيث مع جمال عبد الناصر لم يكن جائزاً له، أو لغيره أن يدعي دوراً غير ما يرد في هامش، أو في حاشية من حواشي الدور الرئيسي . . .

وهو ما يؤكد لدينا ما ذهبنا إليه حول دور هيكل مع عبد الناصر، الذي هو في جوهره، يختلف نوعياً عن طبيعة الدور الذي أداه مع أنور السادات، حيث هو هنا مشارك بفاعلية، ومتدخل حتى في التفاصيل، وليس مجرد مطلع عليها، أو شاهد يتابع عن قرب ما يجرى بدقة المتحسب ليوم يكتب فيه شهادته . .

وهكذا نجده يؤكد أن روايته وقائع ما جرى مع السادات لم تكن لتستقيم ـ في بعض المواقف ـ إلا بالأسلوب المباشر في الرواية، ورغم محاولته أن يتحفظ ويغفل ويحذف ويبني للمجهول ، إلا أن اسمه في النهاية بقي مذكوراً في الوقائع، وهكذا وجد نفسه ـ مضطراً ـ إلى استعمال ضمير الغائب، ويبتعد عن ضمير المتكلم، وكأن الذي يعنيه شخص آخر، لا يتصل به، وإنما واحد من شخوص القصة، يحكي الكاتب عنه كما يحكي عن غريب .

ببساطة لأنه كان بطلاً . .

وليس مجرد ذيل هامش أو حاشية على المتن في وقائع ما جرى في تلك الفترة . .

كانت حاجة السادات إلى هيكل في تلك الفترة مطلوبة بل وماسة ، وكانت حاجته إلى هيكل السياسي أكثر من حاجته إلى هيكل « الجورنالجي »، وهو الوصف الأثير لدى هيكل ، لأن « جورنالجية » كثيرين كانوا يضعون أنفسهم وأقلامهم تحت تصرف أنور السادات، وربما كان بعضهم ـ مثلاً موسى صبري ـ أقرب إليه ، وإلى أفكاره ، إلى توجهاته، أقرب إليه في كل ذلك من هيكل . .

وربما كان هؤلاء الذين وضعوا أقلامهم رهن ما يريد السادات ، طوع ما يريد بأكثر مما يستطيع هيكل . .

وربما كان هؤلاء لا يرون في أنفسهم أنداداً للسادات الرئيس، كما كان يرى

هيكل نفسه مع السادات ..

والأهم أن هؤلاء جميعاً لم يمتلكوا يوماً الطموح الذي ركب هيكل وركبه هو طوال عمره..

ـ٣ـ

ظل السادات يريد هيكل إلى جانبه، وكانت له أسبابه ودوافعه..

وكانت لدى هيكل أسبابه أيضاً، وكانت له دوافعه وراء المحافظة على الموقع الذي أدمن الوجود فيه، وعلى المكانة التي لا يقبل بها بديلاً ..

اختلفا واتفقا...

ولكن خلافاتهم ظلت محكومة، ومنضبطة ..

محكومة برغبتهما المشتركة في الحفاظ عليها..

ومنضبطة على ميزان القوى الذي ظل يكبر لمصلحة السادات يوماً بعد آخر، كلما تمكن من موقعه الجديد في سدة الرئاسة..

وحسب كلام هيكل نفسه فقد كان الرئيس « السادات » يراهن في الضغط عليه بأوراق ثلاث ظنها رابحة :

ـ «الورقة الأولى أنني لن « أطيق البعاد» عن لعبة السياسة العليا في مصر ، وقد كانت أصابعي فيها لأكثر من عشرين عاماً ، وبالقرب من لعبة السياسة العليا في أي بلد في العالم حالة يمكن أن تكون لها قوة الإدمان» ..

ـ «والورقة الثانية أنني لن « أقدر على الفراق » مع الأهرام بعد أن وضعت فيه من سنوات عمري ما وضعت – أكثر من ثمانية عشر عاماً هي الشباب كله، وما بعد الشباب».

ـ «والورقة الثالثة هي أنني لن « أجد ما أعمله » إذا ما ابتعدت، فالمهنة التي اخترتها لنفسي ـ الصحافة ـ أصبحت في مصر ملكاً خالصاً لسلطة الدولة ، فإذا أنا خرجت من أحد الأبواب، فقد خرجت من كل الأبواب» ..

وهي أوراق باعتراف هيكل ضاغطة على قراره..

ومؤثرة فيه..

لعبة السياسة العليا إدمانه ..

والأهرام الحديث انجازه الذي يفخر به ..

والصحافة مهنته التي لا يعرف غيرها ..

وحافظ هيكل على أن تبقى العلاقة مع السادات رغم كل الخلافات ..

اختلف سنة ١٩٧١ فيما قاله السادات عن «سنة الحسم» وكتب ونشرت آراءه دون إلحاح .

واختلف سنة ١٩٧٢ في الطريقة التي قرر بها إخراج الخبراء العسكريين السوفييت من مصر، وفي الطريقة التي عالج بها مشكلة ما أسماه بـ « الفتنة الطائفية» وحاول معه بقدر ما استطاع ..

واختلف سنة ١٩٧٣ في مواجهات النظام التي اندفع إليها مع شباب الجامعات، الذين سجنهم وقدمهم للمحاكمات، ومواجهات أخرى مع جماعات من المثقفين والصحفيين نقلهم بجرة قلم إلى مصلحة الاستعلامات..

والتزم هيكل بموقفه، وإن حاول جاهداً أن يتفادى ما يقترب من حد الاستفزاز، على حسب قوله(١) .

ويعترف هيكل أن الرئيس السادات غضب منه عدة مرات وثار، واتهمه بأنه يريد أن يفرض آراءه عليه، وأنه يتجاوز الحد الفاصل بين دور «الصحافي» وحدوده، ودور «الحاكم» ومسئوليته..

يقول هيكل:

وحاولت مخلصاً أن أشرح له موقفي :

« كان رأيي أن حرية الصحافة بالمعنى الحقيقي هي حرية مناقشة صنع القرار ،

---

(١)عند مفترق الطرق ـ ص ٩ـ المطبوعات للنشر والتوزيع.

العوامل المؤثرة عليه و المناخ المحيط به و النتائج التي يمكن أن تترتب بعدها » .

ولم يكن ذلك رأيه في حرية الصحافة ..

كان القرار في رأيه مسئولية الحاكم وحده ..

وكنت مستعداً أن أوافقه في ذلك عن معرفة بظروف العالم الثالث كله ومرحلة التطور التاريخي التي تمر بها بلدانه ..

لكن مسئولية إصدار القرار شئ ، وحق مناقشة هذا القرار، وتقييمه، وما يتصل به من مقدمات ونتائج شئ آخر ..

ولم يكن السادات على استعداد لأن يقتنع بمثل هذا الكلام من هيكل.

بتطور الأحداث، ومع تمكن السادات من الكرسي الذي جلس عليه، وتسلطن، رأى السادات أنه في حاجة إلى تقليص دور هيكل السياسي، والاحتفاظ بدوره الصحافي.

خاصة دور الداعية والمفسر والمبرر أحياناً..

وبدأت بينهما مناوشات على هذه الأرضية..

بدا أنها قابلة للتصعيد في حادثة أو مقالة « كيسنجر وأنا مجموعة أوراق»..

سافر هيكل إلى الشرق الأقصى، وعاد يحاول أن يضبط الخلاف بينهما حتى لا ينفجر، ويكون هو أول الخاسرين..

وشهد ربيع العام ١٩٧٣ ربيعاً جديداً في العلاقات بين السادات وهيكل، وجرت تسوية العلاقات مرة أخرى، حسب تعبير هيكل نفسه، بعد عودة هيكل من الصين والشرق الأقصى[١]..

وعاد هيكل إلى مواقعه سالماً، وباشر مهامه التي يتقنها مباشرة عقب تسوية العلاقات، وكانت مياه كثيرة قد مضت في طريقها في أنهار مختلفة تصل العلاقات بين السادات والبيت الأبيض علناً، وتصله سراً عبر أجهزة المخابرات بصانع

---

(١)أكتوبر ١٩٧٣ السلاح والسياسة ، ص ٢٧٥ ـ طبعة الأهرام.

السياسة الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر، وأحيا السادات حلقة الاتصال عبر كاندال من جديد، ومثله في هذا اللقاء مع كيسنجر السيد حافظ إسماعيل الذي كان قد عينه مستشاراً للأمن القومي، وحين عاد رفع تقريره عن المحادثات..

وحسب رواية هيكل فقد (تفضل الرئيس السادات فأرسل لي نسخة من محاضر المحادثات مع هنري كيسنجر طالباً رأيي فيها ـ ولم أبد رأياً في أسلوب التفاوض، وإنما رددت نفسي عنه من محظور أنني وقد اعتذرت سابقاً عن التفاوض مع كيسنجر، لا يحق لي أن أبدي ملاحظة على الأسلوب، الذي اختاره، ولكن ملاحظاتي للرئيس انصبت على فداحة الشروط التي عرضها الجانب المصري.

آثر هيكل ألا يعترض على ما رفضه من قبل، حفاظاً على استمرار العلاقة بينه وبين السادات، وبدا أنه يحاول أن يبقي على العلاقة بدون توتير جديد لا لزوم له..

وبقي تأثيره فاعلاً في قرارات السادات الرئيسة..

ـ ٤ ـ

تشبث هيكل بموقعه قرب الرئيس، الذي كان لا يزال في حاجة إليه..

وظل هيكل حريصاً على ألا تصل الأمور إلى صدام .

وكانت دوافعه لتجنب الصدام مع السادات في تلك الفترة عديدة..

يقول:

تمنيت ـ ولعلي أردت ـ أن أظل قريباً حتى تجيء معركة لإزالة العدوان ..

وكنت أعلم أنها قادمة كأحكام القدر تفرض نفسها على الجميع، أرادوا أو لم يريدوا.. أقدموا أو ترددوا .. وفي بداية خريف سنة ١٩٧٣ أصبح واضحاً أن المعركة لم يعد ممكناً تأخيرها .

ويقول:

«لسوف أظل إلى آخر العمر مديناً لـ « أنور السادات » بأنه أشركني في عملية

الإعداد السياسي والإعلامي لها، وهكـذا فـإني منـذ أوائـل سـبتمبر سـنة ١٩٧٣، وحتى بدأت المعركة واحتدمت في أكتوبر، وجدتني أقرب الناس إليه ..

وكان يستطيع تجنبي لو أنه شاء، ولم يكن في مقدوري أن أفرض نفسي عليه ..

قائمة هيكل بالأسباب التي جعلته يتجنب الصدام، رغم كـل شـيء، تضـمنت سبباً غريباً ساقه في معرض حديثة عن تلك الفترة التي رأى أنها كانت مفترق طرق، انتهت بخروج السادات من لعبة السياسة العليا في مصر، وإن بقي في المهنة التي لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يسلبه حقه في ممارستها..

السبب الذي نراه غريبـاً، هـو مـا ذكـره هيكـل في مقدمـة كتابـه «عنـد مفتـرق الطرق»[1] ، يقول:

كانت خطة « جرانيت » العبور بخمس فرق مـن غـرب القنـاة إلى شـرقها عـلى خمسة محاور و التمسك بخمسة رؤوس كباري في الشرق ـ قد وضـعت في حيـاة « جمال عبد الناصر » الذي وضع عليها توقيعه بالاعتماد في شهر مـايو سـنة ١٩٧٠ ، ثم طلب تطويرها إلى « جرانيت » ـ الوصول إلى المضايق ـ لكن الحياة لم تمهلـه ، ولقد **تصورت أن استمرار قربي من عملية صنع القرار حتـى تجـئ المعركـة ـ وأنـا واحد من أقرب الناس إليه ـ مهمة مقدسة، ربما يرضيه، وهو في رحاب الله أن أقـوم بها ..**

ثم يقول:

ـ وهكذا صبرت ..

وهو يريد أن نفهمها بصياغة أخرى هي:

ـ ولهذا صبرت..

ثم يعود «الأستاذ» ليـذكر هـذه النقطـة بالـذات مـرة أخـرى بعـد عـدة أسـطر اعتراضية عن دوره في كتابة التوجيه الاستراتيجي الصادر من القائد الأعلى للقوات

---

(١)ص ١١، وص١٢.

المسلحة إلى القائد العام يحدد استراتيجية الحرب وأهدافها، إضافة إلى أنه هو الذي كتب خطاب السادات الذي ألقاه السادات أمام مجلس الشعب بتاريخ ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣، وبعد ذلك يذكرنا بالنقطة نفسها فيقول:

«أستأذن أن أقول، مع ما في القول من تجاسر أعتذر عنه مقدماً، إنني على نحو أو آخر كنت أشعر في أعماقي، أن وجودي في أجواء المعركة مهمة مقدسة . .

هناك بالطبع قداسة الواجب الوطني لأي إنسان تواتيه الظروف ..

وكان هناك أيضاً نوع من القداسة العاطفية . .

بشكل ما، وعلى نحو ما، فقط **كنت أشعر أن « جمال عبد الناصر » ربما يرضيه حيث هو في رحاب الله، أن واحداً من أصدقائه، لا يزال قريباً من وقائع حدث تاريخي عظيم، أعد له، ونذر نفسه لتحقيقه، وعاش من أجله، ورحل قبل أن يحين أوانه» ..**

وهو في الحقيقة استخدام مخل لذكرى رجل أصبح في رحاب ربه.. لتبرير موقف لا يسأل عنه، وقد كان يكفيه أن أنور السادات صاحب قرار العبور كما سماه هيكل، هو الذي عينه في موقع النائب، وقد كان قريباً منه، كما كان هيكل، ولم يكن شرطاً لرضا الرجل وهو في رحاب ربه أن يكون هيكل بالذات قريباً من لحظة اتخاذ القرار.

إلا إذا كان هيكل يريد أن يقول أنه أصبح بعد رحيل عبد الناصر هو الممثل الشرعي والوحيد، للرئيس الراحل، والمعبر عنه في الدنيا، وفي الآخرة أيضاً..

ـ ٥ ـ

هنري كيسنجر السياسي والأكاديمي الأمريكي، مستشار الأمن القومي، ووزير خارجية أمريكا الأسبق، لعب دوراً رئيسياً في قصة هيكل والسادات، دور معلن، ومعروف، وآخر سري ومكتوم..

جرى ذلك بشكل مباشر، كما كان دروه في عملية اقصاء هيكل بعيداً عن السادات غير مباشر أيضاً ..

كان الخلاف العلني الأول بين أنور السادات ومحمد حسنين هيكل بسبب كيسنجر، وقد فصلنا ذلك في الفصل المعنون هيكل يتحدى السادات، ثم كان الخلاف حول الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة الأمريكية مع الوضع الناشئ بعد حرب أكتوبر في منطقة الشرق الأوسط، من ناحية، وطريقة واسلوب السادات في التعامل مع هذه السياسة التي صنعها كيسنجر وخطط لها، من ناحية أخرى، هي القشة التي قصمت ظهر بعير العلاقة بين هيكل والسادات...

وكان آخر مقال منشور في « الأهرام» بتوقيع محمد حسنين هيكل مقالته تحت عنوان : (الظلال .. والبريق) [1]..

تحدث فيه هيكل عن «الظلال» التي تسقط على الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، و«البريق» الذي يتوهج حول وزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر، وانتهى فيه إلى القول بأن الظلال والبريق معاً لا يكفيان لتغيير سياسة الولايات المتحدة المنحازة تاريخياً وواقعياً للكيان الصهيوني في إسرائيل..

وكان للسادات رأي آخر ، يتلخص في مقولته الشهيرة عن أن أمريكا تمسك بنسبة مائة في المائة من أوراق اللعبة..

كان السادات قد وضع خطته على أساس جديد، أشار إليه كيسنجر حين قال: إنه فوجئ بالسادات يقفز ليجلس على «حجره»، في أول محادثات مباشرة اقتصرت عليهما وحدهما في القاهرة عقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ..

وأحس هيكل أنه وصل إلى نقطة النهاية عند مفترق الطريق بينه وبين السادات..

وأحس السادات أن هيكل سوف يكون عبئاً ثقيلاً على توجهاته الجديدة..

وكان كيسنجر يلعب بينهما لعبة إزكاء نار الخصومة، والافتراق..

وكانت مقالة « الظلال والبريق» هي نهاية هذا المفترق الاجباري..

---

(١)عند مفترق الطرق ـ ص ٣٤٥ ـ المطبوعات للنشر والتوزيع.

حيث تباعدت المسافات بينهما..

واختلفت الطرق ..

فمضى كل في طريق ..

-٦-

قرر السادات أخيراً أن يخرج هيكل من «الأهرام» ..

لكنه حاول أن يترك الباب نصف مفتوح بعد الخروج ..

كان قراره الأول المنشور في كل الصحف صباح يوم ٢ فبراير سنة ١٩٧٤ أن ينتقل هيكل من «الأهرام»، إلى قصر عابدين مستشاراً لرئيس الجمهورية ..

وجاء رد هيكل على القرار في تصريح نشرته صحيفة « الصنداي تيمس » في عددها الصادر يوم ٩ فبرايرسنة ١٩٧٤، قال فيه :

« أنني استعملت حقي في التعبير عن رأيي . ثم أن الرئيس السادات استعمل سلطته » ..

وسلطة الرئيس قد تخول له أن يقول لي : « اترك الأهرام » ، ولكن هذه السلطة لا تخول له أن يحدد لى أين أذهب بعد ذلك..

القرار الأول يملكه وحده، والقرار الثاني أملكه وحدي ..

لم يستطع السادات أن يترك هيكل على ما هو عليه ، في موقع متقدم على كل معاوني الرئيس ، يَجُبُ كل المواقع ويعلوها ، بما فيها رئيس الوزراء الذي رشحه للسادات لكي يتولى المنصب الكبير في الدولة ، أراد السادات أن يحشر هيكل في مسمى وظيفي، وأن يبعده عن مركز ثقله الأساسي « الأهرام » لكي يحجم دوره بعد أن حصل السادات على شرعيته الجديدة عقب حرب أكتوبر مباشرة، وأراد أن يبدأ «عرض الرجل الواحد» One man show، فكان ضرورياً أن يحرمه من قوة تأثيره، خاصة بعدما اختلف هيكل على سياسات السادات التي بدأت بوادرها على الأرض في الأيام الأولى لحرب أكتوبر ..

أراد السادات أن ينحي هيكل عن «الأهرام» ليخلع منه قدرته على التأثير في القرار، بعدما قرر أن يمسك هو بنفسه بمجمل القرار السياسي، في الوقت الذي أراد - أيضاً - أن يضع هيكل في السلم الوظيفي في الدولة، وتحت مسمى محدد، ترك له الخيار أن يكون مستشاره للأمن القومي « كيسنجر بتاعه » ، أو أن يكون مستشاره الإعلامي ؛ لم يكن السادات يريد لهيكل أن يبقى في «الأهرام»، حيث مركز قوته المنيع..

وأراد له ألا يبقى خارج «التراتبية» المحددة في النظام، مما يعطيه وضعاً مميزاً، وتأثيراً أقوى، وندية لم تعد مطلوبة، ولا مقبولة..

وكانت بداية افتراق الطرق .



الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة
بين الكاتب والسلطان

القطيعة



- ١ -

لم يكن قرار السادات بإبعاد هيكل عن «الأهرام» يحتاج إلى تفسيرات..

ولكن أن يأتي بعلي أمين بالذات من بين كل الصحفيين، بديلاً لهيكل في موقعه الأثير، فهذا ما يحتاج إلى ألف علامة تعجب واستفسار واستنكار..

لم يكن السادات يحب علي ومصطفى أمين ، وكان وجودهما في تلك الفترة يبدو وكأنه ضرورة سياسية أملتها ظروف مرحلة جديدة يتجه إليها أنور السادات..

وهذا صحيح ..

ولكن لماذا هذه النزعة الانتقامية تجاه من كان إلى وقت قريب أقرب الناس إليه؟

شخصية السادات التي لم تعرف صدقاً في مشاعرها، أو وفاءاً في علاقاتها، على طول عمره، لا شك لها تأثير في ذلك ..

ولكن لماذا ؟

حتى تغيير علي أمين وطرده من « الأهرام » إلى « الأخبار » جاء بنفس الطريقة..

كان يعرف أن « علي أمين عدو هيكل اللدود » .. كما قال لأحمد بهاء الدين ..

وكان يريد أن تكون رسالة مزدوجة ؛

رسالة إلى هيكل ..

وأخرى إلى العاملين في الأهرام :

يقول السادات:« عندما قررت إخراج هيكل كان لابد أن أقرن ذلك بصدمة كهربائية لكل من في الأهرام ، فهيكل لم يكن رئيس تحرير جريدة ، ولكنه جعل من الأهرام حزباً ، وصار كل واحد في الأهرام يظن أنه هيكل صغير يشارك في حكم البلاد ..

وكان لابد من صدمة تجعلهم يفيقون ...

وكانت الصدمة هي علي أمين..

وكانت تلك رسالة أولى .

ثم كان يريد أن يجرح هيكل نفسياً ، ربما رداً على جروح نفسية كثيرة عانها السادات من هيكل، سواء في ظل عبد الناصر، أو حتى عندما أصبح رئيساً للجمهورية .

أراد أن يخفي عنه من يخلفه ...

وكان أي شخص سيكون بمثابة مفاجأة لهيكل ...

ولكن علي أمين لم يكن مجرد « مفاجأة » ، بل كان اختياره مقصوداً لا ليكون مفاجأة ، بل ليكون جرحاً في النفس عميقاً وجائراً..

كان تعبيراً عن كره عميق تجذر داخل السادات تجاه هيكل..

كره يتحدث عنه أحمد بهاء الدين الذي خلف علي أمين في رئاسة تحرير الأهرام فيقول :

« كان أول ما قابلني مع الرئيس السادات، واستمرت معلقة إلى يوم تركت الأهرام حيث بدأت أشعر بسرعة أن الرئيس يكره هيكل أكثر مما تصورت أول الأمر » .

ثم يتابع :

« وبدأت أشعر أن نقمة السادات على هيكل قد تعدت شخص هيكل إلى جريدة «الأهرام» ذاتها » .

ـ ٢ ـ

يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٧٤ وصل « هنري كيسنجر » إلى المنطقة وزيراً لخارجية «جيرالد فورد» هذه المرة ، والتقى الرئيس «السادات»، ولم يفاجأ الرئيس «السادات» كثيراً حين وجد أن كيسنجر يطالبه بتخفيف طلباته من أجل الوصول إلى اتفاق ثان لفك الارتباط، وقام كيسنجر بشرح مطول لأحوال جيرالد فورد أمام

السادات، الذي أحس بإحباط شديد، خصوصاً وأنه كان على وشك السفر إلى الرباط لحضور اجتماع قمة عربي تقرر له يوم ٢٨ أكتوبر ..

وفوجئ السادات أن كيسنجر يوجه إليه ما يكاد أن يكون إنذاراً ، وكان تقدير كيسنجر أن إقرار منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، سوف يؤدي إلى تعقيد الأمور بدلاً من تسهيلها ، وكان كيسنجر يؤيد الخيار الأردني، ويتبنى وجهة النظر الإسرائيلية التي ترفض قيام كيان سياسي فلسطيني مستقل ..

ولم يكن كيسنجر يريد لهذا القرار أن يمر في الرباط، أو على الأقل ألا توافق عليه مصر، وكان يطلب منها عرقلة صدوره ورفضه ..

ولم يكن هناك ما يمكن عمله أثناء زيارة كيسنجر للقاهرة، فالوقت ضيق قبل مؤتمر الرباط، وكان السادات يشعر بحيرة شديدة، حسب وصف هيكل جعلته هذه الحيرة يأخذ المبادرة ويتصل بهيكل بعد انقطاع تام في العلاقات بينهما دام ثمانية شهور..

وفوجئ هيكل باتصال السادات الذي دعاه إلى لقائه فوراً في بيته..

وحين وصل هيكل وجد السادات ينتظره على سلم الباب الخارجي، وطلب منه التوجه معه إلى استراحة الهرم..

وهناك استمر لقاء الاثنين أكثر من أربع ساعات، أفاض فيها الرئيس السادات في شرح همومه منذ آخر مرة التقى فيها الاثنان في ظروف مختلفة سبقت قبل ثمانية شهور ..

يقول هيكل إنه وجد السادات رجلاً مثقلاً بالمشاكل، وحيداً، ومحاصراً من كل جانب..

وكانت مشكلته الملحة هي مؤتمر الرباط، وكيف يمكن أن يتصرف فيه..

ويبدو أن هيكل أوضح للسادات أنه في وضع لا يسمح له بعرقلة صدور قرار اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب

الفلسطيني.. وأنه لا يملك حتى الاعتراض عليه، وأفهمه أن صدور القرار لا يغير شيئاً في الموقف الأساسي بالنسبة لمصر، وأن الأولى هو الاستعداد لزيارة كيسنجر التي يزمع أن يحقق خلالها فك ارتباط ثاني على الجبهة المصرية ..

ولم يذكر هيكل تفاصيل أكثر حول ما دار بينهما في هذا اللقاء ..

وعاد كيسنجر مرة أخرى يوم ٩ فبراير سنة ١٩٧٥ ، وتوجه مباشرة إلى أسوان، حيث ينتظره السادات هناك، ومعه كبار مساعديه..

وكان السادات كان قد طلب إلى هيكل أن يصحبه إلى أسوان، وحسب تعبير هيكل فإنه رجاه أن يعفيه من هذه المهمة، خاصة، وأنه وضع رأيه وتصوراته أمام السادات، ورأى أن في ذلك كفاية، حتى لا تحدث التباسات لا مبرر لها ..

مرة أخرى كان هيكل يريد أن يلعب في الخفاء، ولكن حاجة السادات إلى هيكل كانت أكبر من الشكليات التي يحاول هيكل أن يراعيها ..

وفي اليوم الذي كان مفروضاً أن يصل فيه هنري كيسنجر إلى أسوان فوجئ هيكل بطلب من الرئيس السادات يدعوه إلى أسوان، ووضعه أمام الأمر الواقع، وأبلغه أن طائرة الرئاسة جاهزة لنقله إلى هناك ..

يقول هيكل إنه عندما وصل إلى أسوان، كان السادات مجتمعاً مع كيسنجر في استراحة «الخزان»، فتوجه إلى فندق «كتراكت الجديد»، فالتقى هناك بوزير الخارجية إسماعيل فهمي، الذي أطلعه بناء على تعليمات من السادات، على كل الأوراق التي أرسلها كيسنجر قبل وصوله، بما في ذلك ما نقله من مقترحات وصياغات إسرائيلية..

والتقى هيكل أيضاً هناك بالفريق عبد الغني الجمسي، وأحس أن ذلك العسكري المحترف الكفء يواجه أزمة ضمير، لا يعرف كيف يتصرف تحت ضغطها ..

ولا شك أن هذه الحالة التي كان فيها السادات ، والاتجاهات الجديدة التي بدأت تسفر عنها محاداثاته مع كيسنجر، كانت صدمة شديدة لهيكل، فهي تتناقض

مع المعتقدات التي تبناها وصاغها في عهد عبد الناصر ..

لم يكن سهلاً على هيكل وقد شاهد الدموع تطفر من عيني الفريق عبد الغني الجمسي قائد القوات المسلحة، وهو مغلوب على أمره في أسوان ، أن يواصل أداء الدور المطلوب منه مع أنور السادات ..

وقرر العودة إلى القاهرة ..

يقول أحمد حمروش[1]:

روى لي الصديق مصطفى بهجت بدوي[2] .

أنه كان مع هيكل في أسوان لمقابلة أنور السادات، وأنه لاحظ حرص هيكل على سرعة العودة للقاهرة دون لقاء مع أنور السادات .

وقال لي كامل زهيري:

بعد أن كتبت يومياتي ضد كيسنجر بمناسبة جولاته المكوكية في ذلك الوقت، أثناء السعي وراء اتفاقية لفصل القوات الثانية، فوجئت بوصول كيسنجر إلى القاهرة، وسافر إلى أسوان رئيس تحرير الجريدة الأستاذ مصطفى بهجت بدوي، حيث يجتمع السادات مع كيسنجر، فقررت تأجيل نشر اليوميات، ونشرت بدلاً منها يوميات أخرى عن شأن عراقي، مبتعداً عن الشأن المصري، وتطوراته في ذلك الوقت، وفوجئت بأن مصطفى وصل القاهرة قبل أن تنتهي المباحثات ..

وذكر لي أنه رجع على طائرة الرئاسة صحبة هيكل ..

ومن حديث طويلٍ معه، استنتجت أن كيسنجر رفض أن يشترك هيكل في المفاوضات ..

وأذكر أنه سافر إلى روما خلال جولته نفسها ، ومن هناك تحدث عن هيكل بطريقة غير لائقة ، وقال :الصحفي إياه، أو شيئاً من هذا القبيل ..

---

(١)كاتب صحافي وأحد قيادات تنظيم الضباط الأحرار.

(٢)رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة الجمهورية في ذلك الوقت.

ويستطرد زهيري فيقول:

ـ أنا أشك كثيراً في أن كيسنجر هو الذي وقف بقوة وراء إبعاد هيكل عن السادات، لأنه تأكد أن وجود هيكل إلى جوار السادات، قريباً من أذنه، ومؤثراً في قراراته، قد يفسد «طبخته» التي يحاول تمريرها على السادات .. كان يريد السادات بمفرده، كي يؤثر فيه أكثر، و يلعب على نقاط ضعفه بطريقة مفتوحة، ومن دون عوائق ..

وكان هيكل قد اكتشف أن السادات وقع فريسة سهلة في يد كيسنجر ..

وكان قد نصحه ألا يتفاوض مباشرة مع هنري كيسنجر، وأن يشكل وفداً موسعاً يضم الدكتور محمود فوزي مساعد رئيس الجمهورية ، واللواء حافظ إسماعيل مستشار الرئيس للأمن القومي، وإسماعيل فهمي وزير الخارجية، ولم يأخذ السادات بنصائح هيكل.

قال له هيكل كما جاء في خريف الغضب :

(أرجوك أن تأذن لي أن أتكلم بصراحة ، إن كيسنجر مفاوض ذكي، وقد درس بالتأكيد حقائق أوضاعنا هنا .. وهو يعرف أن سلطة القرار كلها في يدك، لهذا فإنه سوف يضغط عليك، ليحصل على أكبر قدر ممكن من التنازلات) ..

ولم يقتنع السادات، وقال لهيكل: إن المفاوضات سوف تكون بينه وبين كيسنجر فقط ..

وهو ما حدث فعلاً يوم ٧ نوفمبر، إذ جلس الوفدان المصري والأمريكي، بعد أن سلطت عليهما أضواء التليفزيون لالتقاط مئات الصور ، ثم خرج الجميع، ولم يبق إلا السادات وكيسنجر ..

وفي هذا اللقاء الاجتماع الحاسم والخطير في تاريخ مصر الحديث كله كما وصفه محمد حسنين هيكل ، صارح السادات كيسنجر بقوله :

إنه ضاق ذرعاً بالاتحاد السوفيتي، وأنه قرر أن ينفض يده نهائياً من أية علاقة معه .. كما أنه صارحه بقول : إن حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ سوف تكون آخر

الحروب مع إسرائيل ..

كما تحدث السادات عن فشل التجربة الاشتراكية في مصر، وأنه يريد تنمية من نوع جديد .

وقبل السادات في هذا الاجتماع النقاط الست التي بعثت بها جولدا مائير مع كيسنجر..

وعندما سئل كيسنجر بعد ذلك من مندوب مجلة نيويورك : كيف استطاع في ثلاث ساعات فقط ، أن يقنع السادات بقبول نقاط جولدا مائير؟

كان جواب كيسنجر :

(إنني لم أبذل أي مجهود ، فما كدت أدخل، حتى وجدت الرئيس السادات جالساً على حجري) ..

ـ ٣ـ

منذ رحيل عبد الناصر وحتى حرب أكتوبرسنة ١٩٧٣ ، كان السادات يتخبط في التعبير عن هوية النظام الذي يرأسه..

يتخبط بين هوية يريدها ويسعى إليها .

وأخرى موروثة مفروضة عليه وعليها حراس، وحواليه من يدفع إلى تكريسها ، وحواليه آخرون يريدون أن يصبغوها بصبغتهم ..

وحواليه آخرون غير هؤلاء وهؤلاء ـ مثله ـ لا يريدون غير التخلص والتملص منها ..

في مايو سنة ١٩٧١ وبعد أقل من تسعة أشهر على توليه الرئاسة تخلص من حراس الهوية المفروضة الذين يريدون تكريسها على طريقتهم ..

وتخفف السادات من بعض تخبطه في التعبير عن هوية النظام الجديد الذي نشأ على أنقاض جماعة الحكم ..

وكان قد ساعده في الانقضاض على جماعة الحكم مجموعة الذين يريدون الحفاظ على هوية النظام القديم بطريقة جديدة ، بصبغة مختلفة الألوان، رأوها

تناسب التغيرات الجديدة ، وأهمها رحيل عبد الناصر نفسه صانع هوية النظام ، وربما كانت تناسب أكثر أفكارهم هم لا أفكار عبد الناصر نفسها .

وكان من بين هؤلاء محمد حسنين هيكل ..

بوجوده ، وبوجود الآخرين ـ مثله ـ ظل السادات قائماً على التخبط في التعبير عن هوية النظام .. بين هوية يريدها هو .. وهوية أصبح لها حراس جدد يحاولون تكريسها ..

وجاءت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، التي ذهب إليها السادات مرغماً، بفعل عوامل داخلية ضاغطة، وعوامل خارجية غير مستجيبة، لكي تسبغ عليه شرعية كان يتوق إليها وبتشوق ..

ومنها انطلق إلى الإفصاح عن هويته، وهوية نظامه ..

وكان أول ما اتخذ من قرارات كبيرة ، قرار الاستغناء عن خدمات محمد حسنين هيكل في «الأهرام»..

كان السادات يريد أن ينزع من هيكل أسنانه..

أن يتجنب « السلاح النووي » الذي بحوزته ، القلم والجريدة ..

وإلا كيف يستقيم أن يقال أن هيكل يريد أن يفرض على رئيس الجمهورية آرائه، أو أن يتحول إلى مركز قوة في مواجهة رئيس الدولة، ثم يعرض عليه رئيس الدولة نفسه في ذلك اليوم الذي خرج فيه من «الأهرام» لهذا السبب أن يبقى مستشاراً له ..

ثم يعرض عليه بعد أقل من عام من الخروج والقطيعة منصباً آخر .

كان وجوده قرب قمة السلطة بالوضع المميز الذي كان يحرص عليه هيكل ويحصل عليه بامتياز يمكن أن يشوشر على قدرة السادات على « إعلان » الهوية الجديدة ، وعلى إمكانية تحريرها في الواقع دون مقاومة حقيقية .

وأستطيع المجازفة بالقول إن أحد أهم الأسباب وراء غضبة السادات الضارية على هيكل هو عدم اطمئنانه إلى ولاء هيكل لشخصه، كما كان ولاؤه لعبد الناصر،

وكان ذلك وراء تصميمه على إقصاء هيكل من دائرة السلطة في اللحظة التي استقرت فيها معرفة الأمريكان بالسادات على استراتيجية واضحة محددة ومتفق عليها بينه وبينهم، وحتى لا يطلع هيكل على أسرار اتصالاته الجديدة بهؤلاء الذين كان هيكل نفسه في ظل عبد الناصر قناة من قنوات الاتصال الرئيسية معهم ، الأمريكان .

وهو أيضاً ـ على جانب آخر ـ رسالة من السادات لكل من يعنيهم الأمر أنه عندما يقصي هيكل من دوائر السلطة، لم يصبح قناة اتصال مع الأمريكان ، وأنه قفل القنوات جميعاً إلا تلك المفتوحة عنده وحده، وحتى لا ينسب إلى أحد غيره فضل ما يقوم به من إستراتيجية جديدة في المنطقة، تقوم على التحالف الاستراتيجي مع الولايات المتحدة الأمريكية ولم تكن دماء الشهداء على أرض سيناء قد جفت بعد .

والذي يراجع التواريخ سيكتشف أن الاستغناء عن هيكل واكب الاتجاه نحو فتح أكبر مزاد علني لنهب مصر بالمجان ، وكانت خطوته الأولى الإعلان عن قانون جديد يحمي ما يسمى بـ « الانفتاح الاقتصادي » وواكب ذلك ارتماء شبه كامل في الأحضان الأمريكية ، ارتماء تلقفه كيسنجر، ورحب به وشجع إليه، وضغط باتجاهه، ورعى مسيرته، حتى لحظة التسليم الكامل مع زيارة السادات إلى القدس المحتلة في نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

وبدأ الاستغناء عن هيكل بعد حصول السادات على شرعية القدرة على الإعلان عن الهوية الجديدة للنظام ، وكأنه استغناء عن طابع هوية قديم يذكر الجميع بهوية نظام كان على رأسه منذ أربعة سنوات فقط جمال عبد الناصر بتوجهاته المعروفة وانحيازاته المقررة .

كان السادات قد عقد العزم على السير في عكس الاتجاه القديم ، فكان عليه أن يتخلص من كل « شرطي مرور » يقف في وجهه منذراً بصافرته أن الطريق ليس من هنا ، ويشير بإحدى يديه إلى أن الطريق الصحيح من هناك على الجانب الآخر..

كان السادات قد قرر، واستقر عزمه، على تكسير كل القواعد المستقرة، فكان عليه أن يستبعد شاهداً قادر على أن يتكلم ويحكي، وأن يروي كل ما يراه على مسمع ومرأى ومشهد من جمهور كان يتوجس شراً ..

خشى السادات الذي يعرف ما ينوي عليه .. ويعرف ما ينوي عليه هيكل، خشى من البلبلة :

ـ يا محمد مقالاتك بتعمل لي « بلبلة » في الرأي العام ..

وأصر محمد على أن يكون الشاهد الذي ينطق بما يرى ، فالشاهد الساكت شيطان مشارك ..

فجاء التخلص منه سريعاً ... وكأنه قدر محتوم .

كان يعلم ـ وهو اللبيب الذي تكفيه الإشارة ـ أن التخلص منه أصبح مسألة وقت.

وكان يعلم ـ وهو الذي رفض أن يكون شيطاناً أخرساً ـ أن الإدلاء علناً برأيه حول ما يجري في الخفاء، ويعلمه، أصبح يسبب للسادات إزعاجاً عبر له عنه أكثر من مرة، وبأكثر من صورة ..

وأنه قد ضاق به ذرعاً، وبموقعه بالقرب من القدرة على رؤية ما يجري .فانتزع منه «الأهرام» .

وأزاحه عن طريقه إلى الإعلان عن هوية النظام الجديدة ..

ولكنه ظل يحرص على استعادته لعله يكون قد وعى الدرس .

ولعلها شهادة للسادات ..

أو لعلها شهادات لحسن ظن السادات بهيكل ..

أن نقول أنه كان حريصاً ـ ربما أكثر من هيكل نفسه ـ على استراتيجية هيكل إلى جانبه ..

ولكن هيكل آخر ..

هيكل مختلف ..

هيكل ملتزم ..

وعرض عليه مرة أخرى عرضاً جديداً أن يتولى منصب نائب رئيس الوزراء، بل وأن يعود مرة أخرى إلى «الأهرام»، على شرط واحد :

أن « ألتزم » ..

وكان رد هيكل متسقاً مع قناعاته:

سيادة الرئيس ، أنني لا أعرف ما هو بالضبط ما تطلب مني أن ألتزم به ؟ ولا أتصور أنه في مقدور أحد أن يلتزم خارج قناعاته ، ولقد كتبت ما كنت مقتنعاً به، وما اعتبرته جوهر التزامي ، ولكنك غضبت .

ثم أنني لا أظنك ترضى لي ـ وأنا بالقطع لا أرضى لنفسي ـ أن أخرج بقرار ثم أعود بقرار . . قد أخرج بقرار ولكني أظل صحفياً بالمعنى الذي أفهمه ، و لكني إذا عدت فلن أعود صحفياً بالمعنى الذي أفهمه » .

وأنا لا أريد أن أعود إلى الصحافة ظلاً باهتاً لما كنته ذات يوم .

ذات يوم كنت في «الأهرام»، وكنت أفكر، وأكتب، وأقرر، وأتحرك ـ دون أن ألتفت خلفي ..

وإذا رضيت بالعودة الآن فسوف أعود وفي وجداني رواسب ما حدث ..

سوف أجدني متردداً فيما أفكر وأكتب ، وسوف أجدني مهموماً بما وراء ظهري أتلفت إليه محاولاً تأمين نفسي مما عساه يصل إليك عما أقول أو أفعل، وذلك شئ لا أريده ، كما أني لست في حاجة إليه » .

كان التزام هيكل المطلوب من السادات، التزام بسياسة جديدة يصنعها على أساس هوية جديدة ..

دون موافقة على أسس هذه الهوية ..

دون إشراكه في صناعة هذه السياسة ..

والمطلوب منه أن يلتزم بترويجها والدعاية لها ، فـ « هيكـل في البروباجنـدا لا يعلى عليه » كما يقول السادات نفسه .. ومطلـوب منـه أيضـاً أن يـدافع عـن هـذه السياسة في مواجهة معارضيها ..

وكان السادات يقول له :

ـ يا محمد .. أنا مش مهتم بشتمتين ، مصر هـي الـلي بتتهـاجم ، مـش عـاوزك تدافع عني .. عاوزك تدافع عن مصر .

وكان هيكل الذي أدمن القرب من قمة السلطة، لا يريـد مـن ناحيـة أن يـذهب بعيداً على الطريق إلى لدد الخصومة، ولكن قراره الذي لم يتراجع عنه أن يبقى بعيداً بمقدار ..

قريباً بمقدار .

وكان التزام هيكل الذي يرضاه لنفسه هو « ألا يخدم سياسات تتعارض مـع مـا يؤمن به ..

ـ ٤ ـ

حتى النصف الثاني من أبريل سنة ١٩٧٥ ، كانت مكانة هيكل بقـرب السـادات محفوظة ـ كما يرى هيكل نفسه ـ كما أن ثقة السادات به كاملة على حد قوله ، وقد أثبت أمام المدعي الاشتراكي أثناء التحقيق معه بواسطته ، وبناء على أوامر مباشرة من الرئيس السادات أنه «ظل قريب من قائد النظام وموضعاً لثقته» ويواصل شرح تفصيل ذلك فيقول :

« في هذه الفترة ـ وحتى بعد خروجي من الأهرام ـ فقد كنـت الشـخص الـذي تشاور معه في أهم خطوة استراتيجية أقدم عليها سنة ١٩٧٥ ، وهي خطوة فتح قناة السويس بإدارة مصرية منفردة ، ثم عهد إليه بصياغة خطابـه الـذي أعلنهـا فيـه إلى مجلس الشعب في ذلك الوقت »، ويستطرد هيكل :

« ومما يدل على أنني كنت ما زالت قريباً ، وكنت ما زالـت موضـعاً للثقـة ، إن الرئيس السادات تفضل فدعاني إلى لقائه في استراحة القناطر مسـاء يـوم ١١ أبريـل

سنة ١٩٧٥، وهناك عرض عليّ منصب نائب رئيس الوزراء للإعلام في وزارة ممدوح سالم التي كان يجري تشكيلها في ذلك الوقت، وفي اليوم التالي وهو يوم ١٢ أبريل دعاني السيد ممدوح سالم إلى لقائه مساء في وزارة الداخلية وكرر العرض، وأبديت له خلال المناقشة دارت بيننا لقرابة ثلاث ساعات خمسة أسباب تدعوني إلى الاعتذار عن قبول عرضه الرقيق.

وفي اليوم التالي حاول السيد إسماعيل فهمي إقناعي في الصباح، كما حاول المهندس سيد مرعي إقناعي في المساء بحضور الدكتور مصطفى خليل ولكني تمسكت باعتذاري..

ووجدت مناسباً ولائقاً أن أذهب إلى الرئيس ظهر اليوم التالي ١٤ أبريل لأرجوه نهائياً إعفائي من قبول هذا المنصب لعدة أسباب، بينها تمسكي بمهنة أعتز بها، ولم أعرف لنفسي في حياتي مهنة غيرها. وكان الرئيس مبالغاً في كرمه، فقد تصور أنني لا أريد العمل في الوزارة فعرض عليّ أن أكون مديراً لمكتب رئيس الجمهورية بدرجة نائب رئيس الوزراء ومرة أخرى اعتذرت.

ومن محاولة الاحتواء، إلى محاولة القضاء عليه، والتشكيك في مصداقيته تحولت سياسة السادات تجاه هيكل..

أسباب التحول الكبير في العلاقة بينهما لها أكثر من تفسير..

فهي في نظر هيكل تتمثل في تطورات الظروف فيما بعد وكان قد نشر كتابه «الطريق إلى رمضان» في لندن في شهر مايو سنة ١٩٧٥، وكان ذلك مناسبة شنت عليه فيها حملة عنيفة في الصحافة المصرية.

وكانت الحملة تشير من طرف بعيد إلى أن هيكل زيف التاريخ.

كان ذلك ببساطة أن السادات رأى أن هيكل لم ينصفه في كتابه «الطريق إلى رمضان» فأشار بأصابع الاتهام إليه:

«أنت تزيف التاريخ».

ولما أستيأس السادات من هيكل، أطلق عليه عواصف الهجوم تنهشه من كل جانب، وانطلقت الحملة الأولى التي استهدفت هيكل توزع عليه ما تيسر من اتهامات...

ـ ٧ ـ

أن يكون شخص عام موضع اتهام من خصومه، فذلك شئ طبيعي بل قد يكون منطقياً أيضاً، وللخصومة ـ كأي شئ منطقها، ولكن مع شخص مثل محمد حسنين هيكل وفي مكانته، ومع خصوم مثل مصطفى أمين وموسى صبري كانت مباراة الخصومة فيها بلا قواعد، وبدون حكم، وفي كثير من الأحيان كان الحكم منحازاً، أو دافعاً وراء سيل التهم.

الذين استخدمهم السادات في قذف الحمم على هيكل كلهم كانوا في الظل، السادات نفسه كان في الظل في الوقت الذي كان هيكل في بؤرة الضوء، حيث تعمى الأبصار التي تحاول أن تنظر، مجرد أن تنظر إلى هناك إلى حيث هيكل.. يقبع بعيداً عن المنافسات والمشاحنات داخل عباءة الرئيس الواسعة والتي تضم داخلها كل الصنوف والأفكار..

ولائحة اتهامات الخصوم ضد محمد حسنين هيكل شملت كل ما يمكن أن يتهم به خصم أحد ألد أعدائه..

والتهم لا تنتهي عند «العمالة» وفقط، بل وتتنوع الجهات بطريقة غير منطقية بتنوع جهات الدنيا الأربع..

فتارة هو عميل لموسكو، وقت أن كانت موسكو إحدى عاصمتي القوتين الأعظم..

وتارة أخرى هو عميل لواشنطن، ويقبض من أجهزة مخابراتها مبالغ غير مبررة، أو سيق في تبريرها ما يثبت التهمة ولا ينفيها، على حد مزاعم الخصوم، وتقولاتهم، وشططهم في توزيع الاتهامات، إن لم يصب منها شئ، فقد تثير الزوابع حول الكاتب، وحول مواقفه وحول ما يكتب..

ولقد كانت الحملات الدورية ضد هيكل تثير الزوابع من كل جانب ، وعلى جميع الأصعدة ، وقد كانت تبدو جميع الحملات وكأن « مايسترو » يحركها من وراء ستار ، وكانت الأقلام التي تشارك في جوقة الهجوم على هيكل تعرف أنه لا يملك قدرة الرد عليها ..

وكان بعض هذه الحملات يدعي عليه بأنه على علاقة مع ليبيا ، وكانت ليبيا في ذلك الوقت هي العدو الذي لا تجوز معاملته ، أو الاقتراب منه بأي صورة من الصور ، ورغم أن الحقائق تؤكد بأن هيكل لم يضع قدمه منذ سنة ١٩٧٠ في ليبيا ، ولم يلتقِ بالعقيد القذافي منذ سنة ١٩٧٣ ، وعلي حد قوله :

ـ« ولا التقيت بأي مسئول ليبي غيره ، وكان ذلك تحسباً لحساسيات أعرف وجودها ، ولا أريد الدخول في تعقيداتها علي أي وجه من الوجوه » .

ورغم الحقائق ـ التي كان السادات يعرفها بدون شك ـ فإن الحملة التي تلصق بهيكل تهمة « العلاقة مع ليبيا » استمرت لفترات طويلة ، ولم يتطوع أحد لكي يوقف الحملة أو يكذبها أو حتى يوقف شططها .

ويحكي هيكل مؤكداً ما كان السادات يعلمه يقينياً فيقول :

ـ « عندما طفت بالوطن العربي كله لأعد لكتابي عن الوطن العربي قررت العودة من تونس إلي القاهرة عن طريق روما متجنباً المرور بليبيا ، وكان ذلك موضع ملاحظة علنية من العقيد القذافي ، بل إنه كان معروضاً عليّ أن ترسل لي طائرة خاصة لأذهب من تونس إلي ليبيا بعد أن تعللت في تجنب الذهاب إليها بأن تذكرتي في الطائرة تحملني عن طريق روما ، ومع ذلك كان إصراري كاملاً علي أن أتجنب ما لا داعي له من حساسيات أعرفها » .

ويضيف هيكل :

ـ« إنني فوق ذلك ، منذ سنة ١٩٧٥ امتنعت تماماً عن زيارة العراق وسوريا والجزائر بسبب خلافاتها مع الحكومة المصرية ، وامتنعت أيضاً عن أية اتصالات سياسية أو صحفية بشخصيات هذه الأقطار ، وكان هذا مفزعاً لي نفسياً ، فأنا أعتبر

نفسي قومياً عربياً مثلما أنا وطني مصري، لكني وضعت لنفسي حدوداً التزمتها مهما كانت متعنتة .

وكان بعض الحملات التي شنتها أجهزة إعلام الرئيس السادات يلصق بهيكل تهماً ما أنزل الله بها من سلطان، مثل أنه تسبب في فرض حراسات على الناس، وأنه قصد إذلال العائلات ، لأنه لم يكن إبناً لأحد العائلات الكبيرة، وكان رد هيكل على مثل هذه التهم الجزافية بسيطاً، ومقنعاً، ولا يزال :

قال هيكل :

« لست أعرف ما هو المقصود بهذا الكلام ، ولكني أعرف أنني الصوت الوحيد الذي ارتفع لنقد التجاوز في فرض الحراسات، أي أن موقفي العلني والمكتوب والفعلي، كان على العكس تماماً من كل ما أدعي به عليّ » .

والغريب أن تهمة الصحافي الأوحد تناقلتها الأقلام ، قلم ، عن قلم ، دون أن يبحث أحد عن الراوية الأصلي لمثل هذا الكلام ، حتى أن كثيرين من المحسوبين على تيار الاستنارة في الصحافة ومهنة الكتابة الصحفية تأثروا بالحملة التي بدت مخططة ونفذت بدأب لا مثيل له وكما لم يستهدف أحد في تاريخ الصحافة .

وإن كانت الحملة المضادة لهيكل قد سارت في بعض الأحيان بموازاة للحملة على نظام وحكم وشخص جمال عبد الناصر ، إلا إننا ـ ولا هيكل نفسه ـ يتجاسر أو نتجاسر على تشبيه الحملتين أو المقارنة بينهما .

فبينما كانت الحملة ضد هيكل تستهدف مصداقيته حتى تفوت عليه أمام الرأي العام فرصة التأثير فيه، إذا ما جرؤ على الحديث، ووضع ما تحت يده من أسرار ووثائق ـ وكان يملك منها الكثير والكثير ـ تحت نظر القراء والرأي العام نفسه ..

بينما كانت الحملة ضد هيكل تستهدف ذلك ، فإن الحملة ضد عبد الناصر كانت تستهدف في الأساس حلم أمة حاولت أن تنعتق، ولم يكن يراد لها أن تحلم بهذا الانعتاق في يوم من الأيام ، ولا هو يراد لها ذلك في مستقبل الأيام .

ومن هؤلاء الذين تأثروا بالحملة ضد الرجلين معاً، الكاتب الصحفي صلاح

حافظ الذي ذكر في أحد الحوارات الصحفية معه أنه يعتقد أن رفض جمال عبد الناصر للإدلاء بأحاديث للصحف المصرية كان يعكس على الأقل التقليل من شأن الصحافة، وبمنطق : لماذا أتكلم مع صحافة أملكها ، ثم أتحدث مع من ؟ إن أي صحفي هو موظف عندي فلماذا أوثره بحديث صحفي، وأجلس معه الساعات الطويلة، ليخرج بحديث صحفي يصبح بعده اسماً لامعاً ..

ومن الهجوم على عبد الناصر، وموقفه من الصحافة، ونظرته إليها، ينتقل صلاح حافظ إلى اتهام هيكل بالمسئولية عن ذلك فيقول :

وقد يكون من أسباب عزوف عبد الناصر عن الإدلاء بأحاديث للصحافة المصرية ، ولا أريد أن يكون ذلك اتهاماً ، هو إصرار هيكل على أن يكون الصحفي الأوحد الذي ينفرد بالحديث مع جمال عبد الناصر ويناقشه (!).

فلو أن عبد الناصر تحدث ـ مثلاً ـ مع زيد من الصحفيين لكان هذا إعلاناً بأن «زيد » لا يقل أهمية عند عبد الناصر من « السيد هيكل » .

ويستطرد صلاح حافظ :

ولا ننسى أن هيكل كان رصيده الأساسي أنه المحاور اليومي لعبد الناصر ، وأن مقاله الأسبوعي « بصراحة » إنما هو أفكار عبد الناصر ، أو هكذا اعتقد الناس ، وينتقل صلاح حافظ إلى تحديد أكثر للاتهام الموجه إلى هيكل فيقول :

« أعتقد أن هيكل قد لعب دوراً في أن يجعل عبد الناصر لا يتحدث إلى الصحافة المحلية » .

ولكنه يستدرك في اللحظة نفسها قائلاً :

ـ « وإن كنت غير واثق ـ بالطبع ـ من هذا الاتهام .

وكان بعض الحملات ضد الأستاذ هيكل يثير الضحك الذي هو كالبكاء ، ومن ذلك مثلاً أن البعض نقل عن مقال له أنه قال لدبلوماسي سوفيتي أثناء حوار بينهما ما نصه « إن قوة عظمى في مثل موقفكم لا تملك ولا يليق بها أن تقف موقف المتفرج العاجز في منطقة على هذه الدرجة من الأهمية والحساسية » ..

ـ وأخيراً ـ

والقصة بعد ذلك معروفة التفاصيل، ويمكن الرجوع إليها في أكثر من كتاب، بعضها ليهكل نفسه، الذي حكى بعض فصول العلاقة بينه وبين السادات في حياته، وقص علينا البعض الآخر بعد اغتياله، كما يمكن الرجوع إليها في غير ما كتب هيكل من كتب ودراسات تناولت تلك العلاقة بين الرجلين، أو تناولت أحد أطرافها بالدرس والتمحيص والتأريخ..

ونهاية القصة معروفة كذلك، وكانت قد تباعدت بهما الطرق، وافترقت السبل، ثم انسدت لتلقي بمحمد حسنين هيكل سجيناً في «طره»، وبمحمد أنور السادات قتيلاً فوق «المنصة»..



الرئيس والأستاذ

دراما العلاقة
بين الكاتب والسلطان

شهادات

◆◆◆



هذه الشهادات:

قلت في مقدمات هذا الكتاب إنني كان لي شرف التعرف من قرب ببعض الذين حكموا مصر تحت أعلام جمال عبد الناصر، وشاء حظي أن أتحاور مع كثيرين منهم بعمق، وافقتهم وخالفتهم الرأي كثيراً، اختلفت معهم في بعض ما يقولون، وفي كثير مما فعلوه، وكانوا كرماء معي ، فلم يفسد اختلافي معهم الود الذي بادلوني إياه ، وبقي الحب لهم صافياً عن معرفة قريبة بهم، وبقي احترامي فوق ذلك وقبله وبعده..

كان من بين هؤلاء الراحل شعراوي جمعة نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية الأسبق، وشاء حظي، الذي أشرف به، أن أكون أول من يزيح اللثام عن شهادته للتاريخ ونشرتها في العديد من الصحف العربية.

وكان ضمن هؤلاء محمد فائق وزير الإعلام ورجل عبد الناصر في أفريقيا، الوزير الذي كان عبد الناصر يقول إنه رفض أن يصبح وزيراً، وقد حاورته في مكتبه بدار المستقبل العربي أو في مقر المنظمة العربية لحقوق الإنسان أو في بيته بمصر الجديدة، في كثير من قضايا الحاضر والماضي، واستفدت كثيراً من تقييمه لما جرى في أحداث مايو سنة ١٩٧١.

وكان من بينهم ضياء الدين داود المدني الذي صعد عبر التنظيم السياسي إلى أعلى سلطة في الدولة، والوزير السابق وعضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي منذ ١٩٦٨ وحتى مايو سنة ١٩٧١، وكنت أقول عليه أنه أفضل من ترأس مجلس إدارة صحيفة حزبية، فقد كان رحمه الله واسع الصدر، للمختلفين معه، قبل المتفقين، وقدم نموذجاً محترماً إبان قيادته لدفة جريدة العربي التي تصدر باسم الحزب الذي يترأسه، وكانت لي معه حوارات لم تنقطع منذ عرفته في بداة التسعينيات من القرن الماضي وحتى قبيل رحيله مؤخراً..

وكان من بين من اقتربت منهم كثيراً من رجال عبد الناصر سامي شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية في عهدي جمال عبد الناصر وأنور السادات، وكانت لي

معه حوارات مسجلة على أكثر من ست أشرطة تسجيل، كان يتكرم هو بنفسه بالكتابة على كل منها رقم هذا الجزء من الحوار، وتاريخه، الموعد الذي أجريت فيه والمكان أيضاً.

وكان من بين من أحببت من هؤلاء فريد عبد الكريم أحد أهم قيادات الإتحاد الاشتراكي العربي، التنظيم السياسي لجمال عبد الناصر، وقد تتلمذت على يديه وفي مكتبه إبان عملي بالمحاماة أوائل الثمانينات وقبل تفرغي لمهنة الصحافة والكتابة .

وكان من بينهم أيضاً كُتاب وصحفيون كباراً، شاركوا كل حسب جهده ودوره في صياغة أفكارنا، ونحن ما نزال نحبو في بلاط صاحبة الجلالة:

منهم أستاذي وصديقي الكبير محمد عودة الذي كان نعم المعلم والمربى، قبل أن يمنحنا شرف صداقته وأبوته الصادقة ..

ومنهم الأستاذ كامل زهيري الذي فتح لي عقله وقلبه، ودامت بيننا حوارات لا تنقطع في كل شيء، في السياسة، وفي الصحافة؟ وفي الأدب، وفي الفن، وكان له في كل ذلك أراء ونظريات وعبارات لا تنسى..

ومحمود السعدني، وحسين فهمي، ونجاح عمر، ومحمود المراغي، ويوسف الشريف، وعبد العظيم مناف، وحسنين كروم، وحسين عبد الرازق، وصلاح عيسى الذي كان يراني منكباً على نسخ الجرائد والمجلات في دار الكتب المصرية، أبحث في موضوعي وأنقب، ويتمنى لي التوفيق، وغير هؤلاء كثيرون من أصحاب الفضل عليّ، لا يتسع المجال هنا لذكرهم، وإن كان يتسع بالطبع للاعتراف بفضل كل واحد منهم.

وكانوا جميعاً ضمن دائرة المشاركة في كثير من الأحداث التي حاولت أن تقدم صياغة مختلفة، كل من موقعه، ومن قناعاته للعلاقة بين الصحافة من ناحية، والسياسة من ناحية أخرى، أو بين الكاتب والسلطان.

وهنا ثبت لشهادات بعضهم حول موضوع كتاب هذا..

محمد فائق

وزير الإعلام الأسبق:

هيكل يعرف أشياء كثيرة جداً...
ولكن هناك آخرين يعرفون ما لا يعرفه...
لم يعتذر هيكل عن موقفه في مايو ١٩٧١ حفاظاً على مصداقيته..
مراكز القوى تعني تشكيل مواقع خارجة عن شرعية الدولة..
هيكل أفضل كاتب سياسي ظهر في مصر وتعليمات «الريس» لنا أن يوضع في الصورة..

-١-

ليس من المقبول الآن التجريح في مصداقية هيكل.

هيكل يقوم بدور عظيم جداً في توثيق فترة عبد الناصر حالياً..

نعم اختلفنا مع هيكل ولكن سقطت الخلافات الآن وليس من المصلحة التشكيك في هيكل حالياً وهو يخوض في تأريخ الثورة.

-٢-

السادات لعب على هيكل لعبة توسيع هوة الخلافات بينه وبين بعض المسئولين قبل ١٥ مايو لكي يضمنه إلى جانبه، ولم يكن هيكل يأمن جانب المجموعة.

-٣-

الأمن كان عند عبد الناصر فكرة مسيطرة جداً، ولذلك كان محمد فوزي وسامي شرف وشعراوي جمعة قريبين جداً منه..

-٤-

شعراوي رجل يوثق فيه جداً، وكان يرى أن هيكل قريب منه، وأن أفكاره سوف تتناقض مع أفكار السادات، أو على الأقل لم يكن يتصور، ولا أحد منا أيضاً كان يتصور أن يتحالف محمد حسنين هيكل مع أنور السادات..

-٥-

هيكل كان محمياً من عبد الناصر شخصياً، ومن آخرين، كنت أنا من بينهم، وكنت أفصل علاقتي بعلي صبري عن علاقتي بهيكل، حتى لو كان هيكل نفسه حساس من علاقتي بعلي صبري، إلا أنني من ناحيتي كنت أحترم هيكل، وأقدر له وطنيته، واختلفت معه في آرائه، لكن مع تقدير وطنيته.

-٦-

في أواخر عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وبسبب تفرغه للمعركة مع الكيان الصهيوني ، وإعادة بناء القوات المسلحة، وانشغاله بكل ما يخص المعركة من شؤون على الساحة العربية والدولية، كان هناك أكثر من مجموعة عمل، تقوم على متابعة الشأن الداخلي، كان هناك مجموعة عمل برئاسة أنور السادات، عندما كان نائباً لرئيس الجمهورية، وكان فيها علي صبري، وشعراوي جمعة، وسامي شرف، وكنت أنا فيها، وكان هناك مجموعة عمل أخرى «حقيقية» برئاسة علي صبري، كان فيها شعراوي جمعة، ومحمد فوزي، وأنا، وكان ينضم لها في بعض الأحيان محمد حسنين هيكل.

-٧-

سامي شرف كان عنده معلومات كثيرة، وسر كراهيته لهيكل، أن هيكل استولى على أرشيف رئاسة الجمهورية بعد ١٥ مايو سنة ١٩٧١، وأرسل كثيراً من الأوراق التي أعدها سامي شرف، ورتبها، ونظمها إلى الخارج، وهي في حوزته الآن، والسادات كان نفسه سامي ينحاز له، يمكن لهذا السبب: أن معلوماته كثيرة.

-٨-

شعراوي كان من أقرب الناس لعبد الناصر، وكان يثق فيه جداً، وهو راجل Honest جداً، وأنا كنت من أقرب الناس إلى عبد الناصر، حتى هيكل كان دائماً يقول أن نجاحي في أفريقيا هو الذي دفع بي إلى مقعد الوزارة، وأنا رفضت الوزارة بالذات، لأن الإعلام بعيد عني، ولكن نجاحي في أفريقيا كان السبب وراء توزيري،

وكان عبد الناصر يقول دائماً إن عنده وزير رفض أن يكون وزيراً.

-٩-

أنا أول من عمل جسور بين الناصريين وبين هيكل، وأنا رأيته في السجن، وتكلمت معه، وحكيت له بعض الأشياء، وأذكر أنه وافق معي على خطأ موقفه في ١٥ مايو سنة ١٩٧١، ولكنه تراجع بعد ذلك، ولكن جرت تصفية الموقف معه، وكان هو لديه حساسيات استطعت أن أذيبها، حتى أن علي صبري اتصل به مرة ـ رغم الموقف بينهما ـ وهنأه على مقال كان قد كتبه، وعلاقتي دائماً مع هيكل، كانت جيدة رغم حساسياته.

-١٠-

لم يعتذر عن موقفه في مايو سنة ١٩٧١ لأنه كصحافي سوف يفقد مصداقيته إذا هو اعتذر.

-١١-

هيكل أفضل كاتب سياسي ظهر في مصر حتى الآن، وكانت تعليمات « الريس » أن يوضع هيكل في الصورة بشكل دائم.

-١٢-

أحمد بهاء الدين كان يكتب متفقاً مع سياسة الدولة بدون أية معلومات أو تعليمات.

-١٣-

هيكل أبلغني بقرار تعييني وزيراً، وأنا أبلغته بقرار تعيينه وزيراً، وعلاقتي بهيكل كانت مثالية، كنت أقدر نجاحه وكان يقدر تجربتي، وكانت العلاقة بيننا أساسها الإقدام والإعجاب المتبادل، ورغم هذه العلاقة أؤكد أنني كنت حريصاً في الوقت نفسه ألا تحجب أية معلومات عن الجرائد والصحافيين الآخرين.

-١٤-

كنت أول وزير يعين متحدثاً رسمياً باسم الدولة، وكنت أعقد مؤتمراً صحافياً

كل يوم ثلاثاء، حتى يسبق يوم الجمعة الميعاد التقليدي لمقالة هيكل، وكنت أحضر محمد حسن الزيات أو عصمت عبد المجيد من الخارجية، وكنت على اتصال دائم « بالريس »، وكانت فكرتي أن تكون الإذاعة سباقة في إذاعة الأخبار التي تتصل بسياسة الدولة، وقد ألمح هيكل إلى اختياري لميعاد الثلاثاء السابق على ميعاد مقاله التقليدي كل يوم جمعة وقال لي: «برافو»، كنت حريصاً على أن تكون الإذاعة هي مصدر الخبر الأول وليست الصحافة وهذه طبيعة الأمور.

ـ١٥ـ

كان غرضي دائماً أن تتحدث الدولة لغة واحدة، ولا شك أن المؤتمر الأسبوعي كل يوم ثلاثاء صعب من مهمة هيكل، ولكن والحق يقال « كان قدها وقدود »، وكان هناك قدر من التنافس الصحي، واحترام متبادل وأخيراً احترام للقواعد.

ـ١٦ـ

هناك مبالغات ومغالطات حول موضوع مراكز القوى، واستخدم اللفظ في غير موضعه كثيراً، وأرى أن مركز القوة يعني ببساطة تشكيل موقع خارج عن شرعية الدولة، مثال عبد الحكيم عامر، عندما اعتكف في بيته، عقب هزيمة سنة ١٩٦٧ ، وتجمع حوله عدد كبير من ضباط الجيش، وبعض رجال الدولة، أو عندما فعل شيئاً مشابهاً في عام ١٩٦١ ، بعد الانفصال وذهب إلى قريته «أسطال»، وتجمع هناك بعض من قادة القوات المسلحة، وكان ذلك انقلاباً جزئياً أصبح له نتائج واضحة فيما حدث بعد ذلك.

ـ١٧ـ

عندما عرض عليَّ زكريا محي الدين العمل في المخابرات قلت له مباشرة :

-« لأ.. أنا لا أهتم بالأمن، ولا علاقة لي بالموضوع الأمني، بأي صورة من الصور.

ولكنه قال لي :

-« المخابرات ليست مهمتها الوحيدة هي الآمن، المخابرات في حالتنا هي الجهاز السياسي لعبد الناصر».

-١٨-

لم يكن عبد الناصر ينوي تعيين البغدادي نائباً للرئيس، وكل ما قيل حول هذا الكلام غير صحيح، وأقول ذلك وأنا أعرف أن العلاقات بينهما كانت قد عادت إلى طبيعتها في أواخر أيام عبد الناصر، وكان عبد الناصر حريصاً على اطلاع البغدادي على ما يحدث، وطلب من مراد غالب أن يجهز له زيارة إلى الاتحاد السوفيتي.

-١٩-

هيكل يعرف أشياء كثيرة جداً، ولكن هناك آخرين يعرفون أيضاً ما لا يعرفه، وعلي صبري قال مرة: إن هيكل يتصور أنه يعرف كل حاجة، وهذا غير حقيقي، وإن كثيرين يعرفون أشياء، هو لا يعرفها، ولم يطلع عليها، كل واحد في مجاله كان يعلم أكثر من غيره، وهذا هو أسلوب عبد الناصر.

-٢٠-

لم يكن هيكل هو الوحيد الذي تذاع له مقالات، لعله أشهرهم، وأهمهم، ولا يمكن أن تغفل مسألة أن مقال بصراحة كان يعبر إلى حد بعيد عن فكر عبد الناصر، وعن توجهات الدولة، وكان هذا المقال مقروءاً في كل ربوع الوطن العربي، فكان قراري كوزير للإعلام بإذاعة المقال في محاولة لجذب مستمعين أكثر للإذاعة المصرية في الوطن العربي.

-٢١-

إذاعة مقال هيكل لم تحدث بناء على طلبه أو تعليمات من عبد الناصر، أريد أن أؤكد ـ بصدق ـ أن الذي صنع هيكل هو كفاءة هيكل.

-٢٢-

كان هيكل كثير النقد لعمل وزارة الإعلام أمام الرئيس فالريس قال :

« طيب هاتوه بقى يمسك الإعلام يورينا هيعمل إيه ؟

وكنت وزيراً للإعلام في هذه الفترة، وأشهد أنه لم يكن مرتاحاً للقرار، كان منحازاً أكثر إلى كونه كاتب منذ البداية، كانت صفته التي يعتز بها هي صفته ككاتب، وكان يحرص على تلك المسافة الموجودة بين الكاتب والحكم وكان يرى - وهو صحيح - أن توزيره يعني دفاعه بحكم المسئولية التضامنية عن سياسات الدولة.

-٢٣-

علاقة هيكل بعلي صبري علاقة كراهية، ولكن كان يحترمه جداً..

-٢٤-

هيكل لم يكنSpokesman أبداً بالنسبة لعبد الناصر إلا في الفترة التي تولى فيها وزارة الإعلام، وهي فترة قصيرة جداً، لكنه لم يكن بأي صورة من الصور في موقع الـ Spokesman وهو لم يذكر ذلك، هي ضده إذا قالها.



كامل زهيري
نقيب الصحافيين الأسبق:

علاقة هيكل وعبد الناصر

لا تسمح بأن تنمو علاقة أقل مع شخص مثل السادات ...

كيسنجر لعب دوراً محورياً في إبعاد هيكل عن السادات لينفرد به وحيداً...

هيكل تخلى عن حذره في الحديث عن علاقته بالسادات على عكس ما كان يحدث مع عبد الناصر...

-١-

أنا شخصيًا أعتبر عبد الناصر من مشاهير القراء ، عندما كنت رئيساً لتحرير الهلال ومسئولا عن قسم النشر فوجئت بأحمد بهاء الدين يبلغني بأن جمال عبد الناصر قال لسامي شرف أبلغ كامل زهيري بألا يلخبط ترجمة روايات أجاثا كريستي وهنا أصابتني الدهشة هل الرئيس عبد الناصر لديه وقت لقراءة الروايات البوليسية لدرجة أنه يقرأ النص الأصلي باللغة الإنجليزية، وكذلك النص المترجم، وعندما سألت عرفت أنه حتى عندما يتسلى يقرأ هذه الروايات، ليتعلم منها القدرة على المواجهة، وهي بالفعل تمثل نوعاً من التدريب العقلي، ولكي تفهم عبد الناصر أكثر أنصح بقراءة كتاب «ناصر وصحبه» لجورج فوشيه، فقد ذهب هذا الرجل إلى الكلية الحربية وبحث كشوف الاستعارة في سنوات الدراسة لجمال عبد الناصر، وأثبت أنه لا يوجد كتاب عسكري لم يستعره عبد الناصر، وفي مكتبة الرئيس عبد الناصر وجدت كل الكتب القديمة التي تؤكد رغبة عبد الناصر الشديدة في التعرف على أحوال مصر، فهناك كتاب محمود أبو الفتح عن الوفد المصري، وكتاب أحمد حسين عن تاريخ مصر، وعودة الروح لتوفيق الحكيم، وكتب أخري عن الإخوان، والأزهر، وعن الحروب والثورات في مختلف بلدان العالم.

-٢-

هيكل صحافي متميز، ونشيط، وموهوب، استطاع أن يقترب من عبد الناصر، وهكذا امتدت العلاقة، وأذكر لك رواية ذكرها لي المرحوم حسين فهمي عندما كان رئيسا لتحرير الجمهورية وهذه الواقعة حدثت في أثناء مؤتمر باندونج فقد لاحظ حسين فهمي أن هيكل دخل على عبد الناصر وظل طويلاً ولم يخرج وكان حسين فهمي يظن أن هيكل حصل من الرئيس على انفراد صحافي سوف تحرم منه الجمهورية فتطفل ودخل على الرئيس وقال له سيادة الرئيس أود أن أكتب رسالة وأتمني أن يحظى قراء الجمهورية ببعض المعلومات فرد عليه الرئيس بامتعاض أنا قاعد مع هيكل لآخذ منه الأخبار ، وليس لأعطية المعلومات.

-٣-

هيكل كان متواضعا جداً، ولم يكن يظهر بأي شكل علني درجة أهميته وقربه من جمال عبد الناصر، حتى الكلام الذي يكتبه الآن ، عن علاقته بعبد الناصر لم يحدث ولا مرة واحدة أن ذكره في حياة عبد الناصر..

أذكر أنني شاهدته نازلاً من طائرة الرئيس، وكان آخر النازلين بعد الرّئيس والوزراء والمرافقين، كان يتقن التواجد في منطقة التي يطلق عليها الفرنسيون «الأهمية الرمادية »، وأظن أنه علّم أسامة الباز الحرص على التواجد في هذه المنطقة، وقد أتقنها الباز بدوره.

-٤-

مجموعة مايو اغتروا بما في أيديهم من قوة، واعتمدوا على تنظيم سياسي ضعيف، أو كانوا هم قد أضعفوا فاعليته، وتأثيره، وقدرته على المبادرة والحركة.

وبالغوا في قدراتهم، وتصوروا أن الاستقالة سوف تقيم الدنيا ولا تقعدها، وأثبتت الحوادث أن تكتيكهم كان خاطئاً، حتى في اختيارهم لأنور السادات، أو انحيازهم إلى صف أن يكون هو خليفة لعبد الناصر، جرى إيهامهم بأن المرشح الآخر سيكون زكريا محي الدين، وكانت ورقة زكريا فاصلة في إسراعهم إلى

الاستقرار على السادات، وهيكل كان يحس من ناحيته بعداء التيار الآخر لـه، كـان يعرف أنهم « Block Him » أو يحاولون التصدي له.

-٥-

في فبراير سنة ١٩٧١ جاء لي أحدهم ليخبرني :

- صاحبك يتصل بالأمريكان ..

لم أكن مفاجئاً بشكل كامل، ولكن أذكر أنني قلت للجماعة :

- احذروا هذا الرجل، وكنت أقول لهم دائماً إنه يملك عقلية إرهـابي، يتنـاول معك طعام الغداء، ويترك حقيبة القنابل إلى جوار مائدة الطعام، ويمضـي إلى حـال سبيله، ويتركك تواجـه مصيرك، وحـدك، كـانوا لا يقـدرون العقليـة المزدوجـة للإرهابي الذي يقبع داخله، وظلوا يستهينون به حتى النهاية.

-٦-

أحمد بهاء الدين كان خجـولاً، يكـتم في نفسـه.. وأكثـر اتزانـاً، كـان كيمـائي في الكلام.. وكانت ميزة أحمد بهاء أنه يستطيع تلخـيص الموقـف في كلمتـين، الدولـة العصرية، الفجوة الحضارية بيننا وبين إسرائيل..

مشكلة بهاء وميزته أنه ظل حساساً تجاه استقلاليته، ومعتز بنفسه، يقـول لـك : أنا مضطر أنشر صور جيهان السادات، لكني لست مضـطراً بالنسـبة لزوجـة عبـد العزيز حجازي..

وكان بهاء يؤيد عن اقتناع، وليس عن أوامر، وأعتقد أن الهزيمة في سنة ١٩٦٧ هـزت بهاء جداً، وتركت داخله مرارة شديدة ـ أنا مـثلاً ازددت تأييـداً لعبـد النـاصـر بعـد النكسة ـ كنت أخشى من نتائج المؤامرة الإسرائيلية الأمريكية، ولكن بهاء كان قد ابتلع مرارة قاسية بعد يونية سنة ١٩٦٧ .

-٧-

هناك أكثر من احتمال لأسباب نهاية العلاقة بين هيكل والسادات:

هل أراد السادات أن ينسب الفضل إليه فيما يحدث..

ألا يشاركه أحد في أي إنجاز ..

هل بسبب تخلي هيكل عن الحديث بحذر عن علاقته بالرئاسة وبالسادات كما كان يفعل مع عبد الناصر، وبدأ يتحدث عن أنه قال للسادات كذا وسمع منه كيت؟

ربما ..

-٨-

أذكر أن هيكل بصدد تفسير موقفه في ١٥ مايو أمامي قال لي بالحرف الواحد :

- كانوا ناويين يعملوا انقلاب يوم الأربعاء (مثلاً) السادات سبقهم وعمله يوم (الاثنين).

-٩-

من ناحيتي كنت أثق في علي صبري، وأحس أنه مثقف، مش مجرد ضابط، رجل في مكتبه بقصر القبة تجد لوحات فنية جميلة، وأظن أن هيكل كان يجاملني كنقيب للصحافيين، وحين أطلب منه ٥ آلاف جنيه نسبة الأهرام فيرسل ١٠ آلاف جنيه ، وأتصور أنه كان يخشى أن أنضم إلى علي صبري في مواجهته، وكنت أحرص على استقلالية النقابة، وأقول لزملائي أعضاء مجلس النقابة، عندما يطلب البعض أن نأخذ موقفاً مساندًا سواء لعلي صبري أو لهيكل :

إن أمثال هؤلاء عبارة عن « لوريات كبيرة » تسعى في الأرض، أما نحن فمجرد «موتوسيكلات»..

-١٠-

إن لم يكن هيكل أفاد الصحافة كمهنة فهو على الأقل أفاد «الأهرام»، وهي في عهده أصبحت أهم جريدة عربية على الإطلاق، وكانت لها سمعة دولية، وليست عربية أو محلية فقط.

أعطى للأهرام طويلاً وكثيراً، أعطاها من وقته وجهده وعرقه وفكره، بل أعطاها من أهميته، وأسبغ حماية على العاملين بالمؤسسة إلى الدرجة أنني كنت

أداعب «الأهراميين» كما كنا نسميهم بالقول : أنتم لستم « شركة شل » التي كانت تعطي خيرات لعمالها حتى يتميزوا على العمال الآخرين في الشركات الأخرى فلا ينضموا إلى الحركة النقابية العمالية.

-١١-

محمد حسنين هيكل صحافي بالمعنى الكامل للكلمة، يجلس يومياً ليلخص جلساته، ويكتبها، ويسجلها، ويأرشفها، وهو يقدم نموذجاً للصحافي بمعناه الكامل.

كنا نذهب إليه مع أحمد بهاء الدين، والآخرون يظنون أن حديثنا جرى بالصحافة، حول السياسة والحقيقة أن حديثنا كان ينصب بالأساس حول الصحافة، وكان هيكل يتحدث عن الجديد في المطابع، عن ماكينة للصور، عن الفاكس الذي أحضره.. وهكذا..

-١٢-

أنور السادات أراد أن يستغل محمد حسنين هيكل، لذلك سرعان ما اصطدموا، واختلفوا، ثم افترقوا، وأكرر أن هنري كيسنجر لعب دورًا في إبعاد هيكل عن السادات، لأنه يريده بمفرده، كي يؤثر فيه أكثر، ويلعب على نقاط ضعفه بطريقة مفتوحة، وبدون عوائق..

-١٣-

التقيت أنور السادات لأمرٍ يخص «الأخبار» التي كان مشرفاً عليها، والنقابة التي كنت أنا نقيبها، ووسط حديث طويل، تناولنا فيه الكثير من الموضوعات الداخلية قال لي السادات :

« البلد لازم تطهر من أول زكريا محي الدين لغاية البواب..

كان جمال عبد الناصر وقتها يمر بأول أزمة قلبية، والسادات كان قد أصبح نائباً للرئيس، وبدا لي، أو لنقل أنه تبين لي فيما بعد، أنه كان يرتب لوراثة عبد الناصر، كان يريد أن يعرف من معه، ومن ضده؟، وقد أوحى لي أثناء هذا الحديث، عن

إمكانية مساعدته لي في تمرير، وإقرار قانون النقابة، القانون الذي كنت أسعى إلى إقراره وقتها من مجلس الأمة، وكان منطق السادات يوحي بمعنى يتقنه جيداً، بمنطق :

«خليك معي وأنا أمشي لك هذا الموضوع».

وفي الحديث نفسه، أذكره وهو يتحدث عن وقائع تطهير القضاء التي جرت في هذه الآونة بتحريض منه، ويقول :

« لا يا كامل.. ده فيه قضاة خرجوا من عندهم،(يقصد من مبنى نادي القضاة المجاور لمبنى نقابة الصحفيين)، و«خوَّضوا» عندك، وطلعوا من على السور، ليتدخلوا في انتخابات نقابة المحامين، هو ده معقول؟ ..

كان لوقع كلمة « خوَّضوا»، أثر هام في توضيح الكيفية التي يفكر بها السادات، والطريقة التي يتعامل بها مع الأمور، وشعرت ب «عقليته الزراعية»، ولاحظت أنه ينظر إلى نقابة الصحافيين باعتبارها الزمام الخاص بي، ولذلك ستجده يتعامل مع مصر باعتبارها الزمام الخاص به عندما أصبح هو كبير العائلة المصرية.!

-١٤-

أذكر إنني دعيت بصفتي نقيباً للصحافيين إبان الأزمة الأخيرة بين أنورالسادات والنقابة، بصحبة عدد من كبار الصحافيين بينهم مكرم محمد أحمد، وموسى صبري، وصلاح جلال، وصبري أبو المجد، وجلال عيسى، إلى لقاء مع منصور حسن وزير الإعلام في ذلك الوقت، وكان متفهماً لدور النقابة، ولأهمية حرية الصحافة.

وكنت دائماً ما أقول له إن النقابة مثل «الستات» صوتهم عالي، ولكن «اللي ييجي عليهم ما يكسبش»، وما من أحدٍ جار على حرية الصحافة،وإلا كانت نهايته غير طبيعية.

وكان أن أقحم موضوع هجوم الصحافيين بالخارج على النظام وخاصة على جيهان السادات أثناء الحوار، والله العظيم وقف موسى صبري فوق الكرسي،

والموجودين ستة أو سبعة أشخاص فقط، وأخذ يتحدث، ويبكي على شتيمة جيهان، وكان مطلوباً أن أفصل هؤلاء الصحافيين المتهمين بالتطاول على السادات والسيدة حرمه، وقيل لي: افصل فقط محمود السعدني، وكان رأيي أنها لن تكون إلا مجرد بداية..

وأنقذ الموقف أن منصور حسن اعتبر أنها قضية غير مطروحة للمناقشة.

-١٥-

إحسان عبد القدوس كان يمكن أن يلعب مع أنور السادات الدور الذي كان يلعبه محمد حسنين هيكل مع جمال عبد الناصر، وكان يصلح لذلك، ومؤهلاً له، ولكن للحق أقول إن إحسان كان عنده « ذمة » في السياسة، وهي شيء لا يحبه السادات، ولا يستريح إليه..

-١٦-

لم تكن طبيعة العلاقة التي نشأت بين هيكل وعبد الناصر لتسمح بأن تنمو علاقة أقل مع شخص مثل السادات،هو لم ينافق عبد الناصر.. فكيف ينافق السادات.



حسين عبد الرازق
رئيس تحرير جريدة «الأهالي» الأسبق:
تمنى اليسار : أن يكون بهاء هو المقرب إلى عبد الناصر وليس هيكل..
السادات كان يشعر بالدونية تجاه هيكل، الذي كان يعامله في فترة عبد الناصر معاملة «درجة ثالثة»..
سر يذاع لأول مرة:
هيكل قابل مبارك عقب اغتيال السادات وعاد إلى السجن مرة أخرى..

-١-

كانت صورة محمد حسنين هيكل في فترة حكم الرئيس جمال عبد الناصر لدى اليسار لها أربعة أبعاد:

أولها : أنه معادي للاشتراكية ..

وثانيها : أنه معادي للعلاقات المصرية السوفيتية..

وثالثها : أن علاقته بعبد الناصر لها مردود سلبي على القوى الوطنية...

ورابعها : أنه موالي للأمريكان.

فقد كانت علاقاته مع الإدارة الأمريكية قوية باستمرار، وكان كثير الحديث عن تعديل العلاقة مع الأمريكان، و كان في صف تقوية هذه العلاقات،حتى أن البعض تساءل عندما تم القبض على مصطفى أمين:

ولماذا تركتم هيكل ؟

-٢-

كان التيار الواسع من اليسار في ذلك الوقت، يتمنى أن يكون الكاتب الصحافي الكبير أحمد بهاء الدين هو الأقرب إلى جمال عبد الناصر، وليس هيكل.

وفي ظل عبد الناصر كان يثار داخل صفوف الاتحاد الاشتراكي سؤال حول السبب وراء إذاعة مقالة هيكل وحده، ولماذا لا تذاع مقالات بهاء، أظن أن عدم اقتراب أحمد بهاء الدين من جمال عبد الناصر يقف وراءه ومسؤول عنه الأستاذ

هيكل نفسه.

هل يتصور أحد أن أحمد بهاء الدين لم يقابل جمال عبد الناصر، ولا مرة واحدة في حياته.

وكانت الأنباء التي تصل إلينا أن عبد الناصر دائماً يسأل:

« احنا مش عارفين هو بهاء معانا ولا مش معانا»..

وهيكل عكس بهاء، كان مقتحماً، يحب الاقتراب من السلطة ويريد ذلك.

بهاء لم يكن كذلك.. ولم يسع إلى ذلك نهائياً...

-٣-

تغيرت نظرة اليسار إلى حسنين هيكل مع مقالاته الأخيرة قبل إقصائه عن رئاسة تحرير الأهرام...

كان هناك هيكل آخر.. هيكل جديد بدأت قوى اليسار تنظر إليه كرجل في الصف الوطني..

-٤-

لا شك عندي أن عبد الناصر استخدم هيكل وأثر فيه أيضاً، وهيكل كان له تأثير في عبد الناصر كذلك.

-٥-

أراد هيكل أن يستخدم أنور السادات، ولكن السادات لم يكن سهلاً ، وكان يشعر بالدونية تجاه هيكل، ولم يقصر هيكل في ترسيخ هذا الشعور داخله خلال فترة عبد الناصر، وحسب شاهد عيان فقد كان يعامله معاملة « درجة ثالثة».

وهناك قصة تروى في هذا الشأن خلاصتها أن الصحافي محمود أحمد وكان محرراً برلمانياً في «الأهرام» (وأصبح فيما بعد محرراً في وكالة أنباء الشرق الأوسط)، وحدث أن كتب ما لم يعجب السادات، وكان وقتها رئيساً لمجلس الأمة، فطلبه إلى مكتبه وعنفه، ويكاد يكون طرده من المكتب بطريقة غير لائقة، وذهب الزميل محمود أحمد إلى الأستاذ هيكل طالباً نقله إلى عمل آخر، وعندما

استفسر هيكل عن الأسباب ذكر له ما حدث.

فلم يكن من هيكل إلا أن طلب من محمود أن يخرج من مكتبه مباشرة إلى مكتب أنور السادات قائلاً:

- اذهب إليه الآن، وسوف يعتذر لك..

وطلب هيكل السادات على التليفون، ويكاد يكون « هزأه » طالباً، أن يعتذر فوراً إلى المحرر، الذي هو في طريقه إلى مكتبه الآن.

وفعلاً لم يكد محمود أحمد يصل إلى أول شارع مجلس الأمة، وقبل دخوله بوابة المجلس، وجد من يبلغونه أن رئيس مجلس الأمة يطلبه، ويسأل عنه، وما أن وصل إلى مكتب السادات حتى بادره قائلاً:

-« دا كلام يا محمود.. رايح تشتكيني للأستاذ هيكل، أنت صدقت، دا أنا بهذر معاك.. انت أخذتها جد.. يا سيدي أنا اعتذر لك..

-٦-

منذ البداية لم يكن أنور السادات يستريح لهيكل، ولكنه كان في حاجة إليه، وفي النهاية ظهر أن السادات هو الذي استخدم هيكل، وليس العكس، فقد كانت موهبته الحقيقية هي «التآمر»، فهو يبطن ما لا يظهر، ولا يظهر ما يبطن.

وكان خطأ هيكل الأساسي مع السادات، أنه لم يدرك أنه لا توجد تجربة تكرر نفسها...

ولعله لم يدرك أن علاقته مع عبد الناصر كانت لها ظروف مختلفة، هيكل كما الآخرون ممن أسماهم «مراكز القوى»، تصور أنه يستطيع أن يستخدم السادات، وهم أيضاً تصوروا هذا، وقف هيكل مع السادات حتى يخلص من هؤلاء، و يخلو له الجو، لكي يستخدم هو السادات بدون منافسة حقيقة، فتخلص هو منه في النهاية..

-٧-

رؤية هيكل للتعامل مع الصراع العربي الإسرائيلي كانت أقرب إلى رؤية

السادات، صحيح أن السادات مضى في طريق أسرع من اللازم، ثم بعد ذلك تورط أكثر من الضروري، لكن رؤيتهما كانت قريبة على هذا الصعيد..

-٨-

هيكل كان يثقف نفسه، وكان يحيط نفسه بساسة، ومفكرين، وكتاب مهمين، أحاط نفسه بهم، وجعلهم تحت جناحه، وكان إيمان هيكل عميقاً بنفسه وبالمحيطين به، غيره ممن حاولوا أن يلعبوا دوره لم يكونوا بنفس هذا العمق، موسى صبري مثلاً لم يكن إلا صحافياً شاطراً، وراهن على أنور السادات مبكراً، ولم يلعب معه إلا الدور المطلوب منه.

أما هيكل.. فقد كان صانع سياسة..

-٩-

سر أذيعه لأول مرة، بعد اغتيال السادات، خرج الأستاذ هيكل ومعه آخرون إلى التحقيق في المدعي الاشتراكي، وعندما عادوا إلى السجن، أخبرنا بعض من كانوا معه أن الأستاذ هيكل هو الذي أخرهم طويلاً حيث انتظروا جميعاً بعدما انتهى التحقيق معهم، حتى ينتهي هيكل، ولكني خمنت أن يكون الأستاذ التقى بالرئيس الجديد..

وذهبت إليه في زنزانته، وبادرته بالسؤال:

-« هل قابلت الرئيس مبارك؟

فوجئ، وظهرت المفاجأة على كل ملامح وجهه، لم يقر مباشرة، ولكنه تحدث معي عن أن الإفراج عن الرموز والتيارات السياسية سوف يتم قريباً جداً، وعن خطوات كثيرة تمت فيما بعد كما ذكرها لي بالضبط.

وكان حديثه يؤكد تخميني الذي فوجئ به، وطلب مني ألا أبوح بما أسر به لي.

-١٠-

هيكل داخل السجن كان متماسكاً، يحاول أن يكتشف السجن وناسه باعتباره عالماً جديداً عليه، وتوثقت علاقته بالكثيرين داخل السجن، لم يكن يعرفهم، أو

كان يسمع فقط عنهم، وأدار حـوارات مـع كثيـرين، ونشـأت بينـه وبـين كثيـرين علاقات ود وصداقة، فيها انفعال الوجود خلف القضبان.

-١١-

هيكل مؤسسة تؤمن بدور الفـرد، ولعـب أدواراً أخطـر مـن التنظيمـات، الأنـا والفردية متأصلة لديه.



ضياء الدين داود
عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي:
رفضنا أن يرأس هيكل لجنة لإحياء تراث عبد الناصر

-١-

عندما قدم هيكل استقالته من الوزارة نشر كتاب الاستقالة وكتاب قبولها وكانت عبارات الاستقالة تجري على غير مألوف التخاطب مع رئيس الجمهورية إذ بدأها بعبارة «الأخ والصديق»، وكان هذا المسلك أيضاً استفزازياً، ومقصوداً به التأكيد على دوره، وعمق علاقاته المؤثرة، حتى أن موقعه من رئيس الجمهورية، هو موقع الأخ والصديق بلا «كلفة» أو تقيد بأصول..

-٢-

في نفس أسبوع استقالة هيكل من وزارة الاعلام فوجئنا بالسادات يعرض علينا إصدار قرار بالتمرير من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا بتشكيل لجنة برياسة هيكل لجمع وإحياء تراث عبد الناصر، وكانت اللجنة قد قررت تشكيلها ضمن برامج تخليد ذكراه، ولقي الاقتراح برياسة هيكل للجنة معارضة شبه إجماعية، وبرر السادات اقتراحه بأنه وعده بذلك عند استقالته من الوزارة، وكان السادات إلى ذلك الحين ملتزماً بما نقرره، ولكنه عاد فاقترح أن تكون اللجنة برياسته على أن يكون هيكل مقررها، وعادت اللجنة فرفضت الاقتراح على تقدير أن الرياسة الفعلية ستكون لهيكل.

-٣-

عندما كتب الأستاذ هيكل بضعة مقالات تعارض فيها مع اتجاهات السادات وسياسته عزل من منصبه، وصب عليه السادات غضبه واتهاماته، وقالت في ذلك صحيفة «الأنوار» اللبنانية وقتها إن السادات أعفى هيكل لأن «الأهرام» تحولت إلى مركز قوة..

-٤-

صحيفة الأنوار نشرت حديثاً هيكل أجراه سعيد فريحة قال فيه عن إبعاد هيكل أنه كان أبغض الحلال إلى قلب السادات، الذي قال إنه حاول مراراً إعطاء هيكل فرصة، لكي يستمر في الكتابة، ولكن من موقع الالتزام بالخطوط السياسية للدولة، وحاول هيكل أن يقنع السادات بأنه ينطلق فيما يكتب عن اجتهاد شخصي يخطئ ويصيب، ولكنه لا ينقض الالتزام، ولكن السادات لم يقتنع، لاعتقاده بأن مقالات هيكل كانت تسبب إحراجات داخلية وخارجية، وأن هيكل كان يتمسك بحرية الصحافة لمصلحة النظام، الذي هو أحد أبنائه، بينما يرى السادات أن حرصه على الحرية شرطه ألا يتحول إلى مركز قوة..

-٥-

لاحظ أن تعبير «مركز القوة» لاحق الكثيرين حتى الذين ساهموا في اختراع التعبير وإطلاقه، فالضيق بالرأي المعارض، أو المناقض للسادات شخصياً وسياسته، جزاؤه العزل والقمع والمنع من الكتابة، أما استباحة عهد عبد الناصر وشخصه بالافتراء والكذب وبالتجريح والاختلاق، وأما الأقلام المسمومة فإنها حلال وسائغة، وتطبيق للحرية والتناقض واضح، واللعب بالشعارات وسيلة مفضوحة.

-٦-

كان هيكل حتى في وجود عبد الناصر يحرص وبذكاء على تنفير عبد الناصر من الاتحاد الاشتراكي، واللجنتين؛ المركزية والتنفيذية، وبخاصة بعدما وضح اهتمام عبد الناصر بهما، وانتظام اجتماعاتهما، وحرصه على حضور جلساتهما، بل وسروره مما يجري من مناقشات..

ولكن الأستاذ هيكل كان ينتهز مثلاً فرصة بروز مناقشة غير مرضية أو ثرثرة بعض الأعضاء ممن كان حديثهم مملاً أو منفراً، فيعلق على ذلك مع عبد الناصر بأنه لا جدوى، وهو مريض، من تضييع وقته، مع هذه الثرثرة غير المفيدة، أو هل

هذه المناقشات العقيمة هي التي تلتمس فيها رأياً مفيداً وهكذا ..

-٧-

كنتُ وبعض الزملاء من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي مقتنعين بأن هيكل بجانب السادات يلعب دوراً خطيراً، ويخططان للإطاحة بالاتحاد الاشتراكي، ولكن كان البعض الآخر خاصة ممن لهم علاقات عميقة بهيكل، لا يشاركنا الرأي، بل وصل ببعضهم الإفراط في حسن الظن بأن علاقة هذا البعض بهيكل (يقصد شعراوي جمعه وغيره) أقوى من علاقة السادات بهيكل ، وأن فكر هيكل لابد في النهاية سوف يتعارض مع توجهات السادات وأفكاره وأنانيته.

وظل هذا الجدال محتدماً بيننا، يتزايد كلما ازدادت الهوة بين السادات وبيننا اتساعاً، وكلما ازداد السادات حرصاً على الانفراد بالسلطة، وإهمال المؤسسات السياسية والدستورية، وازدادت القوى المعادية للثورة والمضارة منها اقتراباً وإحاطة بالسادات.

-٨-

أذكر عندما كان الأستاذ محمد حسنين هيكل لا يزال وزيراً، أنه اقترح على السادات بعد وفاة عبد الناصر بقليل، أن يقوم بدور على حد قوله Dramatic وذلك بأخذ المبادرة بالسفر إلى أمريكا، ومقابلة الرئيس الأمريك ريتشارد نيكسون، لكسر الحاجز بين مصر وبين أمريكا..



عبد المحسن أبو النور
أمين عام الاتحاد الاشتراكي:
هيكل حرص على تنفير عبد الناصر من التنظيم السياسي

-١-

بعد رحيل عبد الناصر أحسست أن حلفاً قد بدأ بين أنور السادات وهيكل ولما كان هيكل معروفاً منذ أيام عبد الناصر بأنه يهاجم الاتحاد الاشتراكي ويوقع بين قياداته والرئيس عبد الناصر فقد أصبح الجميع يتوقع أن يقوم هيكل بالوقيعة بين السادات وقيادات الاتحاد الاشتراكي وهنا تذكرت الجملة التي قالها لي أنور السادات عند مناقشته في خطاب استقالة هيكل من الوزارة بأن هيكل سيقف بجانبه بشرط أن يحميه السادات وهاهو التحالف بدأت تظهر نتائجه مبكراً..

-٢-

أسوأ مقال للأستاذ هيكل عنوانه« تحية للرجال» منشور في أهرام يوم الجمعة ١٢ مارس ١٩٧١، كان مقال مفاجأة سياسية وعسكرية لم يتوقعها مصري واحد فقد كان مضمون ما كتبه هيكل وكما قال الفريق فوزي إنه أدى لإحباط رجال القوات المسلحة إحباطاً لا حدود له».

وكان ذلك الاستنتاج صحيحاً، فقد كان هيكل، يريد أن يقول : إن الذين يطالبون بالمعركة إنما هم مزايدون ولا يعرفون حجم الخسائر المتوقعة في حالة نشوب المعركة، والحقيقة إننا تصدينا لهذا المقال وقام الشرفاء بالرد عليه مما أزعج هيكل وتولى المرحوم «عبد الهادي ناصف» كتابة مقال مهم تم نشره في الجمهورية ولقي صدى واسعاً من الإعجاب وكان عنوانه «تحية مردودة من الرجال»، كتب أيضا إبراهيم سعد الدين، والدكتور محمد أنيس وفتحي خليل وآخرون كثيرون..

***

-٢-

في لقاء تم بيني وبين أنور السادات بعد وفاة عبد الناصر مباشرة أطلعني فيه على خطاب استقالة أرسله محمد حسنين هيكل إليه طالباً إعفائه من وزارة الإعلام، مع احتفاظه برئاسة تحرير «الأهرام»، وطلب رأيي في هذا الموضوع..

فقلت له :

ـ من ناحية الشكل: فأنا أعترض على صيغة الخطاب الرسمي الموجه من وزير إلى رئيس جمهورية، فقد كان الخطاب يقول عزيزي فلان...

ومن ناحية الموضوع: فلماذا التعجل بالاستقالة، ولابد بعد عبد الناصر أن يقوم من يخلفه بتغيير وزاري، ويمكن للأستاذ هيكل أن يعتذر عن الترشيح فيه، دون أن نفتح الباب للاستقالات، قد يظهر منها عدم استقرار الحكم في هذا الوقت، الذي يجب أن نظهر فيه جميعاً متحدين، قادرين على ملء الفراغ الذي تم بوفاة عبد الناصر..

ولكني فوجئت بالسادات يقول لي في الحقيقة إنه يقول : إنه مستعد أن يقف بجانبي مناصراً لي ،كما كان يقف مع عبد الناصر، وأنه في موقعه في صحيفة «الأهرام»، يكون أقدر على الوقوف بجانبي عن الوزارة ، وأن كل ما يطلبه من السادات أن يكون بجانب هيكل ويحميه..

ودهشت، وقلت للسادات:

ـ ومن من تحميه؟

فرد قائلاً:

ـ «منكم»..

فرديت عليه مازحاً :

ـ منا إحنا؟..

فقال:

من كل فرد من الاتحاد الاشتراكي، ومن باقي أجهزة الأمن والرقابة، وتعجبت

من هذا القول، وقلت له:

ـ ما أنت عارف كل حاجة، هو حد قرب لهيكل من قريب أو بعيد حتى يطلب حمايتك...

وقلت للسادات:

ـ خلي بالك من هيكل، هيكل ده مش سهل..

فقال لي:

ـ هو أنا عبيط، أنا حاستخدم هيكل للحد الذي أريده، وبعد ذلك أرميه...



صلاح عيسى:
رئيس تحرير القاهرة:
هيكل فوجئ بتهافت السادات على الرضا الأمريكي..

-١-

لماذا قلب هيكل ظهر المجن على السادات ولماذا فجأة وبدون مقدمات أصبح هيكل ضد أمريكا وضد كيسنجر؟هل غضب لانتقاص سلطات أو سلطان؟، هل طالما كان شريكاً فهو قابل لتبرير كل شئ ؟هذه أسئلة مهمة في دراسة العلاقة بين أنور السادات وهيكل.

-٢-

هيكل شعر أن السادات أخذ منه مفاتيح العلاقة مع أمريكا، وفوجئ هيكل بزحف السادات وتهافته على أن يكون رجل أمريكا في المنطقة، فشعر أنه لم يعد له لزوم.

-٣-

في تصوري كل واحد منهم كان له هدف، هو استغلال الآخر؛ السادات يريد أن يستغل شبكة علاقات هيكل، ويريد أن يحصل على مفاتيح هذه العلاقات، ويرميه كما فعل مع الآخرين..

والسادات كان انتهازياً من الطراز الأول، وكانت عينه على ما في يد هيكل من مفاتيح كثيرة لعلاقات كثيرة..

وهيكل كان يتصور أن السادات سوف يحميه - أولاً - وأنه - ثانياً - سيكون عقله المفكر، والمدبر، والذي لا يمكن الاستغناء عنه، كما أن هيكل ظل فترة قناة اتصال وإيصال مع محمد أحمد صادق رئيس الأركان قبل مايو سنة ١٩٧١.

-٤-

السادات كان هو الأذكى..

استخدم كل واحد كما يريد، ورماه عند اللزوم، أو بمعنى أدق عندما لم يعد له «لزوم».

المحتويات